

العدد التاسع والعاشر – السنة الثالثة عشرة – رمضان 1390 – 1970

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

في هذا العدد :

تصدرها
وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

ثمن العدد درهم واحد

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الاسلامية بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد التاسع
والعاشر
السنة الثالثة عشرة
رمضان 1390
نونبر 1970

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما فأكثر .
السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط





ودعوة الحق ...

فى هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي تحفل ايامه الغر ، ولياليه البيض ، بخصائص كريمة حافلة بالحركة والالتزام والذكر والعبادة والخشوع ... شهر نزول القرآن الذي استطاع ان يقود العقل والقلب ، والشعور والوجدان الى رحاب السعادة الراضية الابدية، ويفتح الآفاق العريضة امام الانسان، ويدعوه الى التدبر والتفكر بآلاء الخالق ...

فى هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي جعل الله منه وعاء زمنيا لركن من أركان الاسلام ، وفريضة من اعظم فرائضه ، وهي صيام ايامه ، التي تعتبر بحق « مدرسة الثلاثين » حيث يتلقى فيها المسلم المومن دروسا فى الشفقة والرحمة والتواضع ... والمحبة والصفاء والسلام ...

فى هذا الشهر المبارك ، شهر رمضان المعظم الذي « يثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكبر ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر ... حتى اذا جاع من الف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والم الجوع اذا لذع ... (1) »

فى هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي خصه الله بمعركة حاسمة فى تاريخ البشرية هي معركة « الفرقان » التي كانت فرقانا بين الحق والباطل ، وفيصلا بين الهدى والضلال .

فى هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي هو امتحان لقدرة المسلمين على تمثل المرتكزات الربانية التي كانت مدار ايامهم فى « بدر » مطلع الايام ، ورفعة الصلاة والصيام ... والفتح المبين ...

فى هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي يلهم المسلمين معاني سامية فى دنيا الانسانية ويوحي من بواعث العزة والكرامة ، وما تشهده ايامه من منابع الخير ، وعوارف الفضل ، ومرابع النور والجمال ...

---

1) احمد شوقي

في هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي تعاني فيه الامة الاسلامية من الكوارث القاصمة ، والخطوب الداجية ، والمصائب التي تنهد من وقعها الجبال الرواسي ، فتتطلع الى ذلك الوعي الالاهي الذي يوصل في الفرد معاني العبودية لله ، فترتفع به ليأخذ مكانه في بناء الجماعة الجديرة بأن تحتل رابية المجد ، وقمة الشرف ، وتكون في مستوى تطلعات الامة وصرورتها في العيش الارغد ، والحياة الافضل ، والمقام الكريم ...

في هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم الذي يتحد فيه العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه في عبادة واحدة ، ترمز وتشير الى ما يجب أن يكون عليه هذا العالم الاسلامي الفسيح من الوقوف صفا واحدا لتقوية الجانب ، وتأكيد العزة التي جاء بها الاسلام ، ونادى بها الرسول الكريم ، وتحقيق الانسية الاسلامية الشاملة التي كادت تذوب في مادية العصر الجافة ، وتضيع بين الاقنعة المستوردة الزائفـــة .

في هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم تشاء الصدف ان تحتفل « دعوة الحق » بانتهاء سنتها الثالثة عشرة ، وتقف وقفة تامل واعتبار مع قرائها الكرام ، وكتابها الاعلام الذين تبارت اقلامهم الماجدة الخيرة ، الساعية الى صافيات القيم ، وواضح المثل لتحاسب النفس على الانفاس ، وتزن الخاطر بالقسطاس ، وتراقب الضمير حتى تبقى هذه المجلة محافظة على السمت الاصيل ، والتطور المعقول ، تدفع بالفكر المغربي الى مزيد من الغنى والعطاء ، وتؤدي ، في هدوء واتزان ، ورزانة وركانة ، امانة الله التي تتحقق في الكلمة الطيبة ، والفكرة النقية الطاهرة في مجال الدارسات الاسلامية ، ورحاب الادب والبيان ...

ثلاث عشرة سنة يطويها عمر هذه المجلة الرائدة ، وهي ما زالت ، في شبابها الغض، واحة ظليلة ينتجع اليها أولوا الفكر من هجيرة الحياة ، وقسوة الايام، وتنكب الظروف ... وبستانا اغن جمع اطايب الشعر من المنشدين ، ومشتهيات النثر من المجيدين ، وناضج البحث من المحققين المتمكنين أرباب الفكر ، وحملة الاقلام ، ورعاة التراث ، وحماة لغة الضاد ...

وستبقى ـ باذن الله وبجهد المناضلين الباسلين ، وايمان الرسل المبشرين ، دائمة الخضرة ، مخضلة الخمائل ، فواحة الشذا ، وطيدة الاركان ، باقية على الزمان ، شامخة البنيان ... لان لها من ماضيها الناصع ، وحاضرها اللماح ، ما يؤهلها للبقاء ومواصلة السير بوصفها « دعوة الحق » ، وباعتبارها جامعة ثقافية تلتف من حولها قلوب المسلمين من كل مكان ، وتحيط بها عقولهم وافئدتهم وجوانحهم

وما فتئت تواصل جهدها الحثيث في شحذ عقول الشباب المتوثب اغرودة الامل الباسم ، وسر النشاط المتدفق في هذه البلاد ، وتفتح ذراعيهـــا للادباء الشادين ، وتجعل نفسها ملتقى رحبا للاقلام المبدعة ، ومضمارا ميسرا لرجال الفكر الاسلامي والعربي اينما حلوا ، حتى اصبحت الحركة الادبية عن طريقها فعلا مشاعا بين اقطار العروبة والاسلام، وأخذت التيارات الادبية تتفاعل فيها تفاعلا مثمرا ابتعد بها عن الفكرة السطحية الضيقة والنظرة المحلية المحدودة ...

فباتت « دعوة الحق » لقاء فكريا عابقا بالوان العطاء ، ووسيلة لاكتشاف المواهب المبدعة الدفينة ، وابرازها مجلوة كي تاخذ مكانها الصحيح في مسيرة الادب والعلم والثقافة ، وسبيلا الى تسجيل تطورات النهضة الفكرية والعلمية

والادبية في بلادنا التي أصبحت ، أمام مقتضيات التطور الحديث ، تنفتح على الوان الفكر بكل مدى أبعاده ، ولا سيما في عالم تقاصرت ابعاده ، واختلطت مشارقه بمغاربه وفي زمن تلاقت فيه الحضارات ، وتمازجت الافكار ، ودنت الابعاد والمسافات ...

وقد تميزت هذه السنة بالنسبة « لدعوة الحق » باعداد خاصة اهتمت بحياة الاسلام واوضاع المسلمين في ديارهم واقطارهم في العصر الحديث، فوصلت الى كل قطر، واحتفى بها كل مركز ثقافي ، وتخطفتها الاندية الراقية في كل مكان ، وبذلك ، حققت اهداف السفارة الفكرية والروحية لبلادنا في ربوع العالم الاسلامي ، ومراكز الثقافة والبحث العالمية ، كما حرصت على تمتين الصلات الروحية ، ووشائج القربى الفكرية بين اعضائها في الشرق والغرب ... فكان عملها ، بفضل الكلمة المجلوة المضيئة التي تكشف للعقل آفاق العلم ، وطرائق الكمال ، اكراما للفكر ، واكبارا للمعرفة ، واعزازا للحضارة الباقية ...

وستقتحم ، في اصرار وثبات على الصدور باستمرار ، سنتها الرابعة عشرة، وهي مومنة أشد الايمان ، ماضية في طريقها على السمت الحسن ، عاملة على بعث الحياة الفكرية والعلمية على نطاق أوسع وأرحب ، تسير ، ولو على نشز ، الى غايتها المثلى في مصابرة ومكافحة ونضال ، تتلاقى عليها الاقلام الناضرة ، وتتفتح حولها القرائح الطيبة من مختلف الاقطار والامصار اللاهجة بلغة الضاد ...

واننا اذ نجزي كلمة الشكر والثناء والعرفان الى كل من أسهم في انجاح هذه المجلة ، وحافظ على اصالتها وعراقتها ، وبذل ما عنده من عطاء فكري لحمايتها ورعايتها ، فالى صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني نصره الله يعزى كل النجاح ، وينسب كل الفضل ، ويزجى كل اكبار واعتبار ، اذ ما برح حفظه الله ــ شأنه مع كل عمل فكري أصيل ــ يرعى هذه المجلة التي تقوم بالذب عن الاسلام والذياد عن حياضه ، والدفاع عن محارمه ، وتحارب البدع والاوهام ، وترهات واباطيل الافكار والاقلام ، وما انكر من بديهات وحقائق ، كما تبرز حضارة البلاد المغربية وثقافتها العلمية على وجهها الصحيح ، وحقيقتها الواضحة ...

دعوة الحق

نص الخطاب السامي الذي دشن به صاحب الجلالة الدورة العادية الأولى لمجلس النواب

سجل يوم الجمعة 7 شعبان عام 1390 الموافق 9 اكتوبر 1970 احدى الاحداث الوطنية التاريخية الهامة في عاصمة المغرب الرباط . وسوف يظل هذا اليوم المشهود على مر الايام احدى المنطلقات الرئيسية لبناء وطننا وتشييده على قواعد الديمقراطية السليمة والملكية الدستورية .

فقد افتتح صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله في الساعة الخامسة من اليوم المذكور الدورة العادية الاولى لمجلس النواب الجديد حيث القى حفظه الله خطابا ساميا توجيهيا حدد فيه معنى النيابة عن الامة ...
قال حفظه الله :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

حضرات اعضاء مجلس النواب .

يسرنا بالغ السرور ان ندشن أعمالكم بافتتاح الدورة الاولى من مجلسكم الموقر ، عملا بالدستور الذي اصدرنا الامر بتنفيذه منذ امد قصير ، وان نزف اليكم بمناسبة هذا الافتتاح تهانينا للثقة التي وضعها الناخبون فيكم جميعا .

واننا نريد بادىء ذي بدء ان نوجه اليكم نصيحة نرى من الواجب علينا توجيهها لكم :

نريد منكم معشر النواب ان تعتبروا أنفسكم نوابا للامة جمعاء ، لا نوابا لمن انتخبكم ولا غير نواب لمن عارضكم او لمن خاصمكم ، فانتم تنوبون عن الجميع .

تنوبون عن مقاطعاتكم تنوبون حتى عن خصومكم لان الشورى في الدين الاسلامي والامانة الكبرى والامانة العامة تقتضي من كل من يزاولها ان يتناسى، وان يترفع، وان يعمل للجميع ، لان الوطن غفور رحيم ، ولان الدولة الاسلامية السمحة كانت دائما مبنية على التسامح والتصافي والتوادد .

نريد منكم ان تعلموا ان الناخبين الذين انتخبوكم قد انتخبوكم ايمانا منهم ، بانكم تعرفون حقائق الامة ، وحقائق الوطن اكثر ما تكون المعرفة ، لتلك الحقائق .

انتخبوكم لانهم يؤمنون ، بانكم تعلمون حاجياتهم، وتقدرونها وتعرفونها .

انتخبوكم لانهم لمسوا فيكم النزاهة . وعرفوا فيكم الاستقامة والدفاع عن الامانة .

فما هو يا ترى دوركم الان عندمـــا تبتدئـــون اعمالكـــم ؟

ان دوركم هو الا تخيبوا تلك الظنون ، وذلـــك باظهاركم معرفتكم الحقيقية بالضروريات والحاجيات وما تقتضيه الدولة وما يقتضيه الوطن من عمل وكد واجتهـــاد .

ولكـــن ،

علينا ان نتساءل : اننا قد نعرف الحاجـــات ، وقد قدرنا المتطلبات ، فهل لدينا الامكانيات للقيـــام بها ؟ هل لدينا الامكانيات لانجاز ما نريد أن ننجز ؟

فعليكم اذن ، زيادة على معرفتكـم الحقيقيـــة للحاجيات ، ان تزودوا هذا البلد الامين بالامكانيـــات الضرورية .

فاذا كنا نحن منذ الاستقلال نتتبع سياســـة امكانياتنا ، فمطمحنا عند الله سبحانه وتعالى ان توجد لدينا امكانيات سياستنا .

فسياستنا كما تعلمون مبنية على الديمقراطية ، وقد لا أود استعمال هذا اللفظ ، لانني كنـت أود ان اجد في اللغة العربية الفصحى القحة ما يوازيه او مـــا يماثله ، لان الاسلام جاء بالديمقراطية ، فلم يسمهـــا تسميتها الحقيقية ، ولكن الاشتراكيـــة الاسلاميـــة والديمقراطية الاسلامية لم تكن لتنتظر الديمقراطيـــة الاوربية المستوردة حتى يعمل بها في الديانة الاسلامية وفي الامة الاسلامية .

فالديمقراطية التي نريدها لامتنا هي ديمقراطية لها مفهوم صحيح دقيق ، الا وهو الازدهار الاقتصادي والنهوض الاجتماعي :

ازدهار اقتصادي مبني على الانتاج والمبادلات ، لا في اطار الدولة والمغرب فحسب ، ولكن على الصعيد الدولي والصعيد الجهوي .

الازدهار الاجتماعي وهو محق الطبقية .

لا اريد أن أرى في هذه الامة الغني والفقيـــر ، ولكنني اريد أن أرى المغربي الكريم العزيز ، الـــذي يحمد الله سبحانه وتعالى وبلده على أن وفر له رغد العيش والطمأنينة والامن والسلام والتعليم والصحة والسكن والشغل والطعام ..

نريد منكم ، معشر النواب النصح والنصيحة .

نريد منكم الاخذ والعطاء فانتم ستأخذون مـــن حكومتنا وسوف تناقشون ما سوف تعطيكم ، ولكن نريد أن تأخذ منكم ؛ تعطونا ناخذ منكـــم ، آتونـــا بالمشاريع ؛ فهمونا بوضع العمالات والاقاليـــم التـــي تنوبون عنها ؛ آتوا بمشاريعكم وبرامجكم حتى يكـــون الحوار بيننا وبينكم حوارا مثمرا وحتى يكون المـــد والجزر ؛ لا المد وحده ولا الجزر وحده .

اننا نريد منكم الا تفكروا في الســـت سنـــوات فحسب التي سوف تجلسون خلالها في هذا المجلس ، ولكن نريد قبل كل شيء أن تفكروا في الذين سيتلونكم في هذا المجلس الموقر ، حتى لا يكون عملكم مقصورا على مدة وجيزة او على اشخاص معينين ، ولكن ، ان يكون عملكم متصلا ذلك الاتصال وذلك الدوام الـــذي هو طابع الدولة واستمرار الدولة ومصالح الدولـــة العمومية ، وأخيرا ، أرجو الله سبحانه وتعالى ، ان يمدكم بعونه ، وان يجعلكم أهلا للثقة التي وضعها فيكم ناخبوكم وأحسن الختام أن نقرأ الفاتحة جميعا عسى الله سبحانه وتعالى أن يسدد خطانا ويهدينا ســـواء السبيـــل .

خطاب صاحب الجلالة الملك المعظم مولانا الحسن الثاني إلى الأمم المتحدة بمناسبة الاحتفال بمرور خمسة وعشرين سنة على تأسيسها

وجه جلالة الملك المعظم خطابا ساميا الى الامم المتحدة بمناسبة الاحتفال بمرور خمسة وعشرين سنة على تاسيسها ، وقد القى الدكتور احمد العراقي الوزير الاول نص الخطاب في الجلسة التي عقدتها الجمعية العامة مساء يوم الخميس 22 اكتوبر عام 1970 ؛ وفيما يلي نص الخطاب :

« الحمد لله ، يسعدنا ايما اسعاد ان نبعث الى اعضاء الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة بتحياتنا المقرونة بالتقدير والاكبار ، ونتوجه اليهم بالخطاب بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على توطيد اركان منظمتنا ونعرب عن مشاطرتنا لهم اعتزازهم وفرحهم بالاحتفال بهذه الذكرى التي نامل ان تعقبها ذكريات وتتلوها احتفالات تبرهن على صمود هذه المنظمة للازمات وبقائها صالحة لفض المعضلات ونشر الامن والاطمئنان وتثبيت دعائم الوئام والسلام .

ولئن كنا مستبشرين متفائلين فاننا نتساءل الفينة بعد الاخرى عند حدوث حادث من الحوادث وحلول خطب من الخطوب هل تحتفظ النفوس بجذوة من امل وهل يتلألأ فيها وينير منها الارجاء قبس من نور وشعاع من ضياء ، ولكن التساؤل الذي يرد على الخاطر لا يلبث ان يبرح ويزول وسرعان ما يستقر في الافئدة مكانه اليقين بان منظمة الامم المتحدة مؤسسة سنت لنفسها اجمل المواثيق والعهود وبان الشريعة التي التزمت باحترام احكامها يستحيل ان تكون لفظا يعوزه المعنى وصرحا محكوما عليه بالانهيار، ومكسبا ماله الى الفناء والاندثار .

ان الآمال المعقودة بمنظمة الامم المتحدة لآمال جسام فقد تولد في قلوب الشعوب منذ اليوم الذي ارتفع فيه شامخ بنيانها الرجاء بأن هذه المنظمة ستكون عاملا من انجع العوامل على نشر الوية السلام والطمانينة والامن والسكينة ، بين الامم التي كانت تساورها المخاوف وتعاودها هواجس القلق من جراء هذا السبب أو ذاك . ولقد لاحت خلال الحقبة التي امتدت منذ انشاء منظمة الامم الى الآن في جهات من جهات المعمور اشباح الفزع والخوف الا ان الرجاء المعقود بها لم يخالفه في النفوس ذلك الانطواء الذي كثيرا ما يستتبع الياس على الرغم مما شاع فيها احيانا واحيانا من لواعج الحرمان وآلام التقصير والخذلان .

وهذا الامل الباقي على مر الايام وتعاقب الحوادث واختلاف الظروف والاحوال بين القسوة واللين والسراء والضراء لهو الدعامة الكبرى التي تقوم عليها اركان منظمتنا التي هي قبلة الدول المستضعفة وموئل الشعوب التي تستشعر الخوف والقلق والملاذ الذي تهفو اليه الامم العازفة عن اليأس المؤثرة للرجاء المتجاوزة عن شعور التقصير وقلة المبالاة الميالة الى استبدال المشاعر التي تستجيشها الحسرة والالم بالعواطف المشرقة بالانشراح والارتياح .

وان هذا الرصيد من الامال المنوطة بمنظمتنا ليقتضي استبقاء ما يكتنفها من هالة مثلما يقتضي استمرار ما يجب لها من حرمة واعتبار وهيبة ووقار.

ولن تحافظ منظمة الامم المتحدة على هذا الرصيد الثمين من الثقة وعلى اعتقاد طائفة من الشعوب التي تعرضت للعدوان والاضطهاد بانها المفزع الذي لا يرد وارده والملجا الذي لا يخيب قاصده الا اذا اتسمت مواقفها بالعدالة وحكمت بكل نزاهة فيما تتخذه من قرارات وتوصي به من توصيات تلك المبادىء والقيم التي امنت بها دول عديدة والفت منها ميثاق الامم المتحدة .

وليست التوصيات والقرارات التي تصدرها منظمة الامم المتحدة بكافية وحدها لحمل المتغطرسين من اعضائها على اعتبارها امرا مسلما يجب الاخذ به والتزامه وانما يتعين ان تكون هذه التوصيات والقرارات متصفة بصفة الفرض والالزام لا يتنكر لها الا من باء بغضب المجتمع الدولي وسيم التجريد من الانتماء اليه والانتساب .

ولن يتيسر لنا من هذا الامر ما نريده الا اذا قومنا من منظمتنا ما ليس بقويم وجعلنا منها اداة تنصف المظلوم وتكف جور الجائر وتدين العدوان ولا تتردد في احقاق الحق وازهاق الباطل ولا تميل مع الاهواء ولا تؤثر بالعطف من ثبت تحديه للمبادىء المتفق عليها وبان عبثه بالقيم التي لا يعبث بها الا من يعلم سلفا انه في حرز حريز من المؤاخذة وحصن حصين من العقاب والجزاء ولو كانت منظمتنا جارية على النسق الذي نبتغيه ممسكة بزمام الاخذ والرد لا تهاود ولا تجامل لما استفحلت بعض الازمات وتدهورت بعض الاوضاع ولما استطار الشر وحلت البلوى وامتحنت شعوب باسرها امتحانا عسيرا نجم عنه من المآسي ما يكل عنه الوصف ويعجز عنه التصوير

وقد كنا نظن ان عهد هذه المآسي قد ادبر وولى وان شعوب الدنيا بلغت من الرقي ما اصبحت معه تقيم الاوزان للقوانين المشروعة والمواثيق المبرمة حتى جاء اليوم الذي فاجأتنا فيه الاحداث بالخرق السافر للقوانين الدولية ، والعبث بالمواثيق المحكمة عبثا تقلصت به معالم الحضارة في احدى جهات المعمور وانتهكت من جرائه الحرمات واريقت الدماء واتسعت الجراح وتمكنت الحسرة من قلوب الذين كتب لهم البقاء لمشاهدة ما اصابهم واصاب اخوانهم من شدة وبلاء ، ونزل بهم من مكروه ولاقوا من عنت وعناء ، كنا نظن ان هذه الفواجع قد انطوت صفحاتها وهذه المناكير عفى الزمان على آثارها فاذا بنا نتسامع بالآثام تقترف والجنايات ترتكب والاعراض تستباح ، والكرامات تهدر وتداس ، والتعذيب يصيب من حكمت عليه صروف الدهر بأن يكون من المستضعفين والتنكيل يتجرع الامه من شاءت له الظروف ان يكون الابرياء المنظرين والنهب والاحراق وجماح الغرائز الخبيثة والدوافع الدنيئة واذا بهذا كله يقع في راض كانت مهادا للاديان ومثابة للايمان ومقصدا للوافدين الذين يرجون الرحمة والغفران وينتجعون مواطن السكينة والاطمئنان ويستدرون المثوبة والرضوان تحل هذه الكارثة بالاراضي العربية التي اكتسح العدوان الاسرائيلي اجزاء شاسعة منها لا يكف من غلواء المعتدين قرار ولا يكبح جماحهم توبيخ او انذار ولا يهابون تقريعا ولا تنديدا ولا يخافون تشنيعا او استنكارا دابهم في تصرفهم الغاشم داب من وثق بالحصانة وايقن بانها درع واقية باقية ان ما اخذوه نهبا وغصبا في ايديهم ملكا مملوكا لا نزاع فيه ولا جدال وذخيرة مذخورة لا تسترجع ولا تستعاد .

وان هذه الازمة التي حل مكروهها بالعرب والمسلمين لم تستعص على الحلول الا لان الامور لو قيست بمقياس الانصاف والعدل واحتكمت البصائر والعقول الى المبادىء المسنونة والقيم التي كثيرا ما يشاد بها في بعض الاحوال والظروف لما استمر مرير هذه الازمة ولما غدت منذرة بشر الاخطار مؤذنة باوخم العواقب وقد فهم العرب والمسلمون ما يتراءى من وراء هذه الازمة من اشباح مرعبة وسحب متلبدة مخيفة فاظهروا من الاستعداد لوضع حد لها ما يقوم شاهدا على حسن تبصرهم وشدة وعيهم ونضج افكارهم ومداركهم ولكن هذا الاستعداد لم يظفر لحد الآن بالتفهم الكفيل برد المياه الى مجاريها الخليق بمحو آثار العدوان وانصاف من حرم من حقه المسلوب وترابه المغصوب ونصرة من لا يتطلع الى التوسع على حساب غيره والى السيطرة والاستعلاء وبسط النفوذ الذي لا يستند الى عهد ولا ترتضيه الكرامة والسيادة

مع هذا فان اليأس لم يتسرب بعد الى النفوس وان الامل ما زال معقودا بناصية الدول الكبرى التي ترجح هذه الكفة او تلك في ايجاد الحل الذي يضمن للدول المهضومة الحقوق استرجاع ما فقدته من اراضي بلادها ، على ان الحل المنشود لا يكون حلا كاملا

الا اذا ادخل في حسابه مليونين من الفلسطينيين الذين ذاقوا زمنا طويلا مرارة التشريد ورغبوا : بانفسهم بعد الآلام والاحزان ان يستمروا على الحالة التي كانــوا عليها فشهروا السلاح وخاضوا المعركة مناضليـــن مستبسلين لاعلان ما لهم من مطالب وما يطمحون اليه من مكاسب فكل حل لازمة الشرق الاوسط لا ياخـذ بعين الاعتبار الواقع الفلسطيني سيكون ولا شك حلا غير محيط بالمشكلة القائمة في تلك المنطقة من جميـع جوانبها واننا اذ نهيب بالضمير العالمي ان يعجل بالحل الذي يعيد السكينة والاطمئنان الى النفوس ويوثــق اركان الامن والسلام ويبدد الظلمات والمخاوف ويفيء سبيل التصالح والوئام لنهيب من جهة اخرى بالدول الكبرى ذات الحظ الوفير من الثراء والازدهـــار أن تاخذ بأيدي الدول التي لم تبلغ بعدما ترغب فيه من تقدم ورخاء ورقي ونماء وتعين على اختصار المسافات ومد أسباب تعاون اشمل وتفاهم أكبر، فاذا نشرت على العالم الوية السلام وانصرفت الشعوب المتخلفة راضية مطمئنة الى ما من شانه ان يخطو بها خطوات واسعة في مجال التنمية فان الافاق التي ستنفتـــح امـــام الانسانية ستكون آفاقا مشرقة بنور امل لا ينحصر في نطاق الحاجات العاجلة وانما سيكون املا شاملا ليس في الامكان تقدير حجمه وأبعاده .

ملاحظات على منهج الإمام محمد عبده في الإصلاح

للأستاذ الدكتور محمود قاسم

لن نؤرخ هنا لحياة الشيخ محمد عبده ، ومن الممكن تدارك هذا النقص بالرجوع الى ما كتبه عنه تلميذه السيد محمد رشيد رضا في كتابه « تاريخ الامام محمد عبده » . لكن سنقتنع بالحديث اولا عن صلته بجمال الدين الافغاني لكي نبين بعد ذلك الى اي حد تأثر به والى اي حد وافقه او خالفه في الراي ، وربما تركنا مهمة المقارنة بينهما لغيرنا .

لقد كان الشيخ محمد عبده اول من فطن من المصريين الى الافغاني في خلال زيارته القصيرة لمصر في طريقه الى تركيا للمرة الاولى . فقد اقام الافغاني نحوا من اربعين يوما في القاهرة بحي الازهر . والحق ان الطلبة السوريين هم الذين عرفوا الشيخ محمد عبده بجمال الدين . وكان هذا الاخير يحاضر هؤلاء الطلبة في بعض العلوم الرياضية والفلسفة وعلم الكلام . وقد وصف لنا محمد عبده موقف مشايخ الازهر من الافغاني وتلاميذه ، اذ اخذوا يتقولون على الاستاذ وتلاميذه ، ويزعمون ان دراسة هذه العلوم تؤدي الى زعزعة العقائد الصحيحة . فلما احس الافغاني تلك العداوة الناشئة ترك مصر الى تركيا ، لكنه عاد الى مصر بعد غضبته على شيخ الاسلام في تركيا . وعندئذ بدات الصلة القوية بينه وبين الشيخ محمد عبده ، فقد وجهه الى الكتابة في موضوعات ادبية واجتماعية في الصحافة المصرية التي انشاها ، وكانما كان يعده لما هو اجل واخطر . ولما اتجه الافغاني الى المعترك السياسي وحاول الاحاطة بالخديو اسماعيل بسبب ظلمه للرعية واسرافه وتعريض مصر للضياع ، راى انه ربما افاد شيئا لو انضم هو وتلميذه الى المحفل الماسوني في القاهرة وكان ذلك في سنة 1878 . لكن سرعان ما كشف عن الزيف في هذه الجماعة التي كانت تزعم العمل على تحقيق الاخاء والحرية والمساواة ، وان كانت لها في الحقيقة مآرب اخرى ، فخرج منها ساخطا بعد ان جابه هذه الجماعة بحقيقتها ونفاقها وخدمتها لمصالح الغرب. ثم انشا محفلا وطنيا ينحصر هدفه الاول في رفع الظلم عن المصريين . كذلك يخبرنا السيد محمد رشيد رضا (1) ان محمد عبده التحق بالماسونية وخاب امله فيها . هذا الى ان محمد عبده لم يذهب الى المحفل الماسوني ، ولا مرة واحدة بعد عودته من منفاه .. ثم يصف لنا السيد محمد رشيد رضا كيف ان بعض شيوخ الازهر خيل اليهم ان محمد عبده انما نال الوظائف الكبرى بسبب انتسابه الى الماسونية ، لذلك قيدوا اسماءهم بها ، مع ان جمال الدين والامام محمد عبده لم يلتحقا بالماسونية الا ظنا منهما انها وسيلة لخدمة المسلمين والبلاد ..

ومما يفصح لنا عن ان هدفهما الحقيقي كان اسلاميا ، ولانقاذ مصر من ان تقع في ايدي الانجليز ، كما سقطت الجزائر في يد الفرنسيين ، ان الافغاني فكر فعلا في التخلص من اسماعيل باية وسيلة ولو كانت الاغتيال ، ويقال انه اقترح على تلميذه محمد عبده ان يقتل اسماعيل . وقد اعترف محمد عبده ان الافغاني كان حريصا على خلع اسماعيل ، وانه اقترح عليه ان

1) مجلة المنار صفحة : 401 – 403 – ج : 8 .

يقتل الخديوي . ثم يقول الشيخ محمد عبده « ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا، وكنت انا موافقا الموافقة كلها على قتل اسماعيل . ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة ، ولو اننا عرفنا عرابي فى ذلك الوقت فربما كان فى امكاننا ان ننظم الحركة معه ؛ لان قتل اسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر احسن ما يمكننا عمله ، وكان يمنع تدخل أوربا » (1) ولحسن الحظ لم تتلوث يد الشيخ محمد عبده بدم ذلك الملك الفاسد ؛ اذ عزل اسماعيل بعد ذلك بقليل . ثم طرد الافغاني ثم قامت الثورة فى سنة 1882 رغم ذلك ، لكنها لم تنجح بسبب خيانة « دليسبس » الفرنسي وبعض رجال الاقطاع فى مصر . ومن عادة الاقطاع أن يرحب بكل دولة غازية حتى يحتفظ بمزاياه ، ولو كان ذلك على اشلاء مواطنيه ، كما حدث مثل ذلك فى الجزائر ايام الغزو الفرنسي (2) .

وحكم على الشيخ محمد عبده بالنفي ثلاث سنوات بعد فشل الثورة العرابية ، فغادر مصر فى سنة 1882، متجها الى بلاد الشام ، حيث نزل الى بيروت ، وظل يراسل الافغاني من هناك ، حتى دعاه هذا الاخير ليلحق به فى باريس ، ليعاونه فى تحرير مجلة «العروة الوثقى » . لكن دب الخلاف بين الاستاذ وتلميذه ، بعد أن نجح الاستعمار فى القضاء على تلك المجلة ، فقد مال الاول الى مواصلة الجهاد ، ومال الثاني الى ترك السياسة ، فعاد الى بيروت . وانما آثر ترك السياسة لانه ظن أن اسلوب المداراة والمصابرة وسيلة لتنفيذ اغراضه ، والحق ان الظروف السياسية فى مصر كانت عصيبة ولان اية فتنة مسلحة قد تحصد فيها الارواح حصدا . فلا بد اذن من ترقب فرصة أكثر مناسبة . وهكذا غادر محمد عبده باريس واتجه الى بيروت . وهناك حاول اصلاح نظم التعليم فلم يفلح ، وايقن ان دولة آل عثمان غارقة فى بحار من الجهل ، فزاده ذلك يأسا على يأس . واضطر الى ان يطلب العفو الى الخديو توفيق ، حتى يعود الى مصر ، بعد ان ظل فى المنفى حتى سنة 1886 وارتضى أن يحيا حياة بعيدة عن السياسة ، واخذ يلعن كل ما اشتق من كلمة ساس يسوس . وقد اعتذر له بعض الكتاب بانه كان يكره السياسة منذ البدء ، وانه لم يشتغل بها الا عندما ساقه اليها تيار الثورة العرابية ، وبسبب خضوعه لتاثير استاذه جمال الدين الافغاني .

ومع ذلك ، فانه لم ينجح النجاح الذي كان يأمله فى اصلاح التعليم . وربما كان من اعظم آثاره التي ادت الى نتائجها ، بعد عشرات السنين ، انه زار الجزائر واتصل بعلمائها فى مطلع القرن التاسع عشر، فاطلعهم على فكرته التي اختمرت فترة من الزمن حتى وجدت من استطاع اخراجها الى حيز التطبيق ، وهو الامام عبد الحميد بن باديس (3) .

اما فى مصر فقد ظن الامام محمد عبده انه يستطيع تنفيذ برنامجه فى الاصلاح الديني والعلمي . وقد اتاحت له ظروف وجوده فى المجلس الاعلى لشؤون الازهر ان يحاول البدء فى امر ظنه ميسورا ، وهو ضرورة التجديد فى دراسة العلوم الاسلامية ووجوب العناية بالعلوم النظرية الحديثة. وبالفعل بدأ باصلاحات شكلية كزيادة رواتب علماء الازهر ، التي كانت قد بلغت من الانخفاض درجة مزرية دعت الناس الى النظر الى هؤلاء العلماء نظرة الاستخفاف والتهكم . وطبيعي انه كان محقا فى العمل على تحسين رواتبهم . غير انه كان حسن الظن بهم عندما خيل اليه انهم سيرحبون بآرائه فى الاصلاح الحقيقي للازهر بتعديل البرامج الدراسية ونظم الامتحانات ، اذ ما كاد يشرع فى بسط فكرته حتى لقى مقاومة شديدة من العلماء الذين كانوا يعتقدون ان المناهج والنظم القديمة افضل بكثير مما جاء يدعو اليه ، بل لقد صرحوا ان ماينتويه من الاصلاح ليس الا خدعة يراد بها القضاء على التقاليد الازهرية ، بل على التقاليد الاسلامية نفسها . وما كان هؤلاء العلماء على استعداد لقبول اية فكرة جديدة تدعوهم الى العناية بدراسة « المقاصد » او اللب من فقه وحديث واخلاق وعلوم انسانية ، بدلا من تركيز كل اهتمام على تحصيل « الوسائل » من نحو وصرف وجدل وعلم كلام . لذلك ثارت خواطرهم ، وهبوا يقاومون الشيخ محمد عبده ، مع انه كان حريصا على تعديل المناهج وتهذيبها حتى يستطيع الازهر البقاء امام المعاهد الجديدة التي انشئت ، او التي ستنشأ ، كمدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ، وحتى لا ينظر الشبان الى الانصراف عن الازهر الذي كانت

---

1) من حديث لمحمد عبده فى منزله 18ـ3ـ1902 ـ التاريخ السري ـ ص 354 .

2) انظر السلسلة التي نشرتها جريدة المجاهد الاسبوعية (بين الاستعمار والاقطاعية من كتاب مصطفى الاشرف الجزائر « امة وشعبا») . فبراير ومارس سنة 1966 .

3) انظر كتابنا الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ـ دار المعارف سنة 1968 .

الدراسات فيه تلقن تبعا لمنهج عقيم يغرق الطالب في التفريعات التي لا تنتهي ، دون أن تزوده بمعلومات واضحة وحاسمة تقف على قدم المساواة مع العلوم الحديثة ..

وقد عبر المرحوم احمد امين عن هذه الـروح العدائية لكل اصلاح او تجديد فقال : « يا لله واصلاح الازهر ! ما حاوله احد من قبل ونجح، ولا الشيخ محمد عبده ، لان كل المحاولات كانت تتجه الى هامش الموضوع لا اساس الموضوع ، وكانت عن سبيل استرضاء اهله والخوف من اي قلق واضطراب ، والازهريون كان يتزعمهم طائفة الفت القديم حتى عدته دينا ، وكرهت الجديد حتى عدته كفرا ، وعاشت في المغارات فلم تر ضوءا ، وافنت عمرها في فهم لفظ وتخريج كلمة وتاويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا . فاذا اتى مصلح سمم اهله الجو حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين الى التجديد ، وحرصوا على مراكزهم ان يكتسحها الاصلاح ، وجاههم ان ينتقل الى ايـدي المصلحين . وبجانبهم طائفة اخرى تؤمن بالقديم عـن صدق واخلاص ، ولكن عن ضيق افق وغفلة عن الحق. هم من جنس ما قال أهل الحديث عنهم : « تتطلب دعوتهم ولا تقبل شهادتهم » فتتجمع كل هذه العوامل فيضطر المصلح اخيرا الى الانسحاب ان غضب ، او المداراة والمسالمة والرضا بالموجود ان لم يغضب ، وتضطر الحكومة ان تتخلى عن اصلاح الازهر حبا في السلامة ، وتتركه ياكل بعضه بعضا ، وتنشيء بجانبه المعاهد لمعلمي اللغة العربية والقضاء الشرعي ، لتستطيع تنظيمها والاشراف عليها ، اذ اعجزها الاشراف على الازهر » (1) .

ويبدو ان اخوف ما كان يخافه علماء الازهر هو ان يكون في اصلاح معهدهم وتجديد مناهجه ما يدعو الى ظهور روح النقد للتراث القديم ، واغلبه من انتاج عصور التدهور . وربما افضى ذلك الى فتح بـاب الاجتهاد الذي راوا انه قد سد الى الابد ، بل وصموا جميع من حاولوا التجديد في اي فـرع من فـروع الدراسات الاسلامية كالفقه مثلا ، ولو عن طريق ما يسمى « المصالح المرسلة » حتى تكون الاحكام موافقة للتطور الاجتماعي مع الاحتفاظ بالاصول الاولى للدين ، بانهم من المارقين . وبلغ من جمودهم ان رموا هؤلاء الذين نادوا بضرورة العودة الى راي السلف واطراح البدع المستحدثة بانهم خطر على الدين والعقيـدة . وشيء من هذا القبيل حدث في كل مكان. وقد روى لنا الشيخ محمد عبده كيف ان احد هؤلاء المجتهدين ،وهو السيد عبد الحميد الزهراوي الحمصي لما هاجم الصوفية ، وبين ان هذا المذهب كان نكبة على الاسلام، هاجت عليه العمائم ، وقالوا انه مرق من الدين ، ثم رفع امره الى الوالي فقبض عليه ورمى به في السجن .. ولم يعف عنه السلطان الا بعد اشهر انه لم يقل الا ما يتفق مع اصول الدين » (2) .

وكم كان الامام محمد عبده يعجب لهذا الجمود ولغلبة روح التقليد ! فهو يتساءل « هل هذه الحالة جديدة على المسلمين حتى يقال انهـا عارض عرض عليهم ... ؟ لا يسهل على من يعرض احوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة ان يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على امزجة الامم .. فلو اخذت مسلما من شاطيء الاطلانطيقي وآخر من تحت جدار الصين لوجدت كلمة واحدة تخرج من افواههم وهي « انـا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » وكلهم اعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وان نطق به القرءان واجتمعت عليه الآثار » ..

ولم ينج الشيخ محمد عبده من عـداء هؤلاء العلماء المقلدين ؛ بل لقد لقي من عداء الخاصة والعامة اكثر مما لقي منهما استاذه ، فان الخديوي عباس لما اختلف مع الشيخ محمد عبده لامر يتعلق بمصلحتـه الخاصة ـ اذ كان يريد الاستيلاء على بعـض اوقاف المسلمين لقاء ثمن رمزي ـ ركن الى بعض الرؤساء الروحانيين ممن لهم نفوذ عظيم في نفوس العامة ، لكي يبثوا له العداوة بين الشيخ محمد عبده وبين رجال الازهر ، بل يقال انه ذهب الى حد تحريض بعـض اعضاء مجلس ادارة الازهر على الاستقالة لكي يستعيض عنهم بآخرين يكونون اقدر على الوقوف في طريق الاصلاح الذي كان محمد عبده ينادي بضرورة ادخاله على هذه الجامعة الاسلامية . ولم يكن شيوخ الازهر،من جانبهم يغفرون للشيخ محمد عبده انه جاء يحارب الجمـود والتقليد ، ويحث على التجديد وفتح باب الاجتهاد ، فظنوا ان خير سلاح يوجهونه اليه فيصيبـه هو ان

---

1) احمد امين ، زعماء الاصلاح ص 314 ـ 218 .

2) انظر كتابنا (الاسلام بين امسه وغده) ص 135 ـ 136 . وقد حاول بعضهم اغتيال الشيـخ عبد الحميد بن باديس لما هاجم اصحاب الطرق الصوفية في الجزائـر .

يتهموه بالكفر ، وان يشيعوا عنه ذلك،حتى ينفر الناس منه جميعا . وقد افلحوا في كيدهم الى حد كبيـر . وهنا يأتي دور الجهلة ومن لا خلاق لهم ممن يتجرون بالراي العام عن طريق الصحف المأجورة ، فانساق هؤلاء وهؤلاء من تلقاء انفسهم او بتحريض من اعـداء الشيخ محمد عبده للتشهير به ورميه بكل نقيصة . وافتنت الصحف الهزلية في التشنيع عليه ، حتى اصبح لا يطيق حياته ، دون ان يرجع عن آرائه او تضعف عزيمته ، وان تركت هذه المقاومة العمياء آثارها العميقة في نفسه . لكن مثل هذه المقاومة لم تقض على آراء هؤلاء المصلحين الذين فطنوا الى ان هذه الآراء ستسري في النفوس دون ريب ، ولا سيما انهم فطنوا الى ان العالم الاسلامي قد بدا يضطرب تحت وقع ضربات الغرب ، واخذ ينتفض من سباته الذي استمر اجيالا ..

ولربما كان لصلة الشيخ محمد عبده باللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر اثرها في عجزه عن تنفيذ برنامجه الاصلاحي ، اذ ان الخديو استغل علماء الازهر ليجابه بهم محمد عبده متهما اياه بانه يمالىء الانجليز .

وتقضي علينا امانة البحث ان نقرر ان هذه الصلة اساءت الى محمد عبده اكثر مما كان يتوقع . لقد كان يظن ان الانجليز سيساعدونه على تحقيق الاصلاح . وغاب عنه ان المستعمر يقف دائما للحيلولة دون اي اصلاح جوهري ، وبخاصة فيما يتعلق بقطاع التعليم(1) اذ ان الابقاء على جهل الشعوب التي تخضع له هو الضمان القوي لابقائها دائما تحت سيطرته . كذلك غاب عنه ان اي اصلاح حقيقي لا يمكن الا ان يتم في جو من الاستقلال لا في جو من التبعية . ومن قبل خفيت هذه الحقيقة على احمد خان في الهند ..

ومن الحق ان نقرر انه لم تكن للشيخ محمد عبده صلابة استاذه ، بل نجد لديه للاسف نوعا من الميل الى ملاينة الانجليز واطرائهم وادعاء انهم اقل الشعوب الاوربية تعصبا ضد المسلمين بسبب احتكاكهم بهم في اثناء الحروب الصليبية ولسبب ما اكتسبوه من اخلاق المسلمين وفروسيتهم ايام صلاح الدين الايوبي .. ولكنا نعتقد ان جمال الدين الافغاني كان اصدق منه حكما وابعد نظرا عندما وصف الانجليز بانهم ربما كانوا اشد الاوربيين كراهية للاسلام ، وانهم يجدون متعتهم المفضلة في التنكيل بهذا الدين واهله كما اشرنا الى ذلك من قبل .

ان اسلوب المهادنة والملاينة اسلوب سياسي لجا اليه الامام محمد عبده رغم انه كان يلعن السياسة، وهو اسلوب اعرج او معرقل ، وافضل منه اسلوب الصرامة الذي قد يؤدي الى تضحية ، لكنها دائما تضحية مثمرة . وقد عاب الشيخ محمد عبده على استاذه الافغاني انه صرف همه للسياسة فاضاع كل شيء مع انه كان « اعرف الناس بالاسلام وحال المسلمين وكان قادرا على النفع العظيم بالافادة بالتعليم » ، بل ذهب في نقد استاذه الى حد ابعد من ذلك فقال : « انه لو تقرب من السلطان بمقدار يمكنه من حمله على اصلاح التربية والتعليم من غير تعرض لفساد حاشيته ولا تدخل في شؤونهم ، بل مع مساعدتهم على اغراضهم الخسيسة لكان حسنا ، ولقدر ان ينفذ مآربه . مثلا يحسن للسلطان ان يصدر ارادته باصلاح الوعظ في الجوامع والتعليم الديني في المدارس ويقرن هذا السعي باعطاء ابي الهدى (شيخ الاسلام في تركيا) خمسمائة جنيه واعطاء نيشان لابنه او لاخيه ، فاذا رآه ابو الهدى يخدمه ، فيما هو مهم عنده ، فاما ان يواتيه واما الا يناوئه » ، وفعلا ارسل محمد عبده الى استاذه كتابا بهذا المعنى غفلا من الامضاء فغضب جمال الدين ورماه بالجبن (2) ... اليست تلك هي سياسة الحلول الوسط ، وهي السياسة العرجاء ؟

ان هذا النقد الذي وجهه محمد عبده لا ينقص قيمة الافغاني في نظرنا لان صلابته ، وجراته ومباشرته للثورة بنفسه ، وتعجله تحرر البلاد الاسلامية هو الذي كان سببا في التعجيل بالحركات الثورية المتتالية، التي ان تعثرت احيانا ، فانها انتهت بالنجاح ، في حين ان سياسة المهادنة قليلة الاثر ، وقد يفيد منها المستعمر الذي يحرص دائما على تأجيل الرحيل ، فلربما سنحت له فرصة جديدة تمكنه من استعادة قواه كاملة . وقد ترك لنا الاستاذ عبد القادر المغربي تحليلا عميقا لافضلية الافغاني في هذه النقطة فقال : ان اخفاق الافغاني في بعض ما حاوله هو سلم النجاح

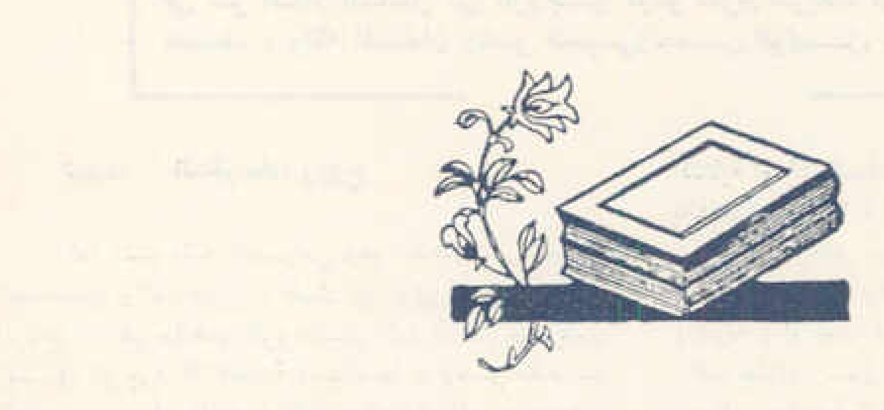
1) حدث شيء من هذا القبيل في الجزائر سنة 1933 ، انظر جريدة « الصراط » ـ (العدد الثالث وما بعده) ..

2) تاريخ محمد عبده ج 1 صفحة 894 ـ 897 .

فى كثير مما حاوله ، ومن يدري لعل جمال الدين لو صانع الحكام وسارع الى اهوائهم واول لهم مخازيهم ، كما كان يفعل غيره من الشيوخ ، لخفت صوتـــه ، وماتت دعوته ، ولما خلفه تلاميذ يصدعون بها » ويمكن ان نطبق هذا التحليل على الامام عبد الحميد بن باديس فلعله لو صانع الفرنسيين قبيل الحرب الاخيرة ووقع على البرقية التي كان يراد ارسالها من علماء المسلمين كشهادةاخلاص وولاء للحكومة الفرنسية لهدم ما كان قد بنى . ولا نغلو ان قلنا انه كان أقرب الى روح جمال الدين منه الى محمد عبده .

لكن كل ميسر لما خلق له ، ويبدو ان طبيعـــة محمد عبده لم تكن تتسع الا لاتباع استاذه فى منهـــج الاصلاح الديني . ومع ذلك فانا لا ننكر ان آثار هذا المنهج لم تكن اقل فعالية من الاتجاه السياسي عنــد استاذه ، فان تعاليم محمد عبده لا تزال تسري فى النفوس حتى يومنا هذا ، فقد عرف الجامع الازهر المعاصر فضله وتبنى الكثير من آرائه .

دكتور محمد قاســـم
عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة



تكوين الجنين في القرآن والحديث

للمرحوم الأستاذ محمد السائح

الحمد لله الذي بدأ خلق الانسان من طين ، وخلق الزوجين من ماء مهين ، ليقوما بحفظ النسل وبقاء النوع الى حين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد هادي الارواح الى أصلها الذي تحن اليه وترتاح ، وعلى آله وصحبه الذين عرفوا ربهم به فاستوى عندهم الغيب والشهود ،وفازوا بسر البروز من حضرة الاعيان الثابتة الى حضرة الوجود ، اما بعد ؛ فهذه رسالة سميتها : سبك الذهب واللجين، فى سر افتقار التناسل الى الزوجين ،وهو مغزى شريف، لم يبرز فيه فيما اعلم تصنيف ، والله المستعان وهو حسبي ونعمى الوكيل .

تمهيد : العالم مادة وروح

كما دلت عليه النصوص وهو مذهب من الحكماء المتقدمين والمتاخرين ، هناك من يرى ان ليس ثم الا الروح ، وهو مذهب الروحانيين كما ان ثم من يقول ليس فى الوجود الا المادة وخواصها ، وهو مذهب الماديين ويعرف المذهب القائل بالمادة والروح بمذهب الاثنينية ، وعليه براهين منها ما نجده فى نفوسنا من الشعور بشخصيتنا واستقلالنا الامر الذي لا يمكن ان يكون نتيجة مادة جامدة مهما كانت حالته من رقي التركيب ودقته واتقانه ومنها وقوع الادراك عندما تؤدي كل حاسة وظيفتها الذي تقوم به من الخارج . وبعبارة فقد اثبت العلم أن الاحساسات السمعية والبصرية ليست الا حركات اهتزازية تصب فى الدماغ ثم تنقلب الى افكار فهمية وهو مما يثبت بلا شبهة ان ثم شخصية عاقلة ، والا فمجرد الارتسام فى مادة جامدة لا يمكن ان يكون فهما وادراكا ، ومن زعم ان الدماغ يدرك فهو كمن يزعم ان القرطاس يدرك معاني

الكتابة او ان الساعة تدرك اجزاء الوقت المعلم عليها بانتقالات عقربها ، اما فى الاسلام ان المراد من قوله سبحانه (وخلق منها زوجها) خلقه من جنسها ، وهو كقوله سبحانه (والله جعل لكم من انفسكم ازواجا) ، وكقوله (اذ بعث فيهم رسولا منكم) ، وقوله : (لقد جاءكم رسول من انفسكم) ؛ وعليه فقوله سبحانه من نفس واحدة كلمة « من » فيه لابتداء الغاية فلما كان ابتداء الخلق والايجاد ، وقع بآدم عليه السلام صح ان يقال خلقكم من نفس واحدة . وايضا فلما ثبت انه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان قادرا ايضا على خلق حواء من التراب ، واذا كان الامر كذلك فاي فائدة فى خلقها من ضلع من اضلاع آدم كما ذكر ذلك الفخر الرازي فى تفسيره ومؤدى هذا القول انها خلقت من التراب خلقا مستقلا كآدم عليه السلام لا انها انفصلت منه ، والحديث الذي احتج به الاكثرون اخرجه البخاري ولفظه استوصوا بالنساء فان المراة خلقت من ضلع أعوج فان ذهبت تقومه كسرته وان تركته لم يزل اعوج فاستوصوا بالنساء . ولا حجة فيه على ذلك

لان الاقرب ، معناه انها طبعت على عوج الاخلاق كما في قوله سبحانه خلق الانسان من عجل ، اي طبع عليه . وقوله عليه السلام لا تصلوا في اعطان الابل فانها خلقت من الشياطين ، ان طبعت على طبعهـا اي النفـور والتوحش ، نعم اخرج ابن اسحاق في المبتدا عن ابن عباس ان حواء خلقت من ضلع آدم الاقصر الايسر ، ذكره الحافظ ابن حجر في كتاب النكاح وفي كتاب بدء الخلق ان ذلك من قبل ان يدخل (لجنة وجعل مكانه لحم ومعنى خلقت اي اخرجت كما تخرج النخلـة من النواة هـ كلام الحافظ وتفسيره لخلقها منه لخروجها منه كما تخرج النخلة من النواة قيم جدا ، فانه يدل على ان الاصل هو الذكر وان الانثى اقتبست جرثومة الحياة منه ولا يبعد ان يكون انفصالها منه كان في الطور النباتي الذي يمر عليه الانسان ويدل ذلك من قولـه وهو نائم .

ذكـر مذهـب التكويـن

وهو مذهب في الانقلاب الجنيني وحاصلـه ان الجرثومة الاولى حائزة لكل الاعضاء والصفات التـي تمتاز بها الصورة حال بلوغها سواء في ذلك الحيوان او النبات ، والانقلابات الجنينية انما هي عبارة عن نماء الاعضاء التي كانت من حين وجود الجرثومة الاولى في غاية الضمور ، فان الخلية الحية التي تكون في مبيض الدجاجة وغيرها من الحيوانات البيوضة وهي مركز الحياة فيها ، ليست الا تركيبا كيماويا في حالة الفراوة المبدئية ، قال في ملتقى السبل : بدا القول في هـذه النظرية بان الانثى دون الذكر هي التي تتضمن كـل جراثيم الافراد التي قدر للنوع ان يخرجها الى عالـم الوجود ، ولم يتغير هذا الاعتقاد حتى كشف العلاقة (ليونيهويك الهولاندي) عن جراثيم التذكير عام 1690 ووجده في عناصر التذكير جراثيم خطيطية الشكـل شرطها في اتمام النكاح كشرط بويضات الانثى تماما وكم كانت دهشة العلماء اذ تحققوا ان هذه الجراثيم الخيطية حيوانات صحيحة سابحة في المائع المنـوي وانها السبب الموجود للتناسل في ارقى ذوات الفقار، واثبتوا بالتجارب العديدة ان هذه الحيوينات لا تبدا في النما الا بعد ان تمتزج ببويضات التانية الناضجة كما تبت بروز النبات في الارض الخصبة . وساد الاعتقاد اذذاك بان كل حيوين من تلك الحيوينات يتضمن اعضاء الجسم البشري يومئذ ولا يخصر البحث الجنيني الا في معرفة كيفية نماء تلك الاعضاء وتمايزها منـذ اول عهدها باللقاح حتى النضج التام ، وان اعضاء التذكير في آدم كانت نحو حيوينات تساوي عدد افراد السلالات البشرية التي عمرت الارض منذ اقدم ازمانها وما هو مقدور له ان يعمرها في مستقبل ايامها (اقـول) ان مذهب التكوين يمكن استخراجه من كتاب الله الـذي لا تنقضي عجائبه وذلك من آية الميثاق المذكـور في قوله سبحانه : (واذا اخذ ربـك من بنـي آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هـذا غافلين ، او تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون) وتزداد عجبا اذا سمعت تفسير ابن عباس لهذه الآية ، قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابي عن ابي هلال عن ابي حمزة عن ابن عبـاس قال اخـرج الله ذريـة آدم مـن ظهره كهيئة الذر وهو في آدي الاذى الموج الشديـد (كذا بالاسان) مغمرا لهذا الاثر من الماء الا ان الدم الدائر في الاوعية لا يزال ابيض ولعل سر ذلك لان طور النطفة لا زال غالبا عليه ، ففي حديث ابن مسعود ان احدكم يجمع خلقه في بطن امـه اربعين يومـا . وفي الاربعين ترتسم ملامح التصوير وتستطيل الحلمـات لتكون الاعضاء ، وهو ما شرحه حديث حذيفة بن اسيد الغفاري في صحيح مسلم ، ولفظه اذا بالنطفة اثنتان واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا رب اذكرام انثى فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك الحديـث فتفسير هذا الحديث ان التصوير يبتديء وترسـم ملامحه في هذا الوقت ثم يسير على نظام التدريج وهذا اولى من تأويل القاضي عياض القائـل ان المـراد بالتصوير انه يكتب ذلك ثم يفعله في وقت آخر مستدلا عليه بان التصوير عقب الاربعين الاولى غير موجود في العـادة وانمـا يقـع في الاربعيـن الثالثـة اقول على انه قد يشاهد في كثير من الاجنة عقـب الاربعين تمام التصوير ووضوح التمييز بين الزوجين وقد شاهدت بنفسي جنينا ذكرا اجهض بعد الاربعين تام التصوير جلي الذكورة ولعل السبب في ذلـك ان التصوير الذي يبتديء عند الاربعين ويأخذ في التدريج قد يسرع في بعض الاجنة مسيره فيجتمع خلقـه في وقت قريب ، هذا والمراد ببعث الملك كما قال عياض امره وتصرفه بتلك الافعال والا فقد صرح الحديـث بانه موكل بالرحم .

المرحوم محمد السائح



للدكتورة بنت الشاطىء

> « مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ، وهو العزيز الحكيم . وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »
>
> قرآن كريم

- 4 -

لن يفرغ الناس عجب اذا كشفت لهم عن وجوه التدليس التي لابست ما يروج فيهم من تفسير عصري للقرءان ، وبينت لهم ما فيه من ضلال الاقتباس وعثرات الاخذ الغافل عن سياق النصوص المقتبسة .

وذلك ما ارجو ان افرغ له بعد موسم الامتحان ، بعون الله ومشيئته .

وقبل ان اتابع القول فى القضية ، دفاعا عن حرمة القرءان والعلم ، ارى من واجبي ان ازجي الشكر الجميل لكل الذين اعتز بوقوفهم معي ، واجد فى صدق مؤازرتهم مددا من الطاقة ، اتزود به فيما اواجه من التصدي لهذا التيار الجامح الذي يجتاح العقول والضمائر بضجيج مثار ، من طبول الدعاية واجراس الاعلان .

وادخل فى الموضوع ، فاستانف الكلام من حيث انتهى بي المقال السابق الى رفض هذا الامتهان لكرامة عقولنا ومنطق عصرنا ، بهذه الردة العقلية التي ترجع بنا القهقرى الى منطق العصر الاسطوري ، فتخايلنا بكشف المحجوب عن عالم الغيب ، وتدعي امتلاك مفتاح السر لكل علوم الدين والدنيا ! .

او « بتاع كله » كما تقول العامة بفطرتها السليمة التي لم يفسدها غرور ادعاء العلم بكل شيء ! .

وافرغ اليوم لبيان المزلق الخطر الذي يتسلل الى عقول ابناء هذا الزمان بالفكرة السامة ، تناى بهم عن فهم الصحابة للقرءان فى عصر المبعث ومدرسة النبوة ، وتحملهم على الاقتناع بان القرءان اذا لم يقدم اليهم اسرار التكنولوجيا والبيولوجيا والانثروبولوجيا والذرة والكمبيوتر والالكترون ؛ فليس صالحا لزماننا ولا جديرا بان تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصري . .

فى وعي ومسمعي ، اصداء مماثلة من دعوة سابقة ، بشر بها فى اعقاب الثورة العرابية دعاة اجانب ، لم يجرؤا على التصدي للقرءان مباشرة فاتجهوا الى لغة القرءان .

وخرجوا على الناس فى اقنعة العصرية والعلم والتقدم ، ينادون بان هذه اللغة البدوية هي المسؤولة عن تخلفنا العلمي والحضاري ، لانها التي قتلت فينا موهبة الاختراع وقضت علينا بالجمود والشلل والعقم ، اذ نفكر بلغة اسلاف لنا عاشوا فى عصر البداوة .

وتصدى ضمير الامة لمواجهة هذه الدعوة الاجنبية بالتحدي والرفض ، فكادت تذهب مع الريح ، لولا أن حمل لواءها دعاة من مثقفينا العصريين انكروا هذه الثقة التي اورثتنا عقليتها القديمة الجامدة المتبلدة . واشتدت حملة الاستاذ « سلامة موسى » على الاحافير اللغوية التي ورثناها من مجتمع ديني زراعي اقطاعي، فلغتنا الرسمية ليست لغة الديمقراطية والاوتوموبيل والتلفزيون ، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب ، فلا امل لنا في حياة صحية مع لغة خرساء تجهل نحو مائة علم وفن ، لا يمكن ان نعرفها الا اذا تركنا لغتنا الى لغة اخرى . ولا امل في تقدم وتطور ، الا بان تكون لغتنا علمية ، وثقافتنا كوكبية ، وكتابتنا لاتينية . بدلا من لغة تكلم بها العرب قبل الف سنة .

ولم تجد الدعوة الى نبذ العربية صداها المقنع فكان ان عمد داعية العصرية الى محاولة جديدة لتطوير اساليب لغتنا البدوية ، وقدم نماذج من هذه اللغة العصرية المقترحة ، لا تبعد كثيرا عن المحاولة الجديدة في التفسير العصري ، فتصور اننا ندخل سباق العصر العلمي ، بمجرد أن نستعمل مثل هذه الاساليب المستوحاة من علوم العصر .

من الطب : يمشي في تثاقل روماتيزمي ويعاني تخمة ذهنية .

من الكيمياء : مذهب التطور من اعظم الخمائر الاجتماعية والطاقة الموطرية للكلمات .

ومن الميكانيكا : الحرب قاطرة التاريخ .
ومن الموسيقى : الحياة تفقد ايقاعها في المرض .
ومن السيكولوجية : تجرثمت الفكرة عندي .

وكما اشتدت حملته على حماة الفصحى ، اعداء التطور وكهان العصر « وهم الذين تخصصوا في درس اللغة العربية ، فان تخصصهم ضيق آفاقهم فصاروا ينظرون الى لغتنا كما لو كانت احدى اللغات المتحجرة في المعابد . . . زد على هذا . انهم قد اصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادي ووجدان طبقي ينهضان على استبقاء العربية في جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ويرون فيه هجوما على مصالحهم الاقتصادية ولكن يجب ان نذكر ان مصلحة الامة يجب ان تعلو على مصالح اية طبقة فيها » .

تشتد الحملة اليوم على احتكار اصحاب التخصص وينشر احد الزملاء نداء لي ، بنفس المنطق ، ان لم يكن بنص عبارة الاستاذ سلامة موسى :

« ان افكر في القضية بعقلية **المفكر الحريص** على مصلحة الامة ومستقبل الانسان ، **لا بعمامة المحترف** الذي يحرص على مستقبله الخاص ، ويدافع عن اختصاصاته الرسمية التي ياخذ منها رزقه » .

والسؤال الذي تطرحه القضية هو :

هل نفهم القرءان كما فهمته مدرسة النبوة في عصر المبعث ، او كما يفهمه مفسرون عصريون ندبوا انفسهم لمنصب الفتيا في العقيدة وفتحوا بابهم لتلقي اسئلة الناس واصدار الفتاوي فيها ، ولا دراية لهم بعلوم القرءان واسرار لغته وبيانه ؟؟؟

وابادر فاشهد واقر واعترف ، بانني فيما اشتغل به من دراسات قرءانية، وما انشر فيها من كتب مقررة على طلاب الجامعات في المشرق والمغرب ، لا اطمع الى اكثر من فهم القرءان كما فهمته مدرسة النبوة في عصر المبعث . وجهادي العلمي الاكبر ، هو تحرير فهمنا للقرءان من كل الشوائب التي اقحمتها عليه مدسوسات الاسرائيليات واهواء المذهبيات وبدع التأويلات ، لنخلص بالنص القرءاني في انقى اصالته .

وبقدر ما نفهمه نقيا واصيلا ، نكون اقرب الى مدرسة النبوة التي تلقت من صاحب المعجزة ، عليه الصلاة والسلام فهمها الديني للعقيدة الاسلامية ، واصغت الى توجيهه عليه الصلاة والسلام ، لمغزى كلمات الله . وكان لها من عراقتها في لغة القرءان ، ما تدرك به اسرار البيان المعجز . .

ويشتد منهجنا العلمي في صرامته فلا نجيز للطلاب ان يتاولوا لفظا قرءانيا او حرفا ، او حركة ونبرة ، على غير الوجه الذي جاء به في القرءان .

وبروح عصرنا ، ادرك ويدركون معي ان اى علم من العلوم الحديثة يلتمس في مراجعة العلمية ويؤخذ من علمائه المتخصصين . ولا نتصور ان القرءان يدرس في المشرحة والمعمل ومراكز الكمبيوتر وقواعد القضاء كما تدرس علوم العصر .

وبايماننا بالعلم ، ندرك ان عصرنا يفكر علميا بعقلية الغد وطموح التطور ، اما الدين فنفهمه نقيا بمنطق العقيدة التي لا تتغير بتغير الزمان او المكان لان الدين ثابت في جوهره واصوله ، وفي قيمه ومثله ، وثباته هو مناط عموميته وخلوده .

واعلم ان ابنتي المتخصصة في الرياضيات ، تشتغل في دراستها الجامعية العليا ، بتعديل نظرية

اينشتاين في التسبية، حين لا اتصور ان اخرج من طول عكوفي على دراسة النص القرءاني ، بتعديل لفهمه على غير ما فهمه الذين تلقوه مباشرة من المصطفى المبعوث بالقرءان ، معجزة نبوته وكتاب رسالته ، ولم يتلقـوه عن مفسر عصري يؤول للناس ما جاء على لسان ذلك النبي الامي الذي لم يكن يعرف لا هو ولا قومـه ولا عصره ، معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيميـاء عضوية وعلم اجنة وتشريح وانثروبولوجيا!

فما الذي يعرفه مفسرنا العصري ، من كل هذا الذي لم يعرفه نبينا الامي ؟

ماذا اكتشف لعصرنا العلمي ، من عجائب اسرار هذه العلوم التي غابت حتى عن « دارون » لمجرد انـه « لم ير يد الصانع الخالق المهندس ، وهـي تهندس وتخلق » ؟ ص 47 .

اكتشف لغزاة القمر ، في آية يس : « والقمـر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

(انها تشبيه حرفي للقمر الذي لا خضرة فيـه ولا ماء ولا حياة) ص 50

وكشف عن سر الخلق من « حمأ مسنون » بانه (اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعـد الف واربعمائة سنة) ص 51 .

ثم ترك للناس ان يفهموا ما شاءوا من اكتشافات العلم عن خلقنا من حمأ مسنون . ؟ !

واكتشف في كلمات الله « الذي اعطى كل شـيء خلقه ثم هدى » انه (هدى الى مسيرة التطور حتـى بلغت ذروتها في آدم) ص 53 .

اما قوله تعالى في الانسان : « ثم رددناه اسفل سافلين » فاكتشف فيها التفسير العصري (ان مـا حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحـل تطورية في الارض ، كان ردة وكـان انتكاسا وعقابـا لخطيئة ـ الاكل من الشجرة المحرمة ـ وقد جرى في الازل قبل المرحلة الارضية للوجود الادمي) ص 55 .

(واسفل سافلين هي هاوية التيه المـادي الى طين المستنقعات .. هذه المرة الى مجرد جرثومة في طين الارض الى نقطة بـدء اولى من الصفـر) 57 واكتشف لعصرنا العلمي من آية آل عمران :

« واذ اخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصـدق لما معكـم لتومنن به » .

انها (آيات كواشف تشير الى مرحلة روحيـة عشناها في الملكوت قبل النزول في الارحام .. وهـي كلمات تعني سبق الوجود المحمدي على جميع الانبياء) ص 60 .

واكتشف لبيولوجيا الحيوان وميكانيكا الصلب، ان القرءان اذ ضرب « مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » فذلك من الاعجاز العلمي) لان العلم كشف مؤخرا ان انثى العنكبوت هي التي تنسج البيت ، وليس الذكر وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة ايام نزول القرءان) ص 211 .

ويعرف المبتدئون من طلاب العربية ، ان القرآن هنا جرى على لغة العرب الذين انثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية ، كما انثوا مفرد النمل والنحل والقمح والعنب ، فلم يقولوا في الواحد منها الا نحلـة ونملة وقمحة وعنبة . وهو تانيث لغوي لا علاقة له من قريب او بعيد بالتانيث البيولوجي كما وهم المفسـر العصري !

ثم تورط من هذا الوهم الى وهم ابشع ، فأضاع كل السر البياني للآية تضرب المثل لاوهن البيوت ببيت العنكبوت حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية ، (وهي ان خيط العنكبوت اقوى من مثيله من الصلب لـثلاث مرات ، واقوى من خط الحرير واكثر منه مرونـة) ص 211 .

وعلى هذا التفسير العصري : لا يصلح بيـت العنكبوت مضربا للمثل على الوهن ، لانه ليس اهون من بيت الصلب او من بيت الحرير اتخذته دودة القز !!

ونحن علماء النصوص واساتذة التخصـص ، نرفض هذا العبث بحرمة كتاب لا يحل لنا ان نفهمه الا كما فهمه من جاءنا به من وحي معجزته .

فهل يقبل علماء الكونيات والطبيعيات هذه الردة العقلية التي تهيم في كل واد ، وتكتشف لهم طبيعـة القمر بالعرجون القديم ، وسر الخلق بالحمأ المسنون .

ردة وانتكاسا وعقابا لخطيئة في الازل قبل المرحلة الارضية للوجود الادمي ؟

ذلك ما لا اتصوره ..

ولا يتصوره معي ابناء اسرتي المتخصصون في : الطب والهندسة والقانون والموسيقى والرياضيـات والعلوم السياسية . !

وماذا عن الغيبيات ؟

المتدينون منا ، يؤمنون بها كما جاءت فى الكتاب الذي آمنوا به !

وفى دراستنا العلمية ، تلفت الطلاب الى ان العلم يرفض كذلك ان نخوض فيما لا علم لنا به .

ويأتي تفسير عصري ، يخايلنا نحن أبناء عصر الفضاء والقمر ، بعجائب وغرائب ، من علمه بالغيب ، وكشفه الحجب عما استأثر الله بعلمه ، وليس لدى العلم التجريبي اي قول فيه !

ومن دار الافتاء العصرية ، نقرا ان : كرسي الله الذي وسع السموات والارض ، (هو قلب المؤمن ، وان العقل هو العرش ، والجسد هو اللوح المحفوظ الذي يكتب الله عليه، على الجينات الوراثيةفى خلية الجنين، قدر المولود وحياته) .

وان النذير للضالين فى جهنم « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده » .

(مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من اهمال نظافة اسنانه وتقول له، اذا لم تنظف اسنانك بالفرشاة فان الفئران سوف تأكل اسنانك .. وبالطبع لن تأكل الفئران اسنانه) ص 68 . وان جنة الاخرة (هي درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف على الارض ولكن مع تفاوت هائل فى الرتبة.. مثل التفاوت بين الزمن والابد (؟!) ومثل التفاوت الذي ذكرناه بين طعم قطعة سكر، وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة للبالغ) ص 63.

) وان ناموس القيامة باختصار ، هو تجلى الله بذاته) ص 151 .

وهي (قيامة كبرى يفنى فيها الزمن فى الابد ويعود الكل الى اصله ومنبعه . لا محل لشك او ريبة) ص 152 .

وان كروية الارض تثبت بآية (الساعة تأتي ليلا او نهارا ، ولا تفسير لذلك الا ان تكون الارض كروية دوارة) ص 146 .

وان ملائكة العرش الثمانية فى آية الحاقة : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (لعلها قوى كهرمغطيسية هائلة ، الا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟) ص 129 .

فيا اصحاب الرياضيات والطبيعيات ، هل يعني رقم ثمانية عندكم ، قوى كهرمغنطيسية ؟

وهل تعلمون طلاب التشريح فى عصرنا ان قلب المؤمن كرسي الله ، وعقل الانسان عرش خالقه ، ليقتنعوا بأن القرءان صالح لهذا الزمان ؟

اما نحن اساتذة علوم العربية والاسلام ، فلا نجرؤ على ان نلقن الطلاب ابناء هذا الزمان ، بمثل ذلك التفسير العصري لمغيبات يفرض علينا ايماننا بالدين والعلم ، الا نخوض فيها بغير علم ، حتى لا يكون مثلنا « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت » .

وهيهات ان نسخر بعقولهم ، فتدعي العصرية فيهم بكلمات ساذجة تلوكها عن كروية الارض ، والكهرمغنطيسية ومسيرة التطور ، وقوانين الجاذبية، والجينات الوراثية فى اللوح المحفوظ . والحقيقة البيولوجية فى التأنيث للفوي العنكبوت !

فهل بلغت ؟

اللهم فاشهد ...

القاهرة : بنت الشاطىء



فى مقدمة الحقائق التي تقف على رأس القائمة الكشف عن دور الاسلام فى الحضارة العالمية ، انشاء المسلمين والعرب للمنهج العلمي التجريبي الذي تم قيام الحضارة الحديثة على أساسه .

والكشف عن هذه الحقيقة وتاكيدها يدحض بكل دليل ذلك الاتهام الباطل الذي ردده (ارنست رينان) ومن تابعه وهو يقول بأن الفلسفة الاسلامية ليست الا فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية ، وهي الدعوى الباطلة التي ما تزال ترددها كتب دراسية فى بعض الجامعات والاقطار العربية .

ومن الخير ان نوضح فى مجال العلاقة بين الفكر اليوناني والفكر الاسلامي ، ان هناك منهجان واضحان مختلفان . احدهما المنهج القياسي اليوناني والثاني هو المنهج التجريبي الاسلامي .

وانه مهما قيل من ارسطو او افلاطون او غيرهما من قبل او بعد قد تحدثوا فى العلوم والفلسفات فان كل تراث اليونان فى هذا الشأن ، هذا التراث الذي نقله العرب وترجموه يوضع كله تحت عنوان واضح هو : « المنهج النظري القياسي » ، اما ما قام به العرب من بعد حين ترجموا هذه العلوم وحققوها وصححوا اخطاءها ، هذا الذي قام به العرب ، قد انطلق من خلال مفهوم جديد يملي فكر جديد ، له اصوله القرءانية العميقة،ومن هنا كان اختلاف منطلقه اساسا عن اتجاه اليونان وكان انتقاله هذه النقلة الواسعة من القياس النظري الى التجربة العملية . وليس هذا بالشيء الهين او اليسير ، او بالامر الذي يمكن ان يوصف على هذا النحو الذي يصوره به من يلبسون مسوح الانصاف الكاذب حين يقولون : ان العرب قد حفظوا تراث اليونان ثم سلموه للاوربيين من بعد ، وكانوا حفظة امناء !

ان هذا القول ليس صحيحا على اطلاقه ، بل انه ظالم ظلما بينا لدور العرب والمسلمين ، هذا الدور الايجابي الرائد ، وانه فى الانظار والغبن للاضافات الحقيقية التي قام بها العرب والمسلمون حين قلبوا موازين العلم كله ، ونقلوه نقلة واسعة من النظر الى التجريب ووضعوه على طريق الحضارة العلمية .

ومن حق شباب العرب والمسلمين اليوم ان يعرفوا ذلك وان يتاكدوا من صحته حتى لا تخدعهم تلك العبارات المصدرة فى كتب الدراسة والثقافة والتي تحاول ان تقول بأن الفلسفة العربية هي فلسفة يونانية مكتوبة بالحروف العربية ، أو تقول مرة اخرى على سبيل الانصاف الكاذب : ان العرب حفظوا تراث اليونان .

فالامر ابعد من ذلك جدا واخطر من ذلك جدا .

فلم يكن من المعقول على اى منهج من مناهج الاجتماع ان تصلح الفلسفة اليونانية للمجتمع الاسلامي ذلك ان لكل نظام اجتماعي فلسفته المنبثقة من قيمه واوضاعه المعبرة عنه .

ولقد كانت الفلسفة اليونانية معبرة عن المجتمع اليوناني المخالف مخالفة كاملة للمجتمع الاسلامي ، فقد كان مجتمعا عبوديا يقوم على اساس سيادة طبقةالامراء الذين يعيشون على المتعة والتأمل بينما تقوم طبقة اخرى بالعمل والعبودية ومن نصيبها الفقر والظلم المبين ، ولم تكن فلسفة ارسطو وافلاطون الا تعبيرا عن هذه المواضعة ، والا تبريرا لهذه العبودية ، وهذه « جمهورية افلاطون » التي يشيدون بها لم تكن الا اقرارا بعبودية المجتمعات ازاء سيادة المشرفين ومتعة السادة .

ولم يكن هذا شأن المجتمع الاسلامي الذي بناه القرآن، واقامه على اساس الاخوة والمساواة والتكافل، وعلى اساس العمل ، ومن هنا فان فلسفة اليونان لم تكن لتصلح لهذا المجتمع مهما نقلها الفلاسفة وحاولوا التوفيق بينها وبين الفكر الاسلامي .

وهي فلسفة تأملية خالصة ، تؤمن بوجود الله ولكنه اله يحرك ولا يتحرك ، ويتأمل ولا ينهج ، وهي فلسفة تقوم على الماهية والكيف والتجريد .

وهي بذلك تختلف اختلافا بينا عن التوحيد الخالص ، وعن الاتجاه العملي الواضح في منهج القرآن الذي خلق منهجا علميا مستمدا من هذه القيم ومن تطبيقها على المجتمع الاسلامي العامل المتفتح والذي اقام حضارة علمية وعملية واخل اطار الاسلام ، باعتبار ان الاسلام دين وعبادة ونظر ومعاملات .

ومن هنا فقد بانت تلك الفوارق الواضحة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية متمثلة في :

(1) التوحيد والنبوة (2) عملية الفكر الاسلامي، (3) المجتمع غير العبودي . ولذلك فان الفكر الاسلامي لم يلبث ان تجاوز الفلسفة اليونانية وارسطو ومنطقه الى المنهج العلمي التجريبي ، وظهر ذلك واضحا في الاضافات القوية التي قدمها البيروني وجابر بن حيان في مجال العلم ، وابن حزم وابن خلدون وابن تيمية في مجال الفكر .

وبذلك خرج المسلمون عن الفلسفة اليونانية وعن منهج ارسطو واقاموا منهجا خاصا مستمدا من فكرهم وحضارتهم .

ومن ثم اقاموا المنهج التجريبي ، القائم على التوحيد بين النظر والعمل ، وادركوا (1) « العلية » بين الاشياء كاساس للمعرفة العقلية (2) وبدا مفهوم النظرة الكاملة للكون والكائنات قوامها تطور الكائنات وتداخلها (3) ونظرة جديدة الى الانسان وهي كلها تختلف عن الفلسفة اليونانية وتجاوزها تجاوزا خطيرا، فكان في مجموعه قوام المنهج العلمي التجريبي الذي نماه روجر بيكون ، وديكارت ، وفرنسيس بيكون ، وجاليلو والذي اتم انشاء العلم التجريبي الحديث .

— ◆ —

وحقيقة اخرى في هذا المجال : هي ان العرب قد ترجموا ما عند اليونان على انه نصوص ونظريات ، ولم يتقبلوا هذه النصوص وهذه النظريات على علاتها ، بل عرضوها على التجربة وهناك وجدوا بها كثيرا من الاخطاء ، ووجدوا بها كثيرا من الخرافات وخاصة فيما يتعلق بالفلك والكواكب مما يمكن ان يوصف بانه من تراث السحر والاساطير التي لا تثبت لاضواء التحقيق العلمي .

ومن ثم فقد اجروا هذا التصحيح اولا ، ثم اخذوا هذه النصوص فنموها واضافوا اليها وتحرروا من جذورها ، ومناهجها القديمة ، التي ترتبط اساسا بالفكر اليوناني ومفاهيم الاغريق وعقائدهم ، وبذلك اعادوا بناء فكر جديد : هو الفكر الاسلامي التجريبي، ووضعوا منهم العلم التجريبي الاسلامي الذي استمدوه اساسا من القرآن ، ومن التوحيد ، وما اقوله في هذا الصدد ليس استنتاجا ولكنه حقيقة اعترف بها العلماء والباحثون .

ولم يكن غير هذا ليحدث في نطاق « قيم » الفكر الاسلامي .

ومرده اساسا هو الخلاف الواضح العميق بين جذور الفكر الاسلامي المستمد من جوهر « التوحيد » والنبوة ، ومنطق القرآن في الدعوة الى النظر في الكون، والى تقديم البرهان والى انظار اساليب الظن ، والى اعتبار العلم والتعلم من اسس الاسلام .

وبين منطلق الفكر اليوناني القائم على (ارجانون) ارسطو المستمد من الفلسفة اليونانية الوثنية ، ذات المفهوم المباين ، المختلف اختلافا واسعا في مجال الالوهية والنبوة وغيرها ، ولقد ذهب بعض علماء المسلمين شوطا في محاولة صياغة الفلسفة اليونانية في وعاء التوحيد الاسلامي ، غير ان هذه المحاولات لم تحقق شيئا ، وفشلت فشلا ذريعا ، وتبين بعد ذلك الجهود الضخمة التي قام بها ابن سينا والفارابي والكندي أن عملهم ليس الا امتدادا للفلسفة اليونانية وانهم بعيدون كل البعد عن « الذاتية » الاسلامية .

واتضح انه من العسير تفريغ منهج الفلسفة اليونانية الوثني الطابع ، القياسي الاصول في الفكر الاسلامي التوحيدي الطابع التجريبي الاصول .

ومن هنا كانت تلك المعارضة الضخمة لمنهج ارسطو وارجانونه الذي عجز عجزا كبيرا ان يتجاوب مع الفكر الاسلامي الذي ينطلق من منطق القرآن اساسا ، ويتماسك في قوة وصلابة دون ان ينصهر في

الفلسفة الهيلنية ، كما انصرفت اليهودية والمسيحية والبوذيــة .

وقد شهد بهذه الحقيقة اكثر من عالم وباحث منصف ، يقول العلامة همبولت :

« ان العرب ينبغي ان يعيــدوا المؤسسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائية بالمعنى الذي نعتاد اليوم استخدام هذا اللفظ بــه . فالتجربــة والقيــاس Measurement هما الاداتان الهائلتان اللتان شق بهما العرب طريق التقدم وارتفعوا الى مكانة تقع بين ما انجزه اليونان في فترتهم الاستقرائية القصيرة ، وما انجزته العلوم الطبيعية في العصر الحديث (الجــزء الاول من كتاب لجنة (تاريخ المادية) ، كذلك اعتمد العلماء المسلمون السبب الحقيقي للخلاف الجذري بين منطق ارسطو والفكر الاسلامي في عبارة الامام الشافعي واضع علم اصول الفقه حين قال :

ان هذا المنطق يقدم على خصائص اللغة اليونانية، ولغة اليونان مخالفة للغة العربية : لغة المسلمين » .

بل ان تطبيق المنطق اليوناني على البحــث في مجال الاسلام قد ادى الى تناقضات كثيرة .

فهو (اولا) من حيث الميتافزيقيا الارسطية يختلف عن الالهيات الاسلامية .

وهو (ثانيا) يختلف من حيث اقتصار اليونان على القياس واقتحام المسلمين دائرة التجربة .

وهو (ثالثا) يكشف عن ذلك التباين الكبير بين المجتمع العبودي اليوناني ومجتمع المساواة الاسلامي .

وفي هذا يقول ابن تيمية : ان المنطق الارسطــي يقيد الفطرة الاسلامية بقوانين صناعية متكلفة في الحد والاستدلال وخاصة في اتجاه الاســلام الى تحقيــق حاجات الانسانية المنظورة بينما يقف المنطق الارسطي عند قوانين كلية ثابتة غير قابلة للتطور او الحركة .

— ◆ —

ولا شك ان ذلك التباين بين مفهوم الفلسفــة اليونانية ذات المنهج القياسي ، وبين الفكر الاسلامــي القائم على التجربة ، قد بدا واضحا في مجالات كثيرة وما يزال واضح الدلالة في التفرقة بين الفكر الاسلامي القائم على التوحيد والفلسفة اليونانية القائــم على اساس الوثنية .

وهذا التضاد بين التوحيد والوثنية ، هو تقابل ايضا بين القياس والتجربة ، فالقيــاس هــو روح الحضارة اليونانية بينما (التجريب) هو روح الحضارة الاسلامية ، ويصل بنا هذا التضاد الى معرفة عــداء الاسلام للفلسفة الالهية اليونانيــة ، والى فشــل المحاولات التي جرت للمزج بين الفلسفة اليونانيــة ذات المنهج الارسطي وبين منطق الفكر الاسلامي ذي المنهج القرءاني .

ويؤكد هذا المعنى الدكتور سامي النشــار في مختلف ابحاثه حين يقول :

ان مفكري الاسلام الممثلين لروح الاسلام لم يقبلوا المنطق الارسطي لانه يقوم على المنهاج القياسي ، ولا يعترف بالمنهج التجريبي ، وان المسلمين هم الذيــن وضعوا المنهج التجريبي بجميع عناصره ، وان مصدر الحضارة الاوربية هو منهج العرب التجريبي ، والذي انتشر في عصر (بيكون) وتعلمه الناس في اوربا حيث لا يوجد هناك وجهة من وجهات العلم الاولى لم يكــن للثقافة الاسلامية تأثير اساسي عليها ، وان كان اهم اثر للثقافة الاسلامية في العلم الاوربي ، هو تأثيره في العام الطبيعي والروح العلمي وهما القوتان المميزتــان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره .

ويقول بريفولت في هذا :

« ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو مــا قدموه لنا من اكتشافات لنظريات مبتكرة ، ان العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا انه يديــن لهــا بوجــوده .

« بل ان طرق البحث وجمع المعرفة الوضعيــة وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة العميقــة والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني، وان ما ندعوه بالعلم ظهر في اوربا كنتيجة لروح جديد في البحث وبطرق جبرية في الاستقصــاء : طريــق التجربة والملاحظة والقياس وتطوير الرياضيــات في صورة لم يعرفها اليونان ، هذه الروح وتلك المناهــج ادخلها العرب الى العالم الاوربي » ا . هـ

ومن هنا فان القول بان مصدر هذه الحضــارة المعاصرة القائمة على المنهج التجريبي ، هم المسلمون قول وثيق ، لا يعدو الحقيقة العلمية والتاريخيــة ولا يتجاوزها ، وان ما تذيعه كتب التغريب والغزو الثقافي كاذبة مضللة .

القاهرة : انور الجندي

التوكل على الله يكون مع اتخاذ الأسباب العادية

عرض نظرية الغزالى وابن حيان ورد بعض العلماء على ذلك بحجج قرآنية وأحاديث نبوية

للأستاذ محمد الطنجي

قال النبي (ص) المومن القوي خير واحب الى الله من المومن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، فان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان « لو » تفتح عمل الشيطان .

التوكل على الله سبحانه هو نتيجة التوحيد ، وقرين الايمان بالاله الفعال لما يريد لانه اعتماد القلب على الله فيما يفعله من خير ، وما يدفعه من ضر ، كما قال الله تعالى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

وردت في الايمان بالتوكل عدة آيات قرءانية ، وحضت على التمسك به .. واوضحت معانيه احاديث نبوية ، وقد كانت للتوكل في توجيه الامة الاسلامية آثار بعيدة المدى في حياتها العلمية ، حيث مرت عليها اطوار من النهوض والقوة والصعود، الى الركود والكسل والخمود .. وما بين ذلك من احوال واهوال .. ومن بواعث هذا التقلب والاضطراب اختلاف علماء الامة في فهم اخلاق الاسلام التي من جملتها التوكل .. هل توجه المومنين المتمسكين بها الى السعي الجدي والعمل ، او تدفعهم الى الخمول ، والبطالة والكسل، والجواب ان ذلك اختلف باختلاف افهام دعاته ، فكان لكل عصر اثر من فهم المبادىء التي اعتنقت فيه ، فاذا القينا اقل نظرة في سيرة المسلمين نجد عهد النبي، وعهود الخلفاء الراشدين من بعده عهود انطلاق واندفاع لتحقيق المثل العليا لدعوة الحق التي جاء بها الرسول، ونجد الرغبة الصادقة في القيام بتبليغ رسالة النبي ، والتوحيد الذي دعا اليه لرب العالمين .

وبالطبع كان العهد عهد بناء ، وتأسيسا لدولة ، وخلافة اسلامية وطيدة الدعائم ولا يمكن بحال عند كل من له مسكة من العقل ونصيب من التفكير ، ان تؤسس، وتقام على اسس ضعيفة،او ضعف او خور،او تواكل في الارادة والعزائم .. بل الدولة تؤسس على شدة الحزم واخذ العدة ، واخذ الكتاب بقوة .. فكان الجهاد ، وكان الانتصار ، وكانت الفتوحات وعمت عدالةالاسلام الانحاءالقريبةوالبعيدة فساد الامن واستقرت الاحوال ، وازدهر العمران وظهرت العلوم وبنيت حضارة الدين الاسلامي الجديد على اسس صالحة من تعاليمه واخلاقه وآدابه .. فصبغت المجتمعات البشرية صبغة جديدة جددت قوتها ، وشحذت عزائمها وابرأتها من الانحلال والتعفن والفساد .

نعم كان كل ذلك لان المسلمين كانوا يفهمون اخلاق الاسلام على حقيقتها ويرون سيرة الرسول العامل المتفاني في العمل ليل نهار لرفعة امته ، وتبليغ رسالته ، ودعوته .. فاتخذوه قدوة في الجد والمثابرة والعمل .. فسمعوا قول الله تعالى « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » فاستجابوا لهما فكانت الحياة الزاهرة التي جعلها الله غاية لاجابة دعوته الكريمة ، وسمعوا قول الله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فأعدوها وسمعوا « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

فاتحدوا وسمعوا « جاهدوا باموالكم وانفسكم » فجاهدوا .. الى غير ذلك من الآيات التي هيات جو الدعوة الإسلامية تهييئا لتكوين الابطال ، وللقيام بجلائل الاعمال ..

ولكن لما بعد عهد المسلمين بحياة النهضة الاولى للرسول وخلفائه وتابعيهم ، ضعفت الهمم ، وظهرت مفاهيم وتعلات فى تفسير كلام الله ، وكلام رسوله ، حتى عرضت اشكالات فى هذا الموضوع لائمة ما كان يظن ان تعرض لهم مع علمهم بسيرة وحياة سيد المتوكلين الرسول الاكرم سيدنا محمد بن عبد الله عليه السلام فكان لذلك اثره فى خمول الامة ، وتقاعدها عن اخذ كل العدة والقوة ، ولا حول ولا قوة الا بالله فهذا نفس الغزالي يقول فى الاحياء « وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل والشرع فى غاية الغموض ، والعسر .. ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء الا سماسرة العلماء» ويقول فى مقامات المتوكلين « والمتوكلون » فى ملابسة هذه الاسباب على ثلاث مقامات .

الاول مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذي يدور فى البوادي من غير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر اسبوعا وما فوقه ، او تسيير حشيش له او قوت ، او تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك .. ومن اعجب ما قرات قول الحافظ بن حبان المتوفى سنة 354 هجرية العاقل يعلم ان الارزاق قد فرغ منها ، وتضمنها العلي الوفي على ان يوفرها على عباده وقت حاجتهم اليها .. والاشتغال بالسعي لما تضمن وتكفل ليس من اخلاق اهل الحزم الا مع انطواء صحة الضمير على انه وان لم يسع فى قصده اتاه رزقه من حيث لم يحتسب » انتهى ، من كتابه روضة العقلاء « وهذا صريح فى ترك تعاطي الاسباب العادية » وقوفا من الغزالي ، والحافظ بن حبان مع ظاهر بعض الفاظ وردت فى التوكل مع قطع النظر عن حياة الرسول وخلفائه العملية .. ولكن علماء الامة ردوا على الغزالي وابن حبان وغيرهما نظريتهم التي لا تتفق فى شيء مع الرغبة فى الحياة الفردية التي فطر الله عليها النفوس البشرية فاحرى الا تتفق مع رغبة عظماء الوجود الانساني الذين هم انبياء الله ، ورسله الذين بعثهم لاصلاح العقائد والقلوب وتكوين الامم والشعوب فمن اراد اعداد امة ، واصلاح شعب وانجاح مشاريع فى اى ميدان من الميادين الاعتقادية والاجتماعية او غيرهما لا بد له من اعداد العدة واتخاذ الاسباب الكافية لتحصيل المرغوب والمطلوب .. وقد رد الامام شهاب الدين القرافي نظرية الغزالي فى كتابه « الفروق » حيث ترجم ذلك بالفرق بين قاعدة التوكل ، وقاعدة ترك الاسباب، فقال اعلم انه قد التبست هاتان القاعدتان على كثير من الفقهاء والمحدثين فى علم الرقائق فقال قوم لا يصح التوكل الا مع ترك الاسباب والاعتماد على الله تعالى ، قاله الغزالي فى احياء علوم الدين وغيره ، وقال آخرون لا ملازمة بين التوكل وترك الاسباب ، ولا هو هو ، وهذا هو الصحيح ، اى ليس التوكل هو ترك الاسباب وقد ذكر القرافي ان الله رتب ملكه على عوائد ارادها، واسباب قدرها وربط بها آثار قدرته ، ولو شاء لم يربطها ، فجعل الري بالشرب ، والشبع بالاكل والاحتراق بالنار ، والحياة بالتنفس فى الهواء ، فمن طلب هذه الآثار بدون اسبابها فقد اساء الادب مع الله سبحانه وتعالى .. بل يلتمس فضله فى عوائده ثم عاب على جماعة من العباد الذين عاملوا الله باعتماد قلوبهم على قدرته .. مع اهمال الاسباب، فحصل لهم التوكل وفاتهم الادب ثم اثنى على الذين اعتمدت قلوبهم على قدرة الله ، وطلبوا فضله فى عوائده ، ملاحظين فى الاسباب مسببها ، ومسيرها ، فجمعوا بين التوكل والادب .. قال وهؤلاء النبيئون والصديقون وخاصة عباد الله تعالى ، والعارفون بمعاملته جعلنا الله منهم ، وقد سلم كلامه الناقد لاقواله العلامة ابن الشاط ، وكذلك العلامة السنوسي مختصر كتاب الفروق .. على ان الامام الغزالي لو راجع صحيح البخاري لعلم ان مقالته الغريبة فى التوكل مردودة عليه ، فقد روى البخاري عن ابن عباس قال : كان اهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون ، فاذا قدموا سالوا الناس ، فقال الله تعالى ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى .

وفى الحكم العطائية « لا بد من الاسباب وجودا، والغيبة عنها شهودا ، ويوجد ذلك الحديث المشهور حتى بين العوام « اعقلها وتوكل » فان معناه عليه مدار التوكل وان لم يصح لفظه ، على انه يوجد فى اسباب ورود الحديث لابي حمزة ان لهذا الحديث طريقين : الاولى عن انس اخرجها الترمذي وغيره ، ونقل عن يحيى بن سعيد ، انه منكر . والثاني عن ابي هريرة بلفظ « قيدها وتوكل » اخرجه ابن حبان فى صحيحه، وابن خزيمة والطبراني من حديث عمرو بن امية الضمري قال العراقي « واسناده صحيح » قال « جاء رجل الى النبي (ص) فقال يا رسول الله ارسل

ناقتي واتوكل فقال قيدها وتوكل » وهذه القضية تعلمنا كيف نفهم التوكل مقترنا بالعمل بحيث يغمر نفوسنا في حالة اخذنا بالاسباب التي اناط الله بها تحصيل المطلوب ، وفي حالة اتمام ، وعمل جميع ما في امكاننا لنيل المرغوب فمن اراد وفر غلة القمح مثلا عليه ان يتخير الارض الطيبة ، والبذر الجيد ، والحرث البالغ والسماد النافع المجرب ، وكل الوسائل التي في امكانه ، ثم يستمر توكله على الله في انجاح الوسائل ومنع الآفات عن حرثه ونباته حتى تنتج ارضه احسن غلة ، وهكذا في كل عمل بحيث يفهم التوكل مقترنا بقوله تعالى حاضا على العمل، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ، **والمومنون** وبذلك يتاتى التفاضل بين المومنين **في القوة** والضعف ووسائلها البينة الواضحة **فنتجنب العجز** ونحرص على المنافع ، طمعا في الحصول على مرتبة الخيرية المذكورة في قول الرسول : « **المومن القوي** خير واحب الى الله من المومن الضعيف **وفي كل** خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، **ولا تعجز** ، الحديث .. هذه هي طريقة **الشريعة الواضحة التي لا** التباس فيها ولا غموض ، وبها يتاتى **الرقي والنهوض** ، والله ولي التوفيق ، والسلام .

الرباط : محمد الطنجي



من إعجاز القرآن الكريم

للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

— 1 —

نريد من هذه الدراسة ان نتعرض لجدة القرءان الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الادبية ؛ فضلا عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والانسانية ، التي كانت جدتها حدثا كبيرا ضخما من أهم الاحداث العالمية ، واكبرها اثارة وجليل اثر ، وكبير خطر فى الحياة .

ولا يستطيع منصف ان ينكر ان القرءان الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد اتى بكل جديد،وبأكثر واكبر مما اتى ويأتي به اي جديد ، وان جدة القرءان الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم ، ومع كل ما وصل اليه الفكر الانساني من تطورات مذهلة ، ونتائج جديدة فى نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة ؛ وجدة القرءان الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور انساني وبشري ، وأمام كل تقدم فكري بلفته الحياة حتى اليوم ، والقرءان الحكيم كما كان جديدا على عقل انسان القرون الاولى لنزوله ، فانه بفكره المشرق المضيء ، وما اتى به فى مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على اقوم الاصول وأرسخ الدعائم ، هو جديد ابدا ، وسيظل هو الجديد دائما على مر العصور والاجيال والاحقاب .

لن نفيض فى الحديث اذن عن الجدة فى القرءان الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية ، ولكننا نريد ان نبحث هنا عن جدة الصورة الادبية فى القرءان الكريم .. ويدفعنا الى ذلك امران :

الاول : جانب المعجزة فى القرءان الكريم .

والثاني : جانب المعرفة لاهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الادبية ، فضة عما يجمع عليه كل المتحفين من اهميته وقيمته وأثره فى الناحيتين الروحية والفكرية .

ولا يستبين للباحث اهمية اي نص من نصوص الادب ، او اثر من آثاره الرفيعة الا اذا ادرك ادراكا عميقا مدى الجدة فى هذا الاثر ، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التي يضيف بها الى الفكر الانساني شيئا لم يضفه اليه السابقون.

ومن حيث كانت جدة القرءان فى جوانبه الروحية والفكرية امرا مسلما به ، فان الذي سينتهي بنا الحديث اليه هو تقرير الجدة فى الصورة الادبية للقرآن الكريم ايضا ، لان تقريرها اساسي لتقرير اي اثر وفهمه ومعرفة قيمته .

— 2 —

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة فى الصورة الادبية للقرءان ؟ ولا نطلق البحث اطلاقا ليصبح الفرض منه البحث عن مدى ما فى القرءان من الجانب الادبي عامة من جديد ؟

نعم نريد ان نبحث عن الجديد فى الصورة الادبية فى القرءان الكريم وحدها ، لان الصورة الادبية هي الاطار العام للادب ، وهي التي تحدد للادب شتى عناصره واصوله وخطواته ومختلف وظائفه ؛ وهي التي تستثير الباحث اول ما يستثيره فى النص الادبي من خصائص ومميزات على ان الصورة الادبية فى النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الادبية، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف الا نادرا جدا ، وفى اقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للادب .

والصورة الادبية لها معنيان عند نقاد الادب :

الاول : انها تعني المنهج وطريقة الاداء ؛ وتساوي بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الادبي من قصيدة وخطبة ورسالة وقصة الخ .

والثاني : ان الصوت هي الشكل في النص الادبي، وتقابل المضمون الذي هو الفكرة او المعنى ، او الغرض ايضا (مع بعض التجاوز) في النص ، فعلى هذا تكون الصوت التي هي الشكل في النص الادبي شاملة لعبارة – اي الاسلوب – وللخيال الذي يلون عاطفة الاديب ويصورها. وعندئذ نقف في النص بين الشكل والمضمون فيجب على الاديب ان يوازن بينهما موازنة دقيقة ، فلا يطغى احدهما على الآخر ، فلا يطغى المضمون على الشكل اي الصورة . والا خرج الكلام من باب الادب الى العلم ؛ ولا تطغى الصورة على المضمون ، والا كان الكلام ادبا لفظيا انشائيا لا وزن له في باب الفكر ، بل في مجال الادب ايضا ؛ وحينئذ يجب ان يهتم الاديب بالمضمون او الفكرة ، كما يهتم بالصورة او الشكل .

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الادبية في القرءان الكريم بالمعنى الاول الذي هو طريقة الاداء ، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الادبية بالمعنى الثاني الذي هو الشكل او النظم او الاسلوب .

— 3 —

كانت الصورة الادبية عند العرب الجاهليين قد انتهت الى جنسين كبيرين هما النثر والشعر ، فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والاسطورة والقصة الشعبية القصيرة ، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المالوف .

ولم يكن للنثر وفنونه واجناسه في المجتمع العربي كبير خطر ، ولا عظيم شأن ؛ وكان اكثره ارتجالا واقتضابا ، وليس فيه ثقافة واسعة ، ولا فكر مضيء، واكثره يذهب في الشتات والاختلاف وتفكك الوحدة الفنية (او العضوية) مذهبا بعيدا ، فضلا عن ان النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلي احتفالا لا يذكر ، ولم يوله عناية ما ولا احله منزلة خاصة ، وفوق ذلك كله فقد فقد النثر الجاهلي قيمته ، بفقدان اصوله قبل التدوين ، والضياع اكثره للمدة الطويلة التي عاشها هذا النثر معتمدا في بقائه على الحافظة وحدها، والحافظة يند منها النثر ويبقى طويلا فيها بعكس الشعر لانه مقيد والنثر مطلق ، والمقيد يبقى في الذاكرة اكثر مما يبقى المطلق . ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلي قد رفضه كثير من الدارسين والنقاد ؛ ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين ايضا ، رفضوا ان يسمى نثرا فنيا ، لانه في رايهم لم يكن محتويا على عناصر النثر الفني ومقوماته ، وذهبوا الى انه اشبه بالنثر الشعبي ، الذي يستعمل لغة لاحاديث الحياة اليومية العابرة .. ولكل هذه الاسباب كانت الصور الادبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات اهمية تذكر في مجال النقد وموازين الكلام والحديث عن القيمة الفنية .

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها ارفع صور الادب في مجتمع الجاهليين ، وهو المجتمع الذي نزل القرءان الكريم متحدثا اليه مفيضا في التوجه – كل التوجه – له .

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت باطوار عديدة من التهذيب الفني ، حتى انتهت الى ما انتهت اليه من قصيدة المعلقات المعروفة ذات الصبغة المتوارثة العمودية ، التي وضعت تقاليدها الفنية العريقة كل الوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التيورثناها عن الجاهليين وكانت لهذه القصيدة منزلتها ومكانتها واهميتها في المجتمع العربي ، فهي حديث الناس ، وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم ، وهي التي ينشدونها في مجالس لهوهم وجدهم، وفي مسامراتهم ، وانديتهم ، وفي اسواقهم وحروبهم وحلهم وترحالهم ، وهي على العموم آية عبقرية ، ودليل شخصيته وذاتية عظيمة والشاعر عندما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية في مجتمعه ويصبح وله كل القاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس ، وبلغ من أمر قصيدة المعلقات ان علقت على استار الكعبة .

واذا اردنا ان نعرف قيمة قصيدة المعلقات هذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير راينا انها :

1 – تخلو من كل قيمة فكرية او انسانية او روحية .

2 – وانها تخلو من كل وحدة فنية ، مما لاحظه عليها ، كثير من النقاد المعاصرين من امثال العقاد في كتابه « مراجعات » وغير العقاد ايضا ، كاحمد امين فيما كتب عن الشعر الجاهلي من مجلة الثقافة (1) .

1) جناية الشعر الجاهلي على الادب العربي – احمد امين مجلة الثقافة المصرية – عام 1939 .

3 _ وانها تمثل منهجا بدويا فى التعبير والاساوب واللفظ والخيال ، وليس هو كل شيء فى مناهج التعبير الادبي .

4 _ وانها كذلك تكثر اخطاء الشاعر اللغوية فيها كثرة مذهلة .

ولسنا نقول نحن ذلك تجنيا على القصيدة العربية القديمة ، بل لقد سبقنا على ذلك الامام ابو بكر الباقلاني فى كتابه المشهور « اعجاز القرءان » الذي درس معلقة امرىء القيس المشهورة فى صفحات عديدة من كتابه ، وأبان ما اشتملت عليه من اخطاء لغوية وفنية وغيرها .

ونحن نعرف اهمية قصيدة المعلقات معرفة وثيقة فهي التي وضعت كل الاصول الفنية للقصيدة العربية وهي التى تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلا كاملا وهي التي استنبطت منها احكام اللغة العربية وقواعدها فى بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها واحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك .

وهي كذلك التي امدتنا بالشاهد والمثل على كل شيء فى لغتنا العربية ، ومن اجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول : اذا عز عليكم فهم شيء من كتاب الله تعالى فالتمسوه من شعر العرب (1) ، فنحن لا نريد ان نغض من قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية او ننفر منها ، ولكننا نضعها فى موضعها الذي وضعه فيها الامام الباقلاني فى مقام حديثه عن اعجاز القرءان الكريم .

هذه القصيدة الشعرية اذن كانت ارفع صور الادب فى مجتمع الجاهليين ، ومع ذلك فانها لا تزن شيئا فى مقام الحديث عن الصورة الادبية من القرءان الكريم .

— 4 —

فما هي اذن الصورة الادبية فى القرءان الكريم والجديد فيها ، والطريف منها ، والشيء الذي لم يعرفه الجاهليون من اجناسها وفنونها والوانها وطرق ادائها ؟

لاول وهلة نجد انفسنا امام اشياء جديدة كل الجدة ، ففرقان وقرءان وآيات وسور اسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك .

وقرءانا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (2) .

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (3) .

الر تلك آيات الكتاب المبين انا انزلناه قرآنا عربيا ، لعلكم تعقلون (4) .

طه ، ما انزلنا عليك القرءان لتشقى (5)

سورة انزلناها وفرضناها ، وانزلنا فيها آيات مبينات ، لعلكم تذكرون (6) .

ولم ينزل القرءان الكريم على النمط المالوف من كلام العرب ، فلم يتخذ شكل القصيدة الجاهلية نمطا له . ولم يات على اساوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل ولا الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة .

ولكننا نجد فيه القصة فى ارفع اشكالها واروع ظلالها ، ونجد فيه الخيال الرفيع فى الوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة ، ونجد فيه البشارة والانذار والوعد والوعيد ، ونجد ارفع الاوصاف واجل الصور .

لم يكن القرءان شعرا ولا سجعا ولا مزاوجة ولا نثرا مرسلا ولا خطابة ، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمالوف من مناهج كلامهم ، ينصرف على وجوه مختلفة ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم واحكام ، واعذار وانذار

1) راجع ما كتبناه عن ذلك فى كتابنا (الحياة الادبية فى العصر الجاهلي) ، وكتابنا (موقف النقاد من الشعر الجاهلي) .
2) آية 106 سورة الاسراء .
3) آية 1 من سورة الفرقان .
4) آية 1 من سورة القصص .
5) آية 1 و 2 من سورة طه .
6) آية 1 من سورة النور .

ووعد ووعيد وتبشير وتخويف ، واوصاف وتعليم ، وسير مأثورة ، ويتردد بين طرفي الايجاز والاطناب ؛ كله يضيء، كما يضيء الفجر ، ويزخـــر كما يزخـــر البحر ، كالروح فى البدن ، والامن فى الوطن ، وكالغيث الشامل ، والسحاب الهاطل ، وكالضياء الباهـــر ، والبحر الزاخر ...

وان تعجب فعجب تصوير القرءان الكريم للحياة الانسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلهـــا وللنفس البشرية فى سلمها وحربها ولهوها وجدها وامالهـــا ، وكفرها وايمانها ، وللمثل العليا فى الحيـــاة المهذبـــة الكريمة ، التي يسعى اليها انسان الاسلام ، وتسيـــر لشاطئها الامين ، انسانية الحياة فى ظلال الدين ؛ لانه خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق ، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة .

وفى القرءان الكريم من سمو وصفاء الحكمـــة ، وانمام مطابقة المثل ، ما جمع به البلاغة من مختلف اقطارها . وفيه من الحجة الدافعة ، والروحانيـــة الصافية ، والحديث عن العقيدة ، والافاضة فى بيان الشرك والايمان . والشر والخير ما يوقظ الضمائر ، ويحرك العقول ، ويثير النفوس .

وفيه من اخبار الامم الماضية ، والقروق الخالية والشرائع البائدة ، والاديان السالفة ، ومن اخبـــار اهل الكتاب من اليهود والنصـــارى ، ومن الاخبـــار بالمغيبات ، ومن الافاضة فى شرح الدعـــوة ، وبيـــان التشريع ، والاستدلال على حقائق الامـــور بالآثـــار المشاهدة فى خلق السموات والارض ، وبقيـــاس الغائب على الشاهد ، وبضرب الامثال ، وبالبراهيـــن العقلية المجردة ، وفيه من حســن التقسيم ، وجمال المقابلة ، وروعة الطباق ، وبديع الجناس ، ورفيـــع الفواصل ، ما يهز القلوب ويملك على عقل الانسان كل منافذه وابوابه .

ومع ذلك كله فهو ليس كتاب قصص ، وليس كتاب متعة وتسلية ، وليس شعر ادب او حكمـــة او تاريخ او اجتماع ؛ وانما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات ، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، فهو كتاب الانسانية كلها ، وصحيفـــة البشرية قاطبة .

وما اروع القرءان فى فواتحه ومقاصده وخواتيمه، وفى مبادىء آياته وفواصلها ، وفى حديثه عن المعاني الدقيقة ، والافكار العميقة ، والاغراض النبيلة ، وفيما اشتمل عليه من دقة التصوير ، وجمال الوصف ، مع سمو التعبير وعظمة التاثير ، وروعة الايجاز ، وسحر المجاز وبلاغة التكرار ، وفصاحة التعريض بصور نعيم المؤمنين ، وسعادة المتقين ، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة ، وبالسعادة والفرحة ، وبالسرور والحبور، وبقرة العين ، وانثلاج الصدر ، وبالعجب والطرب . ثم يصور هلاك العاصين ، وشقاء الجاحدين وعـذاب الكافرين ، فيتركك حليف الهم والحزن ، والتذكـــر والاعتبار ، والتفكر والتدبر ، والالم والدفع والبكـاء والعبرة المتسكبة ، والآهة المرددة .

والسورة القرءانية ، قصيرة او طويلة تجـــيء ممثلة لفكرة ، ومصورة لغرض ، ومؤدية لمعنـــى ، وتسير فى جوها العبق ، وافقها الساحر ، وجوانبها المشرقة ، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة ، وتجدك تمشي مع الغرض القرءاني ، غاية فغاية ، فى وحدة واتساق ، وفى نظام عجيب ، وترتيب غريب ، وفى منطق متسق ، وحجج متدافعة متدفقة ؛ وتجـد الآيات تتحرك فى معرض الاستدلال كانها موكبمن نور، ومهرجان مصور لادق خفايا الشعور ، وحنايا الصدور، وتجد فى هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التـــي تمثلها السورة الاخرى ، وغرضا واضحا غير الغرض الذي ترمي اليه السورة السابقة او اللاحقة .

وتجد افتتاحات السورة العجيبة ، مثل ص ، ن ، ق ، طه ، طسم ، طس ، حم ، الر ، الم ، الى غير ذلك .

وتجد الآيات تتوالى فى السورة ، وكانها البحـــر الهادر ، والموج العاصف ، وتجد الفواصل فى السورة موقعة الخطا ، منغمة الحروف ، وتجد القصة والعبرة والموعظة والحكمة فى قالب من السحر ولا كسحـــر هاروت وماروت ؛ وفى طابع من الحسن والجمال ، ولا كحسن يوسف واخوته .

وتجد لكل سورة اسما عجيبا ، البقرة ، والرعـــد ، والطور ، والمائدة ، والكهف ، ويونس ، ويوسف ، وابراهيم ، ومحمد ، والنور والمؤمنين والمنافقيـــن ، والضحى ، والشمس ، والقتال ، والفتح ، والحشر، والصف ، والنساء ، والطلاق ، والتحريم ، والاحزاب والمائدة ، والانفال ، والتوبة ، وآل عمران ، والجمعة،

والعصر ، الى غير ذلك ؛ وتجد لكل اسم من اسماء السور قصة ، ولكل قصة حدثا وعبرة .

وكل ذلك نمط مخالف لانماط البيان عند الجاهليين ، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين تنزلت عليهم هذه المعجزة الالهية الحكيمة .. انها صورة ادبية جديدة لا تجد لها مثلا ولا شبيها بها، ولا تجدها نفسها ، الا فى القرءان الكريم .

سبحانك ربي، أنزلت القرآن، و فصلت الفرقان، واحكمت البرهان ، وانت رب العالمين ، ومنزل الكتاب المبين ، ورأى العرب الكتاب شيئا عجبا ، ومنطقا جديدا ، ومنطلقا قسيما من الحكمة الالهية الجليلة ، فقال عتبة ابن ربيعة حين ذهب فاستمع الى محمد يتلو آيات الكتاب « لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر » انما هو الوحي ، الوحى المنزل على محمد بن عبد الله ، الوحي الذي نفس بعض العرب على محمد ان ينزل عليه ، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة الى الاحنف بن قيس يقول له : ما تقول فيما سمعت من محمد ، فقال الاحنف . ماذا اقول : قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، وقالوا: فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم عادوا يقولون : فينا نبي ينزل عليه الوحي ، والله لا آمنت به ابدا .

انه الوحي المنزل من السماء ، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء ؛ وكفاه ذلك فخرا على فخر ، وسناء على سناء .

(يتبع)

محمد عبد المنعم خفاجي

اصلاح سهو ...

وقع فى مقال الاستاذ الكبير سيدي عبد الله كنون شافاه الله وامد فى عمره المعنون بـ : الدين والشباب .. فى العدد السابع ، وفى الصفحة السابعة نسبة كتاب «اجتماع الجيوش الاسلامية ، على غزو المعطلة والجهمية » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، والصواب كما هو معلوم ، انه لابن القيم الجوزية .

فالرجاء من قرائنا الكرام المعذرة والقبول .

المسلمون فى الصين

فى الماضى والحاضر

للأستاذ محمد جميل بيهم

كان عدد مجلة دعوة الحق المحترمة : « الاسلام والمسلمون فى القرن العشرين » ممتازا فى كل معنى هذه الكلمة : بمواضيعه ، وبتنسيقه ، وبالرسوم التي ازدان بها .. بل كان كتابا جليل الفائدة تناول الكلام عن المسلمين فى كثير من الاقطار الاسيوية والافريقية والاوروبية . ولكنه اغفل الصين بينما هو تحدث عن البلاد المحيطة بها . ولما كانت الصين الشعبية هي اوفر بلاد العالم سكانا ، فضلا عن انها احتلت المنزلة العالمية الثالثة فى نطاق الطاقة النووية ، وكان للمسلمين فيها شأن فى العهدين القديم والحديث ، ولما كنت قد زرتها من قبل ، ومررت بها قبل شهر فى غضون عودتي من زيارة معرض اوزاكا الدولي باليابان رايت من المفيد ان احاول استكمال هذا الموضوع وذلك بالاستناد الى معلوماتي عنها ، ولا سيما ما كان منها من قبيل المشاهدة والدراسة عن كثب .

— ◆ —

فى اواسط عام 1957 دعتني مؤسسة العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفييتي والبلاد الاجنبية بموسكو الى زيارة بلادها ، وقد قضيت شهرا كاملا فيها انتقل فى ارجائها الاوروبية والاسيوية . وهناك جاءتني دعوة اخرى من بكين لزيارتها مدة شهر ثان لمناسبة الاحتفالات فى اول اكتوبر من ذاك العام بذكرى الثورة الشعبية الحمراء . وكنت اثناء وجودي فى هاتين الجمهوريتين اتفقد احوال المسلمين فيهما والعرب واقابل بين ماضيهم وحاضرهم ، وادون كل شاردة وواردة عنهم . واني اذ اورد فى هذا المقال فرصة معلوماتي ومشاهداتي فى هذا الموضوع رايت ان اجمل الكلام عنها على ثلاثة اقسام : (1) العرب والصين فى التاريخ ، (2) المسلمون بالصين فى التاريخ ، (3) المسلمون بالصين الشعبية .

العرب والصين فى التاريخ

كانت جزيرة العرب منذ اقدم العصور جسرا بين الشرق والغرب ، وبالتالي نقطة الاتصال بين العالم من الشمال الى الجنوب . فكان واقعها هذا حافزا لاهلها لان يستعينوا بالقوافل لنقل التجارة برا ، وبالمراكب الشراعية الكبرى لنقلها بالبحر . وكانت قوافل قريش الموسمية تشبه فى عظمتها وترتيبها مواكب الفاطميين والعثمانيين ما بين مصر والشام وبين المدينة ومكة التي تسمى محافل الحج فى العصور الاخيرة ، كما كانت سفن اهل اليمن التي تمخر فى المحيط الهندي والبحر الاحمر تشبه الاساطيل البحرية فى العصر الحاضر فى ضخامتها وزينتها .

ويرجح الن فريزر بكتابه « قصة المحيط الهندي ان فن الملاحة مصدره العرب ، وانه ابتدا بصياديهم على شطاي جزيرة العرب . فهو يقول : « ان الصيادين العرب على شواطىء هذا المحيط هم الذين

انشاوا فن الملاحة . ذلك بانهم كانوا على معرفة تامة بطبيعة الفصول ، وكان بعضهم قد عرفوا شيئا عن انتظام سير النجوم » .

هذا ويعتبر عصر اليمن السعيدة ، في ايام سبأ وهي ، العصر الذهبي لجزيرة العرب بالنسبة للعهد القديم . فاليمن وقتئذ فضلا عن زراعتها المزدهرة كانت قاعدة التجارة بين القارات الثلاث آسيا وافريقيا واوروبا ، على ان مكانتها هذه وان انحطت في عهد حمير انها بقوة الاستمرار وبحكم الموقع ظلت مجازا للتجارة بين هذه الاقطار .

وفي ذلك الحين تبوات الامبراطورية البيزنطية مركز الصدارة في المدنية والحضارة ، وكان البحر المتوسط بمثابة بحيرة لها ، كما كان لها في البحر الاحمر اسطول تجاري يرتاد المحيط الهندي اسوة بالسفن العربية ، ولذلك فان كلا من اليمن وهذه الامبراطورية كان في ذلك العصر يحيط باخبار الهند والصين وما حولها من البلاد الراقية ولا سيما بواسطة تجارها ، وكانت هذه الانباء سرعان ما تنتشر في جزيرة العرب ولا سيما في مكة التي كانت بمثابة القاعدة الكبرى للعرب في النواحي الدينية والتجارية والادبية. فاليها يحجون، وفيما حولها يعقدون اسواقهم التجارية والادبية ، ناهيكم باختلاط العرب فيها بالاجانب الذين كانوا يفدون من كل صوب الى هذه الاسواق للبيع والشراء .

المسلمون والصين في التاريخ

في عهد اسرة تنغ الصينية (618 — 907) برز اسم احد اباطرتها ته — تونغ واشتهر بما رفع في شأنها ، وما وفر لها من العمران والثقافة . وكان هذا العاهل معاصرا لرسولنا الاعظم . وربما كانت اخبار الصين في عهد هذا الامبراطورهي التي شجعت المبشرين النسطوريين في الشرق الادنى للذهاب اليها . فكان وجودهم فيها مما سهل الاسباب للمزيد من التحدث عن الصين في الشرقين الادنى والاوسط . وآية ذلك اشارة نبينا الى الصين حينما دعا قومه الى طلب العلم ، وقوله : « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

هذا وقد اختلف المؤرخون في صدد بداية اتصال الاسلام بالصين ، وقيل ان ذلك يرجع الى عهد صاحب الرسالة اذ سافر اليها الصحابي وهاب بن رعشة للدعوة الى الاسلام ، واقام فيها وتعلم لغتها . روى هذا صاحب كتاب معجم العمران ص 283 ، وزاد عليه ان رعشة قابل الامبرطور ، ولقي منه كل رعاية ، وانه نجح في نشر الاسلام ، فاسلم على يديه خلق كثير ، ثم ما زال مبجلا عندهم الى ان توفي بعد عمر طويل . وكان يساورني الشك في صحة هذا الخبر لما كان بين الصين والحجاز وقتئذ من ابعاد ، ولكنني استوثقت منه عندما قراته في كتاب انكليزي لاليزابت سيجر قالت فيه : « ان رجلا من الصحابة جاء الى العاصمة شانغ — آن ، وحظي بمقابلة الامبرطور الودية ، وقد ابدى ارتياحه للنظام الراقي الذي يمارسه الصينيون ، كما اعجب بسائر شؤون الصين ولا سيما من حيث استتباب العدالة في ارجائها . »

وقد وقفت وقفة اعجاب عند هذا الخبر لم اشعر بها حينما قرات ان النسطوريين المبشرين ادركوا الصين في نطاق الدعوة الى دينهم ذلك لان هؤلاء هم اصحاب مؤسسة قديمة لديها كل الاسباب التي تسهل مهمتها بينما ان المسلمين في عهدهم الاول لم يكن عندهم الا الايمان . وبهذا الايمان لم يلبثوا الا قليلا حتى ادركوا الصين فاتحين . ففي سنة 88 هـ = 706 م حمل قتيبة ابن مسلم قائد الامويين على اهالي الهند وفرغانة الاتراك في الرعايا الصينيين وذلك في القطر الذي يسمى الآن اوزبكستان، ثم تقدم عبد الله بن عمر اليشكري الى اطراف الصين في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ورافق هذا الامتداد العسكري امتداد آخر للاسلام في الشرق الاقصى من قبل التجار المسلمين .

ولما استتب الامر للعباسيين الذين انصرفوا عن الفتوحات الى البناء والانشاء توثقت العلاقات الودية بينهم وبين اباطرة الصين،وبلغ من متانتها ان الامبرطور هسوي — تسونغ ارسل سنة 138 هـ = 755 م ، يستنجد بالخليفة المنصور على الخارجين عليه، فانجده بخمسة آلاف مقاتل شجاع تمكنوا من ترجيح كفته . ثم سكنوا في رحابه مكرمين ، وتزوجوا من الصينيات، وكانوا هناك بمثابة رسل للاسلام ، هذا فضلا عن انهم شجعوا اخوانهم من تجار المسلمين على الانتشار في انحاء الصين ، ولا سيما في العاصمة شانغ — آن حتى كانوا يعدون فيها بالآلاف .

وفي ذلك الحين انشأ الخليفة ابو جعفر المنصور اسطولا تجاريا في الخليج العربي — الفارسي قذف به الى الهند . ولكن السفن العربية لم تقف من بعد عند هذا الحد ، بل تجاوزته الى ثغور مالابو ، والى مرافىء الصين . وكان من عواقب كل ذلك ليس انتشار الاسلام في تلك الاقطار فحسب ، وانما تمركزهم هناك

تمركزا قويا لا يشبهه الا تمركز الاوروبيين في عهد الاستعمار . وقد اقاموا لهم المستعمرات في كانتون ونتكي وهانغشو وسواها في الصين ، وبنوا المساجد الكثيرة ، ولا يزال ثلاثة منها قائمة حتى الآن (1) مسجد كوانتا في كانتون ، ومسجد فونغهوان في هانشو ، (1) ومسجد شؤون ـ شو . ويذكر التاريخ امثلة اخرى على العلاقات الودية بين العباسيين وبين اباطرة الصين . منها ارسال هارون الرشيد وفودا الى الملك سوتسنغ بغية توثيق العلاقات كانت تلقى منه الرعاية والاكرام ، ومنها ايفاد الواثق بمحله اثنين من الهنديين الى بكين لمشاهدة السد الكبير . وقد قاسا بابه وقفله .

والجدير بالذكر هنا ان بعض المسلمين عرفوا بالصينيين لكثرة ترددهم وقتئذ على الصين . ومنهم ابراهيم بن اسحاق ، وهو كوفي عرف بالصيني،ومنهم الفقيه المثري ابو الحسن سعد الخير الانصاري ، وهو من الاندلس توفي سنة 541 هـ . ومنهم كذلك الفقيه المحدث حميد بن احمد الشيباني المعروف بحميد الصيني .

والجدير بالذكر ايضا اني لما انتهيت من زيارة « المعبد الالاهي » في شنغاي ، وخرجت الى الحدائق والسرادق والقصور المحيطة به لفت نظري لوحة رخامية قديمة في حديقة ، وهي مشبكة الاجزاء والخطوط على نحو ما يعرف بالارابك عند الافرنج مشبة للعرب ، وعليها نقوش عربية ، وقد تساءلت امام هذه اللوحة اهي من صنع ايد عربية ، ام ان هذا النقش هو في الاصل صيني اقتبسه قومنا من الصين؟.

علو شان المسلمين في الصين خلال عهد المغول

لما استولى المغول على عرش بكين سنة 1279 م ازدادت في المسلمين رفعة ، ذلك بان الامبرطور الفاتح كوبيلاي خان بن جنكيز قرب اليه مسلمي الصين ، واتخذ له مستشارا منهم كان يسمى احمد البناكتي ، رفعه فيما بعد الى رتبة رئيس الوزراء .

وقد شجع وجود احمد المشار اليه في هذا المنصب المسلمين الى الاقبال على الصين . والتف بنفسهم حوله فاذا بهم بعد قليل يتقلدون اعلى المناصب العسكرية والادارية . وقد نوه بذلك الرحالة مركوبولو حين زار الصين في عهد كوبيلاي خان المشار اليه ، كما اشار الى ذلك ايضا ابن بطوطة لمناسبة زيارته الصين موفدا من جل طغلق احد ملوك الهند ، وروى ان المسلمين كان لهم استقلال اداري في بعض المقاطعات الصينية .

وهذه المنزلة الرفيعة التي نعم بها المسلمون في الصين عهد الامبرطورية المغولية كانت حافزة الى كثيرين منهم للتقدم اليها ، ولا سيما من تركستان ، كما كانت حافزة لعدد من محبي الاستطلاع الى زيارتها، بالاضافة الى رجال الاعمال .

وبمناسبة الهدية الثمينة التي اتحفني بها الرئيس ماوتسيتنغ (2) عندما كنت في بكين روى لي الاستاذ محمد مكين ، مدير القسم الشرقي لجامعة بكين ، ان بعض الكتب الصينية تذكر زيارات كثيرة للصين كان يقوم بها علماء من المسلمين وغيرهم حاملين معهم الى الملوك هدايا من بلادهم ، فيقابلها هؤلاء بعطايا وهدايا صينية اغلى ثمنا .

زد على ذلك ان امراء البلدان الاسلامية المتاخمة والمجاورة كانت على علاقات طيبة مع ملوك الصين اسوة بدار الخلافة . تدل على ذلك رحلة ابي دلف مسعر بن مهلهل الى الصين في مهمة لصاحب خراسان. هذه الرحلة التي رواها صاحب كتاب معجم البلدان نقلا عن كتاب وصفه بأنه عتيق . وظل الحال على هذا المنوال : المسلمون بالصين ينعمون بالخيرات وبالمناصب ، والبلدان الاسلامية تتبادل مع الصين العلاقات الطيبة حتى اذا نقلت اوروبا حروبها الطيبية الى المحيط الهندي وما حوله ، وانتزعت زمام الملاحة هناك من المسلمين ، تبدل الوضع ، فهوى نجم مسلمي الصين ، وتردت احوالهم تباعا ، ولا سيما بعد ان لعبت اصابع المستعمرين بين المسلمين وبين

1) لما استولى القائد البرتغالي البوكرك سنة 1508 على مسقط كان هذا بمثابة القضاء المبرم على النفوذ العربي في المحيط الهندي وما بعده اذ انكمشت البحارة العربية الى ما حول جزيرة العرب تاركة للدول الاوروبية استغلال ، ثم استعمار البلدان المحيطة به .

2) كانت هدية الرئيس الصيني لي دزينة من الرسوم الزيتية الصينية وغطاء مائدة من الحرير الاحمر المزركش بالابريز الاصفر مع رسمه الكريم مذيلا بتوقيعه واسمي .

مواطنيهم البوذيين ، والقت بينهما العداوة والبغضاء .
« وفى كل واد اثر لثعلبه » .

تردي العلاقات بين الصين ورعاياها المسلمين

فى الاسلام نزعة قوية الى الاستقلال مصدرها الانفة ، وهي تبدو فى جماعاته ، كما تبدو فى أفراده . وقد لمس المراجون المعاصرون هذه النزعة فى افريقيا عهد الاستعمار ، فحيثما وجد الاسلام هناك وجدت الى جانبه المقاومة للاستعمار فى بدايته ، ثم الانتفاضات والثورات عليه فى نهايته ذلك طلبا للاستقلال .

ولما تسرب الضعف الى الصين فى القرون الاخيرة كان المسلمون فيها أول من فكر فى الاستقلال عنها . وما ان وقعت حركة يونان فى جنوبي الصين ، فى اواخر القرن التاسع عشر بين المسلمين والبوذيين هناك حتى ظهرت اماني المسلمين المكبوتة فاعلنوا الاستقلال . وكان سبب هذه المعركة اختلاف الفريقين على استغلال منجم الفضة فى تالي ـ فو . ففى بداية الامر تزعم هذه الحركة احد علماء الدين الكبار ، ولكن زمامهم لم يلبث ان افلت من يده فتزعم الثورة الثائر تودين ـ سياو الذي اتخذ عاصمة لدولته مدينة تالي ـ فو المذكورة ، ولقب نفسه الملك سليمان 1385 هـ = 1857 م .

وقد قدر لهذا القائد النجاح فى بداية الامر بما توفر له من تأييد مسلمي الصين حتى بلغت مساحة فتوحاته فى السنة الثانية 65 الف ميل آهلة بالسكان وكانت حكومة بكين قد ارتضت بالاعتراف به سنة 1865 على شرط ان يلزم هذا الحد من الفتوحات ولا يتجاوزه ، ولكن تودين ـ سياو استبد به الغرور فلم يرضى بهذا العرض ، وراح يستمد العون من الخارج : ففي سنة 1872 ارسل ابنه حسنا الى لندن حيث قابل غلادستون ، ثم الى ستانبول حيث قابله السلطان عبد العزيز ، ولكنه لم يتوفق بمهمته لان انكلترا استغلت الموقف فرفضت معاونة والده ، وراحت تبيض وجهها مع بكين بينما ان السلطان العثماني لم تكن حالة دولته المالية والسياسية تسمح له بأن يفي بما وعد حسنا .

ولما عاد حسن الى بلاده وجد الارض غير الارض ، وجد ان المملكة الصينية قد تمكنت بالقوة من الاستيلاء على ملك ابيه ، وان هذا قد انتحر بالسم عندما عجز عن الدفاع عن مكاسبه .

وكان من الطبيعي ان يكون لنجاح الملك سليمان هذا خلال 15 سنة صدى استحسان كبير عند مسلمي الصين ، وان يشجع غيره على الثورة ، وقد حدث ذلك فى مقاطعة شنيي الواقعة فى الشمال الغربي من الصين . وكانت ثورة ناجحة ادرك فيها المسلمون استقلالهم بحد السيف سنة 1862 ، ولكنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى اضاعوه بما نشب بين زعمائهم من تنازع على المناصب !

على ان هاتين الثورتين الفاشلتين كان لهما فيما بعد عواقب سيئة على مسلمي الصين ، ففضلا عن انهما القت العداء بينهم وبين مواطنيهم فانهما جعلتا الدولة فى حذرها منهم ، تمعن فى اضطهادهم ، وفى حرمانهم من المناصب والمكاسب حتى اضطر كثيرون منهم الى الجلاء الى بلاد اخرى . وهذا ما يفسر لغزا واجهته حين زيارتي الصين . فقد كنت احسب ، اعتمادا على ما قرأته فى الكتب ، ان عدد المسلمين هناك يناهز الاربعين مليون نسمة ، ولكن الشيخ عبد الله ماسوتيا امام مسجد تونغ ـ بي ـ بايلو فى بكين قال لي ، عند زيارتي للمسجد ، ان عددهم الآن قد لا يتجاوز العشرة ملايين فقط ، نصفها فى مقاطعة سينكيانغ ، واكثرها فى قاعدة هذه المقاطعة تيهوان . ومع هذا القول فان علامة الاستفهام لا تزال ماثلة امام نظري ...

المسلمون فى الصين الشعبية

ليس المسلمون فى الصين من قومية واحدة ، وانما هم خليط من قوميات كثيرة اظهرها عشر . واكثرها هي قومية خوي التي يبلغ عددها ثلاثة ملايين ونصف المليون . واما القومية العربية فلا ذكر لها هناك لاندماجها بسائر المسلمين . وان معظم القوميات الاسلامية تقيم فى مقاطعات الصين الشمالية الغربية بجوار تركستان .

ولما قامت دولة الصين الشعبية فى بكين سنة 1949 ، ووضعت مشروع السنوات الخمس الاول التزمت المساواة بين القوميات الصينية ، ثم انها لما طبقت هذا المشروع تجافت الضغط على الحريات الدينية ، وراعت تقاليد المسلمين الدينية ، واصدرت بعض المراسيم التي تؤكد هذه المراعاة ، واعترفت باستقلال المسلمين استقلالا ذاتيا فى بعض المقاطعات ، فذلك فى سيهايكو ، وهاوتنغ ، فى ولاية كانسو ، وفى كل من ايلي وفيزلسو فى ولاية سينكيانغ وغيرهما .

وقد قيل لي سنة 1957 في بكين ان هـذه الولايـة ستصبح بمقتضى الدستور ذات استقلال مركزي اتم في السنين المقبلة .

وقد ساهم المسلمون في النهضـة الصينيـة الحديثة ، ولا سيما في الناحية الاقتصادية ، وفي هذه الولاية خاصة التي زادت منتوجاتها 36 ضعفا عما كانت عليه سنة 1949 ، والتي اصبحت مركزا للصناعات الكبرى في الصين . وكذلك فان مسلمي الصين قـد ساهموا في النهضة العلمية » وعلى قول امام مسجد تونغ — سي — بايلو في العاصمة » بلغت نسبة المتعلمين منهم 98 في المائة فيما كانت في السابـق لا تتجاوز الثلاثين . هذا فضلا عن ان اقبال البنات على المدارس يفوق اقبال الذكور » .

المؤسسات الاسلامية في الصين الشعبيـة

في سنة 1953 الف المسلمون الصينيون الجمعية الاسلامية في عاصمة الجمهورية وذلك للاشـراف على الاوقاف ، وعلى سائر الشؤون الملية . وانتخبـوا لرياسة هذه الجمعية السيد برهان شهيدي ، وهـو نائب رئيس اللجنة الوطنية للمجلس الاستشاري في بكين . وتولى نيابة الرياسة الشيـخ نور محمد من كبار علماء المسلمين .

وكنت اجتمعت بالسيد شهيدي قبل عامين في مادبة اقيمت تكريما له في بيروت لمناسبة مروره فيها ذاهبا الى الحج ، لذلك كان علي ان ازوره ابان وجودي في بكين ، فقصدت مكتب الجمعية المذكورة الذي يقع عند مدخل جامع تونغ — سي — بايلو . بيد اني لـم احظ بالقائه لانه كان غائبا ، وانما استقبلني في فنـاء المسجد اماماه الشيخان عبد الله ماشوتيا وعلي خان يان بوجاي . وفي غضون ما كنا نتناول الشاي في قاعة الاستقبال تناولنا الحديث عن المسلمين في الصين — وهاكم ما تلخص عندي عن حالتهم الاجتماعية .

1 — المساجـد

عدد المسلمين في بكين يناهز الثمانين الفـا . وعدد مساجدهم فيها ثمانون ، فيها 18 مخصصـة للنساء ، في حين ان بقية المساجد مفتوحة الابواب لهن، واذا اتين للصلاة فيها يجلسن في الصفوف الخلفية .

لمسلمي الصين شغف في تعمير المساجد حتـى ولو كانوا في قرية ، لذلك فان عدد مساجدهم في الصين يبلغ نحو اربعين الف مسجد .

ياتي الى الصلاة في الايام العادية في الاسبوع نفر قليل ، ولكنهم في يوم الجمعة يقبلون على المساجـد اقبالا كثيرا . واما في الاعياد فان المساجد وافنيتهـا تمتلىء حتى تكاد لا تتسع للمصلين .

جامع عيد كان في مدينة كاشغـر بمقاطعـة سيكيانغ الصناعية يتسع لعشرة الاف من المصلين .

2 — المـدارس

لا يزال مسلمو الصين يعتمدون على الكتاتيـب الملحقة بالمساجد ، وهي كثيرة جدا حتى ان عددها في بكين وحدها يبلغ 60 كتيبا .

ازداد اقبال تلامذة المسلمين على مدارس الحكومة الابتدائية والثانوية وغيرها في العهد الحاضر حتـى اصبح ضعف ما كان عليه من قبل .

لما تالفت الجمعية الاسلامية الصينية المذكورة في مطلع الخمسينيات لم تكتف بمدارس الحكومة ، وانما نشطت الى اقامة مؤسسـات اسلاميـة ، وعلى راسها المعهد الصيني للعلوم الاسلامية ، وكلية قومية خوي الاسلامية .

3 — المعهد الصيني للعلوم الاسلامية

رزت هذا المعهد بعد ذلك فاستقبلني مديرهـا الاستاذ جمال الدين لن — شو وكان يرافقه الاستاذ محمود ماووجي مدير كلية قومية خـوي . وكـان الترجمان بيننا الاستاذ نمر الدين الذي يتكلم اللغـة العربية الفصحى كابنائها .

وخلاصة ما علمته منهم عن هذا المعهد انـه انشىء سنة 1955 ، واتخذ له مقرا موقتـا في دار كلية قومية خوي الاسلامية . كان عدد طلابه وقتئذ 130 تلميذا كلهم من الذكور . وهم من جميع المقاطعات الصينية . انما يشترط ان تكون اعمارهم ما بين 18 و 20 سنـة .

يتالف هذا المعهد من ثلاثة اقسام : قسم العلوم الدينية الاسلامية ، وعلى راسها القرءان الكريـم ، وقسم اللغات حيث تدرس اللغتان الصينية والعربية، وقسم الثقافة العامة .

ولما استوفينا الحديث طفت في صفوف المعهد مع مديره وبعض اساتذته . وعندما انتهينا ، واردت القاء كلمة احيي فيها القائمين على هـذا المعهـد وتلاميذه رجوت الاستاذ نمر الدين بان يترجم كلمتي

الطلبة . فقال بلسان الواثق « لا حاجة لترجمان لانهم كلهم يفهمون جيدا ما تقول . » وقد ارتحت لذلك خصوصا عندما نهض شاب منهم من اهالي كاشغر ورد على خطابي بأحسن منه بلسان عربي فصيح .

4 — كلية قومية . خوي الاسلامية

قومية خوي فى الصين هي القومية الاسلامية الساحقة ، وكليتها هذه هي اكبر المؤسسات الاسلامية هناك . انها تقسم الى قسمين ابتدائي وثانوي ، وفيها 1 800 تلميذ ، 40 فى المائة منهم من الاناث ، و 20 فى المائة من اساتذتها هم كذلك من الاوانس والسيدات . وتعنى هذه الكلية باللغة العربية عنايتها بالعلوم الاسلامية ، واثنان من اساتذتها من خريجي الازهر هما ترجماننا الاستاذ نصر الدين،ورفيقه الاستاذ نعمة الله ابراهيم . وقد عهد اليهما بتعليم قواعد اللغة العربية وادابها .

هذا ما علمته اثناء انتقالي لزيارة هذه الكلية من معهد العلوم الدينية . ولكن الذي استرعى اعجابي فيها مختبراتها الراقية ، ولا سيما مختبر علم الكيمياء ، ومعرض الحيوانات المصبرة المعد كمخبر لتلامذة علم الجيولوجيا والطبيعيات .

وهناك مكتبة لا بأس بها ، ولكنها مع الاسف خالية من الكتب العربية . ولما لم اجد فيها مصحفا اردت ان اسد هذا الفراغ فأهديته نسخة من القرءان الكريم غلافه مزدان بالصدف من صنع بيت المقدس

اللغة العربية فى جامعة بكين

نشطت حكومة الصين منذ قيامها سنة 1949 الى انشاء المعاهد والمدارس فى امهات المدن خاصة ، ولا سيما فى العاصمة ، واوفدت البعثات العلمية الى الجامعات الكبرى الاجنبية ، وخصوصا الى الاتحاد السوفياتي . بيد ان عنايتها هذه كانت تنصرف الى تخريج الاخصائيين فى العلوم العملية كالتمدين والبترول والميكانيك والصناعات ، بغية الافادة من هؤلاء فى تحقيق مشروع السنوات الخمس الاول وما يليه . على ان الحكومة ركزت اهتماما خاصا على تنمية جامعة بكين حتى اصبحت من الجامعات الكبرى فى العالم . وان الحديث عنها يحتاج الى مقال خاص . ويكفي القول اني لما زرتها وجدتها مدينة صاعدة دورها الكثيرة التي تضم 7755 طالبا ، 22 فى المائة منهم من الاناث لم تعد تفي بالحاجة ، ولذلك اصبحت (ورشة) عمارات جديدة . وكم كان سروري عظيما عندما زرت القسم العربي فيها ؟

هذا هو الاستاذ محمد مكتي مدير القسم المذكور ، وهو صيني من خريجي الازهر يستقبلني يحف به تلاميذه من الذكور والاناث ، وكلهم يبتسمون، وهاهم يلتفون حولي بعطف وسرور التفاف الاهل بالاهل ، وهم يتنادون بأسماء عربية ! ماذا اسمع ؟ اكلهم مسلمون استساغوا هذه الاسماء بسائق العطف الديني ؟ — كلا بل ان الكلية حببت الى غير المسلمين الاسماء العربية التي تتفق بالمعنى مع اسمائهم الصينية فاختاروها على رضى منهم .

ولما استوى بنا المقام فى قاعة الاستقبال شرع الاستاذ المدير يزودنا بالمعلومات فى كليته : انها تضم 300 طالب وطالبة يتعلم كل منهم لغة من لغات شرقية محددة ، ولكن طلاب اللغة العربية هم اوفر عددا من سواهم . هذا وبعد الطواف فى الكلية خرجنا الى الحديقة الجميلة ، وكان اجمل ما فيها طلاب القسم العربي من الفتيات والولدان الذين رافقونا اليها، واخذوا ينشدون الاناشيد العربية ، ومنها « بلادي بلادي ، فداك دمي » وهم سكارى من الفرح ، فشعرت وانا فى بكين كان بلادي امتدت حتى غمرت الصين ، وشعرت باني اصبحت فى سنهم وعمرهم ، فرحت انشد معهم، واشاركهم فى فرحهم وهزيجهم وحتى فى نطهم وقفزهم سائرا مع التيار الجارف .

هذا وبعد مدة من عودتي الى بلادي قرات فى الصحف نبا الاحتفال فى بكين بافتتاح المبنى الجديد للمعهد الصيني للعلوم الاسلامية ، وانه قد بني على نطاق واسع على النمط المعماري الاسلامي وذلك خلال مشروع السنوات الخمس الثاني . وفى هذا المبنى خمس قباب ، وقاعة مخصصة لعرض الآثار الاسلامية. كما علمت بان الحكومة ازدادت اهتماما باللغة العربية كما ازداد الاقبال عليها ، مما حمل المسؤولين على استدعاء عالم من خيرة علماء بغداد الاستعانة به على تحقيق هذه الغاية ، وهو الشيخ جلال الحنفي الذي لا يزال يقيم فى بكين منذ بضع سنين . هذا بالاضافة الى ان مسلمي الصين لا يزالون يمشون فى طليعة الركب ، ولا سيما فى الناحية الصناعية ، بقلوب لا تزال تخفق للعالم الاسلامي ، وبعيون لا تزال شاخصة الى فلسطين .

بيروت : **محمد جميل بيهم**

بطولات إسلامية

السلطان نور الدين بن زنكي السلجوقي

الدكتور عبده إسماعيل الطهطاوي

\- 3 -

زهده وتقواه وعلمه :

قال : وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام احد عدول دمشق واعيانها ، وكان صديقا وصاحبا ، قال : لما ملك الاشرف بن العادل دمشق ، وعمر مسجد ابى الدرداء فى القلعة ، وافرده عن الدور ، دخلت عليه يوما وهو فيه ، فقال لي : يا نجم الدين ، كيف ترى هذا المسجد قد عمرته ، وافردته عن الدور، وما صلى فيه احد منذ زمن ابى الدرداء الى الآن ؟ قال: فقلت له : الله الله يا مولانا ، ما زال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيهالصلوات الخمس . فقال : من اين لك هذا ؟ قلت : حدثني والدي انه لما نزلت الفرنج على دمياط (مدينة على ساحل البحر المتوسط بمصر) ـ بعد وفاة أسد الدين ـ وضايقوها اشرفت على الاخذ، فاقام نور الدين عشرين يوما صائما لا يفطر الا على الماء . فضعف وكاد يتلف ، وكان مهابا فلم يتجاسر احد ان يخاطبه فى ذلك ، وكان له امام يقال له يحيى ضرير يصلي به فى هذا المسجد ، وكان يقرا عليه القرءان ، وله عنده حرمة . فاجتمع اليه خواص نور الدين وخدمه ، وقالوا : قد خفنا على السلطان ، ونحن من هيبته ما نقابله ، وانت تدل عليه ، ونسألك ان تساله ان يتناول ما يحفظ به قوته . قال : نعم اذا صليت به غداة غد الفجر سألته . قال : فلما كان فى تلك الليلة راى الشيخ يحيى فى المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا يحيى ، بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط . قال : فقلت : يا رسول الله ربما لا يصدقني ، واريد امارة . قال : قل له بعلامة يوم حارم . قال : فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل . فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم، وشرع يدعو أهابه أن يتحدث معه . فقال له نور الدين : يحيى . قال : لبيك يا مولانا . قال تحدثني ، او أحدثك ؟ فارتعد يحيى ، وخرس . فقال له : انا احدثك ؛ انك رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة ، وقال لك : كذا وكذا . فقال : نعم . فبالله يا مولانا مامعنى قوله عليه الصلاة والسلام بعلامة يوم حارم ؟ فقال نور الدين : لما التقى الصفان خفت على الاسلام ؛ لاني رايت من كثرة الفرنج ما هالني ، فانفردت عن العسكر ، ونزلت ، فمرغت وجهي فى التراب ، وقلت : يا سيدي من محمود فى الظاهر ؟ الدين دينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم ، فافعل ما يليق بكرمك . قال فنصرنا الله عليهم .

وقال الفقيه ابو الفتح الاشتري ، وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين : بلغنا عن جماعةيعتمد على قولهم ان نور الدين كان اكثر الليالي يصلي ، ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس فى اوقاتها بتمام شرائطها واركانها وركوعها وسجودها . قال : وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على اقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار انهم يقولون : ان القسيم بن القسيم ـ يعنون نور الدين ـ له مع الله سر ؛ فانه ما يظفر علينا بكثرة

جنده وعسكره ، وانما يظفر علينا وينتصر بالدعاء ، وصلاة الليل ؛ فانه يصلي بالليل ، ويرفع يديه الى الله ويدعو ، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ، وما يرد يده خائبة ؛ فيظفر علينا . فهذا كلام الكفار فى حقه .

وحدث الشيخ داود المقدسي خادم قبر سيدنا شعيب ، عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام، قال: حضرت فى دار العدل فى شهر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين ، فحضر رجل زاهد فيه سمة الخير ، معروف بالسداد والصلاح ، فسألت عنه فقالوا : اخو الشيخ ابى البيان ، وكان شيخ قد اودع عند اخيه ابى البيان وديعة وقد توفى ، فادعى المودع على هذا الشيخ انه يعلم بالوديعة ، وطالبه بالرد عليه . فانكر هذا الرجل علمه بالوديعة ، وحلف على ذلك . فجعل يشنع عليه ، ويقول : انه حلف كاذبا ، ويتكلم فى عرضه، ويقول فى حقه من التنمس وغيره . فحضر الى الملك العادل شاكيا منه ، وذاكرا سيرته وطريقتــه ، ومن الذي يقدر ان يقول فى حقي هذا ، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم باحضاره ، والانكار عليه مما يقول فى حقه . فلما فرغ من الكلام ، ورمى ما كان فى جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة ، وكان حاصلــه التماس الانكار عليه ، فقال له الملك العادل : اليس الله يقول فى كتابه : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ؟ فاذا كان هو يجهل عليك ، ويقول فى حقك بالجهل ما لا يجوز ، فيجب عليك الا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله ، فكانك قابلت الاساءة بالاساءة ، ومن حقك ان تقابل الاساءة بالاحسان . فقلت فى نفسي : الحق ما قال الملك العادل ؛ اما قرا هذا فى كتب التفاسير فثبت فى قلبه ، او اجراه الله على لسانه ، وانطقه به .

وقال قاضي القضاة بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : كان نور الدين ينفذ فى سنة فى شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملا شيئا يفطر عليه ، فكان ينفذ اليه الاكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك . فكان نور الدين يفطر عليه . وكان اذا قدم الموصل لا ياكل الا من طعام عمر الملا .

وقال صاحب المرآة : حكى لي شيخنا تاج الدين الكندي — رحمه الله تعالى — قال: لم يبتسم نور الدين الا نادرا . قال : وحكى لي جماعة من شيوخنا المحدثين انهم قرأوا عليه حديث التبسم ، وكان يرويه ، وقالوا: تبسم . فقال : لا والله ، لا ابتسم من غير عجب .

وذكر الشيخ جمال الدين المطري — رحمه الله تعالى — فى تاريخ المدينة الشريفة له ، على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، قال : وصل السلطان الملك العادل نور الدين محمد بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله — فى سنة سبع وخمسين الى المدينة لرؤيا رآها ذكرها بعض الناس ، وسمعتها من الفقيه علم الدين يعقوب بن ابى بكر المحترق ابوه ليلة حريق المسجد ، عن من حدثه عن اكابر من ادرك ان السلطان محمود المذكور راى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة ، وهو يقول فى كل مرة منها : يا محمود انقذني من هذين الشخصين ، يشير الى اشقرين تجاهه . فاستحضر وزيره قبل الصبح ، فذكر له ذلك ، فقال : هذا امر قد حدث فى مدينة النبي — صلى الله عليه وسلم — ليس له غيرك . فتجهز ، وخرج على عجل بمقدار الف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك، حتى دخل المدينة على غفلة من اهلها والوزير معه ، فزار ، وجلس فى المسجد لا يدري ما يصنع ، فقال له الوزير : اتعرف هذين الشخصين اذا رايتهما ؟ قال : نعم . فطلب الناس عامة للصدقة ، وفرق عليهم ذهبا كثيرا وفضة ، وقال : لا يبقين احد بالمدينة الا جاء . فلم يبق الا رجلان من اهل الاندلس نازلان فى الناحية التى تلي قبلة حجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — من خارج دار آل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — التي تعرف اليوم « بدار العشرة » فطلبهما للصدقة ، فامتنعا ، وقالا : نحن على كفاية ؛ ما نقبل شيئا . فجد فى طلبهما ، فجيء بهما . فلما رآهما قال للوزير : هما هذان . فسألهما عن حالهما ، وما جاء بهما ؟ فقالا : اتينا لمجاورة النبي . فقال : اصدقاني . وتكرر السؤال حتى افضى الى معاقبتهما ، فاقرا بانهما من النصارى ، وانهما توصلا لكي ينقلا من فى هذه الحجرة الشريفة بالاتفاق من ملوكهم ، ووجدهما قد حفرا نقبا تحت الارض من تحت حائط المسجد القبلي، وهما قاصدان الى جهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان التراب فى بئر عندهما فى البيت الذي هما فيه . فضرب اعناقهما عند النافذة التي فى شرقي حجرة النبي صلى الله عليه وسلم خارج المسجد ، ثم احرقا بالنار ، وركب السلطان بعدئذ متوجها الى الشام ، فصاح به من كان نازلا خارج السور ، واستغاثوا ، وطلبوا ان يبني عليهم سورا يحفظ ابناءهم وماشيتهم . فامر ببناء هذا السور المجدد اليوم ، فبني فى سنة ثمان وخمسين ، وكتب اسمه على باب البقيع ، فهو باق الى اليوم — رحمه الله — وقدس روحه فى جنته .

القابه التي خطب له بها على المنابر :

اللهم اصلح المولى السلطان الملك العادل ، العالم العامل ، الزاهد العابد ، الورع المجاهد ، المرابط المثاغر نور الدين ، وعدته ركن الاسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، رضى الامامة واثيرها ، فخر الملة ومجيرها ، شمس المعالي وفلكها ، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلوم من الظالم ، ناصر دولة امير المؤمنين .

ثم ان نور الدين اسقط الجميع قبل موته ، وقال : اللهم اصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي . وروى انه كتب رقعة بخطه الى وزيره خالد بن القيسراني يامره ان يكتب له صورة ما يدعى به له على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ، ولئلا يقول ما ليس فيه ، فكتب ابن القيسراني كلاما دعا له فيه ، ثم قال : ورأى ان يقال على المنبر : اللهم اصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لاعداء دينك ، ابا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر امير المؤمنين . فان هذا ما يدخله كذب . فكتب نور الدين على راس الورقة بخطه ما صورته : مقصودي الا يكذب على المنبر ؛ انا بخلاف كل ما يقال . افرح بما لا اعمل ؟ قلة ادب عظيم !! الذي كتبت به جيد . اكتب به نسخا الى البلاد . وكتب في آخر الرقعة : ثم يبدا بالدعاء : « اللهم اره الحق حقا ، اللهم انصره ، اللهم وفقه » . وكان يقول لاصحابه : حرام خبزي على كل من صحبني ولا يرفع الى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول الي .

قال ابن الاثير : حكى لنا الامير بهاء الدين علي ابن السكري ، وكان خصيصا بخدمة نور الدين ، قال: كنت مع نور الدين يوما في الميدان بالرها ، والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا الظل ، فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا ، فاجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، ثم قال : شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها . فرضي الله عن ملك تفكر في مثل هذا . وانشد صاحب الروضتين في هذا المعنى بيتين ، فقال :

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك

انت لا تدركه متبعا
فاذا وليت عنه تبعك

وذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه المسمى : « المنهج المسلوك في سياسة الملوك » قال : حدثني الفقيه ابو طاهر ابراهيم بن الحسين بن الحصني الحموي ، قال : كنت عند الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق ، وقد اخرج جريدة خراج املاك ، فجعل ينظر فيها ، فلما انتهى الى ذكر خراج معرة النعمان ، قال : اني عزمت على انتزاع املاك اهل المعرة من ايديهم ؛ فقد رفع الى اهل الخبر من الثقات ان جميع اهل المعرة يتقارضون الشهادة ، فيشهد احدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد معه ذلك في دعوى اخرى ، وان الملك الذي في ايديهم انما حصل لهم بهذا الطريق . قال فقلت له : ايها الملك : ان الله تعالى اوجب عليك العدل في رعيتك ، فانظر واكشف ، وتوقف في الامور اذا رفعت اليك ؛ فان اهل المعرة خلق كثير يستحيل تواطؤهم على شهادة الزور ، وانتزاع الاملاك من اربابها . بمجرد هذا القول لا يجوز . قال : فاطرق ساعة ، ثم رفع راسه ، وقال : اني امسكها عليهم ، ثم اكشف عنها بعد ذلك . والتفت الى كاتبه ، وقال : اكتب كتابا الى الوالي في المعرة ليمسك جميع الملك الذي في ايدي اهله حتى يستدعي البينة في ذلك . فكتب ، ووضعه بين يديه ليعلم عليه ، واذا صبي على شاطىء بردى يغني ، ويقول :

اعدلوا ما دام امركمو
نافذا في النفع والضرر

واحفظوا ايام دولتكم
انكم منها على خطر

انما الدنيا وزينتها
طيب ما يبقى من الاثر

قال : فلما سمعه الملك العادل تغير لونه ، وهملت عيناه بالدموع ، ثم نظر ، وقال : « من جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله » ، ثم استدار نحو القبلة ، وقال : اللهم اني استغفرك ، واتوب اليك مما عزمت عليه الان ، ثم تناول الكتاب فمزقه ، وجعل يستغفر الله جميع ذلك اليوم .

نبذ مما مدح به من الاشعار :

كان رحمه الله تعالى قليل الابتهاج بالشعـــر ، ويجيز عليه ، وقد مدح باشعار كثيرة ، واوصافه فوق ما مدح به ، وكان شاعرا زمانهما فى اول دولته : ابو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، وابـو الحسن احمد بن المنير ، ولهما فيه مدائح ، وله اليهما منائـــح .

من ذلك قول ابن القيسراني فيه :

ذو الجهادين من عـــدو ونفـــس
فهو طول الحيـــاة فى هيجـــاء

ايها المالك الذي الـــزم النـــا
س سلوك المحجـــة البيضـــاء

قد فضحت الملوك بالعدل لمـــا
سرت فى الناس سيرة الخلفـاء

قاسما ما ملكت فى الناس حتى
لقسمت التقـــى على الاتقيـــاء

ومنهـــا :

رافـــة فى شهامـــة وعفـــاف
فى اقتدار وسطـــوة فى حيـــاء

وجمـــال ممنطـــق بجـــلال
وكمـــال متـــوج ببهـــاء

عجب الناس منك انك فى الحـــر
ب شهـــاب الكتيبـــة الشهبـــاء

وكان السيوف من عزمك المـــا
ضي افادت ما عندها من مضـــاء

ولابن المنير فيه :

ابا ملك الدنيا الحلاحل والـــذي
له الارض دار ، والبرية اعبـــد

وليست بدعوى لا يقوم دليلهـــا
ولكنه الحق الذي ليس يجحـــد

اخو غزوات كالعقود تناسقـــت
تحل باجيـــاد الجيـــاد وتعقـــد

لسان بذكر الله يكســـو نهـــاره
بهاء،وحتى فى الدجى ليس يرقد

وبذل وعـــدل اغرقـــا وتالقـــا
فلا الود مثمود ، ولا الباب موصد

مرام سماوى ، وحزم مســـدد
وراى شهابى ، وعـــزم مؤيـــد

هذا وسيكون محور الحديث القادم حول غزوات هذا السلطان وفتوحاته المجيدة .

« يتبـــع »

القاهرة : دكتور عبده اسماعيل الطهطاوي

مذكرات حديثية

للأستاذ حسين الساحي

وكما قلت فقد حاولت ان اجد لنفسي طريقة في تفسير القرءان الكريم والحديث الشريف ذلك لان القرءان الكريم والحديث الشريف يلهماننا ونحن نقرؤهما بمعطيات عصرنا ، وتنعكس عليهما مختلف الثقافات ، كما تنعكس المسارح والمصابيح على المرآة فاذا بها تعطينا ابعادا نورانية اخرى ؛ ولذلك فكل عصر يعطي له القرءان والحديث ابعاده الجديدة المتطورة ، ولكم حاولت جاهدا ان افسر القرءان الكريم والحديث تفسير منحدرا من هذا الاساس ... ولذلك فلم اكن ارجو ان افسر القرءان والحديث تفسيرا يعتمد على مناقشة الالفاظ ولا على مناقشة آراء المفسرين ولا استنتاجات الحديثية والفقهية من الآيات ؛ ولا سرد ما يتعلق بالموضوع من آراء فقهية وجدلية ؛ فهذا اسلوب معروف لدينا ، وهو اسلوب مدرسي يفيد الطلاب والمختصين ولا يفيد من يرغب في الموعظة والتدبر ، والانسياب في عمق التجربة الذاتية والثقافية والفلسفية .. والمذهب الجديد الذي ارغب فيه هو ان اتعرض فيه للآيات والاحاديث باختصار ، كما تعرض لها المفسرون والمحدثون ؛ ولكن اترك الاشتغال بالالفاظ واتجاوزه الى اثر الآية القرءانية وشحنتها عبر الاجيال ... والحديث النبوي وتأثيره ، فالشيء الذي نعتقده ان العرب عندما كانوا يستمعون الى القرءان او الحديث فتتغير مفاهيم الحياة لديهم ، وتتطور معانيها في عقليتهم... فاذا بهم اقوام آخرون.

واذا بهم يستطيعون ان يصلوا الى قمة الفكر والوجدان ، والى قمة العدل والمدنية ، فالنهج الذي اريد ان اتبعه هو مسايرة هذه الفكرة وكيف تطورت ونمت سواء في المجتمع الاسلامي او غيره .

وليس معنى ذلك اني ادعو الى ترك الاشتغال بآراء المفسرين والمحدثين ولا ادعو الى نبذ آرائهم . وما كان لي ان افعل ذلك وهم اساتذتنا وعمدتنا في فهم القرءان الكريم والحديث ، وانما اترك هذا العمل لمن يريد تفسير القرءان ليشتغل به حتى يفهم الآيات القرءانية كما هي فيرجع الى المفسرين واقوالهم والى تحليل الكلمات والتعابير ، وابعاد المفاهيم حسب قواعد اللغة والبلاغة العربية ، حتى يفهم الموضوع.. ثم يترك ذلك ليستطيع الانسان ان يستفيد من هذا المنهج الجديد الذي يعطي زبدة التفسير ويتجاوزها الى الآثار القرءانية في النفس البشرية .

وقد يكون المنهاج الذي اتناوله مسبوقا اليه ولكنه سبق في الموضوع لاسبق منهاج كامل راسخ القدم ...

وغايتي ان لا افوت معاني الآيات القرءانية وسط مناقشة الالفاظ والمعاني وانا اترك القارىء ليسبح بفكر في عالم اجدى وانفع ، حتى لا تبقى القلوب غلفا تسمع وكان في اذنها وقرا ...

ولهذا اريد ان ارى في هذا المنهاج هدفا جديدا ، فاذا كان الفيلسوف اقبال يقول (اقرا القرءان وكأنه

يوحى اليك) ليعطيك ابعاد المعاني والتجربة الذاتية فانني اريد ان أؤرخ للفكرة القرءانية في التفسير لتعطيك الدليل على اعجازها وحتمية هدفها ، وكذلك بالنسبة للحديث ايضا .

اما بالنسبة للتفسير لقد اهتم المفسرون القدماء والمحدثون بنواحي متعددة في تفسير القرءان الكريم ، وفسره كل واحد حسب اتجاهه وحسب امكانياته الثقافية ومشاكل عصره ومعطيات بيئته ، فلذلك كان منهم من يفسره على اساس صوفي او فلسفي او مذهبي ، ومنهم من يفسره على اساس عقائدي او علمي .

ولقد اهتم المسلمون منذ نزول القرءان بتفسيره وفهمه ، فكان الصحابة كابن عباس وابن مسعود والامام علي ، يفسرون عدة آيات قرءانية ، على ان العلماء لم يلبثوا ان كرسوا جهودهم لتفسير القرءان كاملا فكان لكل منهم منهاج خاص ومن اعظم التفاسير (تفسير الطبري) وهو التفسير بالماثور ، اى تفسير القرءان بالقرءان او السنة ، او بما نقل عن الصحابة والتابعين، واتبع المفسرون من بعده طريقته واشتهرت التفاسير المنائرة به اربعة من التفاسير المتداولة ، وهي الكشاف للزمخرشي المتوفى 538 ﻫ والجامع لاحكام القرءان للقرطبي المتوفى 671 وانوار التنزيل واسرار التاويل للبيضاوي المتوفى 791 ﻫ وروح المعاني للالوسي المتوفى 1270 ﻫ كما يقول الدكتور البهي في مقدمة تفسير الشيخ شلتوت ويزيد ، بأن منهاج « الكشاف » يعنى بابراز مذهب الاعتزال في العقيدة ومنهاج القرطبي باستنباط الاحكام الفقهية ، وبذكر التفاصيل الخاصة بموضوعات هذه الاحكام ، ومنهاج البيضاوي يعني بذكر راى اهل السنة ، وظهر كذلك تفسير ابن العربي وهو تفسير دال على ضلاعة وعمق تفكير ، وتأثر بهؤلاء جميعهم النسفي ، وذو الجيلالين بل منهم من خصص تفسيره للاعراب القرآني كالعكبري ، وغيرهم كثيرا احصاهم صاحب كشف الظنون الى نهاية عصره ثم يزيد الدكتور البهي (ان بدخول صنعة الاعراب والبحث اللغوي تفتت الكلمات الى وحدات ، واصبح ما يراد من القرءان عن طريق هذه التفاسير ، اما مذهبا معينا اجتمعت عليه مدرسة خاصة من مدارس الفكر الاسلامي او معنى لغويا او قاعدة اعرابية ، اما ما يرشد اليه الله فكثيرا ما بقي غامضا ــ بسبب هذه الصنعة ــ في افهام المسلمين ... ويختم الدكتور محمد البهي رايه في تطوير التفسير بقوله نعم ، قام بعض الخالدين ــ وهم قلة ــ في تاريخ الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامي بمحاولة في تفسير القرءان الكريم ويتميز بها تفسير عن السابقين في تضمين تراكيب القرآن والفاظه المعاني الخلقية التي امر بها الاسلام ... وشرعها الله سبحانه لتهذيب النفس ، وتزكية الوجدان ونهضة الشعوب ، وتنمية المعرفة والسمو بالانسانية عن الدنيا والخبائث في السلوك والعلاقات العامة ... وبذلك يكون القرءان ملبيا لحاجات المسلمين في كل وقت والمبادىء او القضايا التي استحدثتها الحضارات الانسانية الحديثة او اوجدتها بعض الاحداث العالمية الى ان يقول وفي مقدمة هذه القلة من الخالدين في الفكر الاسلامي المرحوم الامام الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا في « تفسير المنار »

والحقيقة ان الشيخ محمد عبده ورشيد رضا يفسران القرءان تفسيرا اجتماعيا طبق المدرسة السلفية ونجد القاسمي يفسره على اسلوب وجداني عظيم كما نجد الشيخ طنطاوي جوهري يفسره تفسيرا علميا حسب ما وصل اليه عهده من آراء علمية ورياضية ، ونجد الشيخ محمد شلتوت يفسره طبق اسباب النزول وآراء المفسرين وحرفية النص بينما نجد الشيخ الخولي يفسره تفسيرا منهجيا جديدا .

وقد عرف المغرب بصفة خاصة طرائف في التفسير اهمها تفسير ابن عطية الذي برهن عن اطلاع واسع ودراسة معارفيه جمة طبقها في تفسيره ، ومنهم المزدغي والحرالي ، والجرسفي ، وفي كشف الظنون ذكر لمات التفاسير القرءانية وقرات فيما قرات تفاسير للشيخ محمد السائح والشيخ زنيبر ، نشرت صفحات منها على اعمدة الصحف والمجلات ولم يكتب ان نقراها مفصلة كما سمعنا بتفاسير اخرى او مناهج في التفسير في محاضرات مختلفة ، ونتمنى ان تتاح لها فرصة الظهور والنشر ...

ولهذا عمدت الى البحث في منهاج جديد يقوم على اساس شرح معطيات الاية في عصرها ثم تتبع آثارها الى اليوم .

الرباط : الحسن السائح



وقضايا الاسلام وثقافته

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

- 5 -

السنـــة :

المستشرقون كلما وجدو فرصة سانحة للطعن في الاسلام والكيد له الا وتسابقوا الى اقتناصها قبل فوتها ، واخذوا يثيرون الشكوك ما وسعتهم طاقاتهم ، ولو لم يكن ذلك معززا بالبراهين العلمية والعقلية ما دامت الغاية التي يصبون اليها هي الهدم والتحطيم ، ونسف الاسلام من قواعده الجوهرية ، وتلك شنشنة جبلوا عليها منذ ان شرعوا يخوضون في المباحث الدينية ويفتشون القضايا الاسلامية على ضوء ما تمليه عليهم نعرتهم وضغينتهم .

فماذا نسجوا من اكاذيب من اجل الاطاحة بالسنة المحمدية ؟

زعم جولد تسيهير وتبعه سوفاجيه ان تدوين الحديث النبوي الشريف لم يقع الا في اول القرن الثاني الهجري ، وان المدونين لم يدونوا الا ما تلاءم وآراءهم المذهبية والطائفية .

لقد اصبح من المسلم به ان الصحابة رضي الله عنهم كتبوا مجموعة من الاحاديث والرسول عليه السلام حي يرزق ، فسعد بن عبادة الانصاري كانت عنده صحيفة جمع فيها بعض سنن الرسول واحاديثه ، وان من اشهر الصحف التي دونت فيها احاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته الصحيفة التي تسمى « الصحيفة الصادقة » التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص وقد جمع فيها الف حديث (1)؛ ولذلك روى عن ابي هريرة رضى الله عنه انه قال : « ما كان احد اعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني الا عبد الله بن عمرو ، فقد كان يكتب ولا اكتب » وسمرة ابن جندب كان يمتلك نسخة فيها احاديث ، وكذلك جابر بن عبد الله (2) كان يمتلك صحيفة مكتوب فيها ما سمعه من احاديث ، وثبت ان ابا هريرة جمع عدة صحف ولم يظل منها الا صحيفة واحدة رواها عنه تلميذه التابعي همام بن منبه المتوفى سنة 101 هـ (3) فعرفت بنسبتها اليه مع العلم انها لابي هريرة ولا شك .

واما ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النهي عن كتابة الحديث كقوله : « لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » ، انما هو من اجل الا يختلط الحديث بالقرآن ايام كانت الدعوة الاسلامية محدودة الانتشار ، وعندما انتشر الاسلام وعرف الناس القرءان معرفة جيدة انتفى عنصر الخوف من الخلط والالتباس .

---

1) ابن الاثير « اسد الغابة » ترجمة عبد الله بن عمرو 3 / 233 . وسميت الصادقة لانه رواها عن الرسول عليه السلام .

2) طبقات ابن سعد 5 / 344 .

3) كذا في طبقات ابن سعد 5 / 396 وعند ابن حجر والنووي توفى سنة 131 هـ ، والصحيفة التي رواها همام لها مكانة مهمة في تاريخ تدوين الحديث ،ولذلك اطلق عليها الصحيفة الصحيحة على مثال الصحيفة الصادقة .

وبجانب ذلك فقد رويت احاديث نصت على ان التدوين قد حدث فى ايام الرسول ، وانه كان يشجع عليه ، روى عن نافع بن خديج انه قال « قلنا يا رسول الله : انا نسمع منك اشياء افنكتبها ؟ قال : « اكتبوا ولا حرج » .

بهذا ينهزم الراى القائل بأن تدوين الحديث تأخر حتى القرن الثاني الهجري ، ويثبت تدوينه فى عصر مبكر ، كما ينهزم الراى الأفن القائل ان الحديث النبوي الشريف انى نتيجة للتطور السياسي والاجتماعي ، وبعبارة صريحة : ان الحديث النبوي موضوع مفترى، وهذه الغمزة الاخيرة هي التي سنقف عندها مناقشين ما تنطوي عليه من بهتان صارخ .

بالنظر الى التاريخ نجد ان المسلمين منذ القرن الاول كانوا يتشددون ايما تشدد فى تقبل الاحاديث كابي بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفى العصور الاخرى شدد العلماء النكير على الوضاعين ، وميزوا بين الحديث الموضوع والصحيح ، وبينوا السنة الخالصة من كل شائبة من الشوائب ، ولذلك فان من كذب على الرسول لا يتخذ برهانا دافعا على ان اصحاب المذاهب الفقهية والسياسية – بتضارب آرائهم فيما بينهم – اخترعوا ما شاء الله لهم ان يخترعوا من الاحاديث من اجل دعم افكارهم وتحقيق مصالحهم ؛ ذلك لان الاختلاف الواقع بينهم يرجع أول ما يرجع الى ان الائمة قد وصلتهم الاحاديث ولم تصل الى فئة اخرى ، فحكم عند ذاك الفريقان بما تجمع لديهم من الآثار النبوية ، او ان هذه الاحاديث وفق عليها الجميع ، ولكن الاختلاف نتج بسبب الاستنباط او الحقيقة والمجاز ، او القياس (1) ، وحينذاك تضاربت الافهام ، وهذا لم يقتصر على الحديث فحسب بل تعدى الى القرءان نفسه ، وذلك تبعا للقدرة الاجتهادية لكل عالم او فقيه ، والامثلة على ذلك لا تقع تحت الحصر ، منها الاختلاف الواقع فى لفظة القرء – وهذا من باب الاشتراك اللفظي – فى قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء الخ . » ففقهاء الحجاز يذهبون الى الراي بأن القرء هو الطهر ، وفقهاء العراق يرون انه الحيض (2) ولكل الفريقين دلائل من اللغة والحديث .

ومهما يكن من حال فاختلاف العلماء المجتهدين فى الاحكام يكون فى الجزئيات التي لم يرد نص صريح فيها، وهو بالتالي يدل على مرونة الفكر الاسلامي وتفتح العقلية الاسلامية النابغة .

« وجولد تسهير » وهو فى معرض حديثه عن الاحاديث ينفي (3) ما تواتر منها وتضافرت الاخبار على صحته ، وهو حكم ورب الكعبة لا يصدر الا من جاهل لا يتوفر على رصيد ثقافي يقيس به الحقائق بمقاييس لا تقبل التزوير ؛ اذ كيف يعقل ان يرفض الاحاديث المتواترة ، والتواتر بطبيعته يستحيل ان يكون خرافة مختلق او افتراء مبتدع .

ونحن ان سلمنا جدلا بما ذهب اليه وجب علينا وقتئذ ان نشك فى كل امر متواتر فى التاريخ والآداب والفنون ، كان نشك مثلا فى وجود طارق بن زياد ، والمتنبي وشكسبير، وفولتير، وبتهوفن والمستشرقين انفسهم ، على راسهم واسطة عقدهم صاحب الراى الفج « جولد تسهير » ، وهذا سيفضي بنا الى ان ننفي كل ما تواطات عليه آراء العلماء قديما وحديثا ، ونرفض كل ما تفتق عنه العقل البشري منذ انبثاق فجر الانسانية الاول ، وبالتالي تنكر كل الاديان السماوية التي تفردت على مدى التاريخ بالدعوة الى الخير والصلاح .

اذن لماذا هذه التحملات العقلية الجذابة وفقهاؤنا وضعوا علما على هدى من الاسس العلمية الصحيحة التي تبين الفاسد من الصالح ، وكتبهم زاخرة بذلك مما لم يستطع « جولد تسهير » واتباعه ان يذوقوه ، ويستمرئوا طعمه الحقيقي .

واما فيما يتعلق بانتقاد « غاستون ويت » لرجال الحديث بأنهم عنوا بالسند دون المتن ، وتبعه فى ذلك مع الاسف الشديد الاستاذ احمد امين فى فجر الاسلام (4) فانه يعتبر اجحافا مبالغا فيه اى مبالغة ، وظلما صراحا لعلماء الحديث الذين افنوا زهرة عمرهم فى الجرح والتعديل والرواية والتحقيق العلمي ، وآية ذلك ان ما قاموا به فقهاؤنا من مجهود فى نقد السند يعادل ما قاموا به فى نقد المتن ، ويكفي برهانا على

1) عرف علماء الاصول القياس بقولهم بانه : بيان حكم امر غير منصوص على حكمه بالحاقه بامر معلوم حكمه بالنص عليه فى الكتاب او السنة واركانه هي : المقيس عليه – المقيس – الحكم – العلة .

2) انظر نيل المرام ص 84 لمحمد صديق صدقان .

3) انظر كتابه العقيدة والشريعة فى الاسلام ص 49 ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين – الطبعة الثانية.

4) ص : 217 – 218 . ط 10 .

ذلك انهم وضعوا علامات لتمييز السند الصحيح من الضعيف وهي اربع ، وللمتن سبع ، فما راى اصحابنا المجنونين بعد هذا في الذي قلناه ؟

وكنا ننز ه الاستاذ احمد امين أن ينجرف في موجة اولئك ، ويترسم خطاهم وخاصة حين زعم ان الامام البخاري روى احاديث منافية للتجربة والمشاهدة وانها ليست صحيحة كالحديث الذي يقول : « لا يبقى على ظهر الارض بعد مائة سنـــة نفس منفوســـة » والحديث صحيح روي من طرق كثيرة ، ومعنـــاه ان بعد انتهاء مائة سنة من قول الرسول هذا الحديـــث سوف لا يبقى احد ممن كان يعاشرهم ، وفعلا صدق قول الرسول عليه السلام فلم يبق احد من اصحابـــه بعد مرور مائة سنة ، وهذا اخبار بالغيب يـــدل على حذق نبوته عليه الصلاة والسلام .

وقبل ان ننهي حديثنا هذا يجـــدر بنا ان نرد الشبهات التي اثيرت حول شخصية الزهري ، والتي اثارها « جولد تسهير » كي يبرهن على ان الحديـــث النبوي الشريف قد لعبت به ايادي علماء مشهورين .

والامام الزهري شخصية اسلامية عظيمة ، وهو محمد بن مسلم بن شهاب ولد في خلافة معاوية وكان غزير العلم ثقة ، واقوال (1) العلماء فيه لا تعـــد ولا تحصـــى .

وقد اتهم هذا الرجل بميله للامويين وتواطئـــه معهم على وضع الاحاديث ، من ذلك قول جولدتسهير ان عبد الملك منع اهل الشام من اراد فريضة الحج ، واخذ يحث الناس على الحج الى المسجد الاقصى بدلا من الكعبة ، ولذلك بنى قبة الصخرة .

ان هذا الراي في الحقيقة لا يخضع للمقايــــس العقلية والعلمية ؛ ذلك لان عبد الملك ليستحيـــل ان يمنع الناس عن تأدية الفريضة ، وان يعطل شعائر الله، كيف يحدث هذا وفي الشام ائمة التابعين واعلامهم فلا يهبون الى انكار هذا الامر ، ولو كان ذلك قد وقـــع بالفعل لما حج في سنة 68 هـ كثير من الشخصيات .

ثم ان المصادر الاسلامية لم تنص على أن عبـــد الملك هو الذي شيد قبة الصخرة ، بل نصـــت على ابنه الوليد ، وبجانب هذا فان الزهري لو شـــاء ان يكذب على رسول الله وينسب اليه ما لم يقله لما ابى ان يحابي الخليفة هشام بن عبد الملك ويقول له في صراحة تامة : « لا ابا لك فو الله لو ناداني منـــاد من السماء ان الله احل الكذب ما كذبت » .

والحق انه كان رجلا ذا قوة صلبة في مواقف الحق لا تغريه اعراض الدنيا مهما كان نوعها ، وحياته بايجاز حافلة بعظائم الاعمال والسلوك الطيب الحسن .

والحديث « لا تشد الرحـــال الخ . » روى في كتب السنة من طرق مختلفة عن غير طريق الزهري ؛ فقد اخرجه البخاري عن ابي سعيد الخدري ، كمـــا اخرجه مسلم من ثلاث طرق : احداهـــا عن طريـــق الزهري ، والثانية عن طريق جرير عن ابن عميـــر عن قزعة عن ابي سعيد ، والثالثة عن طريق ابن وهب عن عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن ابي انس عن سلمان الاغر عن ابي هريرة .

من هنا نصل الى الحقيقة ، هي : ان الزهري لم يرو هذا الحديث وحده ، وان الافتراءات التي رمـــي بها هذا الامام ليس لها ظل من الصحة .

وقد اتهم نفس اتهام الزهري ابو هريرة الراوية المشهور ، ونشر هذه البلبلة مسلمـــون (2) تاسيـــا بالمستشرقين ، ولا نحتاج الى طرق هذا الموضوع عن ابي هريرة رضي الله عنه ، فقد شفى الغليل الاستاذ مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » .

والنتيجة المنطقية التي نستخلصهـــا من كل ما سبق هي ان اقـــوال المستشرقيـــن وعلى رأسهـــم « جولدتسهير » اليهودي الخبيث واتباعهم في السنـــة المطهرة ضلال ما بعده من ضلال ، ويجدر بنا ان نردد قول الشيخ الغلاييني :

فماذا وراء الحسن الا ابن فهلل (3)
وماذا وراء الصـــدق الا التحـــزب
بدا الحق فارتاع الضلال وحزبـــه
كذا (يعلو الحق والحق اغلب) (4)

« يتبــــع »

تطوان : محمد المنتصر الريسوني

---

1) من بين هذه الاقوال قول الامام احمد : « الزهري احسن الناس حديثا واجودهم اسنادا » .
2) انظر كتاب ابي رية : اضواء على السنة المحمدية
3) فهلل اسم من اسماء الباطل .
4) البيان من قصيدة الشيخ الغلاييني في الرد على كرومر المستعمر المقيت .



« العرنسية » مصطلح ابتكرناه لاطلاقه على هذه العجمة التي نبتت في بلادنا والتي تزداد انتشارا في وسط المثقفين والمعلمين وغيرهم ـ رجالا ونساء ـ الا من تلقوا تعليما تقليديا بحتا او ليست لهم صلة بالتطور الحديث ، يمزجون العامية بالفرنسية للتعبير عن افكارهم ومشاعرهم وما تتناوله حواسهم متنقلين من هذه الى تلك بدون شعور . ولعل اكثر الناس لكنة او تحدثا « بالعرنسية » من اخذوا بقسط يسير من اللغة الفرنسية ولم يسعفهم الحظ باخذ نصيب كثير او قليل من اللغة العربية .

لقد اصاب لغة التعبير في بلادنا ما اصاب جل مظاهر حياتنا الخاصة والعامة خلال العقود الخمسة الماضية . اصبح الانسان المغربي اليوم مزيجا من الشرقي والغربي في ماكله ومشربه ومسكنه وسلوكه. وهذه الازدواجية في الحياة تلاحظ وتكثر في الطبقة المتعلمة الميسورة خاصة في وسط الذين تلقوا تعليما عصريا وارتقوا في سلم الوظائف او ضربوا بسهم صائب في ميادين الاعمال . يتهالكون على اقتناء كل جديد في غلو وارهاق و .. فساد ذوق احيانا مع المحافظة على مظاهر تقليدية قديمة . وهم الى الاجترار ومحاكاة الغير اسرع منهم الى الابتكار واستنباط اساليب جديدة .

لو ان اداة التعبير بقيت خالصة من الخلط الذي يضر بجوهر اللغة الاصلية لما كانت مدعاة للملاحظة ، بل لكانت من الدوافع لاثراء هذه اللغة بالصور الذهنية والاساليب التعبيرية الحديثة . وحبذا لو التزم المعلمون والمثقفون بالتعبير تارة باللغة العربية او العامية وتارة اخرى باللغة الفرنسية دون ما خلط . ما من شك ان الاخذ بهذا الالتزام يقتضي مجهودا مضنيا في البداية ، لكن عائدته محمودة ، اذ يمكن اصحابه من امتلاك ناصية التعبير بلغتين . اما سلوك الطريق السهل بخلط كلتيهما فيدل على قصور في التعبير بهما معا ويؤذي اللغة القومية بوجه خاص فلا يستقيم بها معنى في لسان الذين يمزجونها بغيرها لم يؤثر اسلوب تعبيرهم في اهلهم ودائرتهم .

كثيرا ما يتعلل هؤلاء بقصور اللغة العربية عن الاداء بالدقة المطلوبة ، وغالبا ما يعتذر الفنيون بفقر هذه اللغة في المصطلحات العلمية والتقنية. بينما القصور والفقر راجعان في الحقيقة الى اسلوب التعليم الذي تلقنوه من جهة والى انفسهم من جهة اخرى ، اذ لا يبذلون اي مجهود للبحث عن طرق اداء آرائهم بلغتهم القومية وابتكار المصطلحات المؤدية الى ذلك . فاذا كان الاسلوب العربي بقي جامدا خلال عصور الانحطاط لا يخرج عن قوالب عتيقة في التعبير وينحصر شعرا ونثرا في ظلال باهتة من القوافي والسجع المتكلف ، فقد طرا عليه تطور مهم في العقود الاخيرة لم يتيسر للمثقفين ثقافة غربية من ابناء هذا البلد ان يقفوا عليه. ولاخفاء قصورهم وتقصيرهم ينكرون على اللغة العربية كل قدرة على الاداء .

ترجع محنة التعبير في الاصل الى اسلوب التعليم المتبع منذ دخول اطفالنا للمدارس الى خروجهم منها، اذ لا يقدم لهم رصيد كاف من المفردات العربية يعينهم على اداء الاغراض الحسية ثم يرتقي تدريجيا بارتقاء مداركهم العقلية . وفي نفس الوقت لا يجد هؤلاء الاطفال في بيئتهم العائلية وفي محيطهم الاجتماعي الذي يتحركون فيه معينا على تقويم لسانهم وتحسين تعبيرهم . فلا وجود لمنهاج تعليمي مدروس وغالبا ما يكون المعلمون دون المستوى معرفة وخبرة بالاساليب التربوية الحديثة ، بينما تختلف لغة المجتمع اختلافا بينا عن لغة المدرسة . ثم ان الاطفال حين ينتقلون من الطور الابتدائي الى الثانوي فالعالي يصبح التعليم — الا في القليل من المواد — باللغة الفرنسية ، فتفتر الصلة بينهم وبين لغتهم الاصلية ، ان لم تنقطع . بينما يتمرسون بأساليب التعبير مدة سنوات باللغة الفرنسية ويستقر في اذهانهم ان اللغة العربية عاجزة عن اداء ما في ضمائرهم من افكار واحساسات .

والصورة على العكس تماما بالنسبة للاطفال الاجانب . كل شيء ينمي فيهم قدرة التعبير بلغاتهم القومية : المدرسة بما فيها من معلمين اكفاء ومناهج مدروسة موحدة في مختلف الاطوار ، والمجتمع بما يحتويه من جو عائلي وبيئة خارجية . فلا غرابة ان تنمو ملكات التعبير عند ناشئة الغرب فيؤدوا ادق الافكار وارهف المشاعر بلغة سليمة لا لكنة فيها .

يضاف الى الاسباب المتقدمة التي تفسد اداة التعبير عند النشء المغربي نوع المحيط العائلي الذي يتربى فيه . هناك عدة انواع من الاسر المغربية نقتصر على ذكر ما يتصل منها بالموضوع الذي يهمنا :

نجد صنفا يتركب من ابوين مغربيين متوسطي التكوين والثقافة باللغتين العربية والفرنسية ، وكثيرا ما تغلب هذه اللغة على الاولى . هذا الصنف من الاسر ينشيء ابناءه على التعبير « بالعرنسية » ؛ فتراهم يمزجون العامية بالفاظ فرنسية في شكل يزري بالذوق السليم . في هذه العائلات بوجه خاص تعشش العجمة في أبرز مظاهرها . فلا الآباء ولا الابناء بقادرين على اداء جملة صحيحة بالعامية فضلا عن العربية ، وقد يستطيعون التعبير عن افكارهم بالفرنسية . وتتكون الاطر الوسطى في الغالب من هذا الصنف .

ونجد صنفا ثانيا يتكون من آباء مغاربة وامهات فرنسيات ، وغالبا ما تكون الامهات جاهلات باللغة العربية ولا يبذلن اي مجهود لتعلمها ، فيضطر الزوج الى الحديث بلغة زوجته معها ومع أولاده ليسهل الحوار في العائلة . وقلما يجري الحديث مع الاولاد بلغة الاب . فيكون حظ هؤلاء من لغتهم الاصلية ضئيلا. وقد شاهدنا اطفالا مغاربة لا يحسنون الحديث بالعامية، فاذا تكلموا بها لا تجد فرقا بينهم وبين الفرنسيين الذين يتعلمون العامية في الكبر ليخاطبوا خدم البيت في بعض الشؤون .

وصنف آخر من الاسر يتركب من آباء مغاربة وزوجات اجنبيات من غير الجنسية الفرنسية . كثيرا ما يكون حظ هؤلاء الزوجات من اللغة الفرنسية قليلا. فيضطر الاب الى التخاطب تارة بلغة زوجه وطورا باللغة الفرنسية ليسهل الحوار بين الابوين والابناء جميعا . فينشأ الاولاد على الرطانة بلغة فرنسية غير سليمة وبعض التراكيب المعوجة من لغة الام . ام لغة الاب فتصبح الضحية .

الى جانب هذه الاصناف من الاسر نجد صنفا آخر متركبا اما من زوجين مغربيين او زوج مغربي وزوجة اجنبية . لكنهما يحسبان من اسس التقدم نبذ اللغة العربية كاداة للتعبير فلا يستعملان الا الفرنسية في حديث البيت . وغالبا ما تقطع هذه العائلات كل صلة تربطها بالمجتمع المغربي في نمط العيش ، فينشأ الاطفال في جهل تام بمجتمعهم ولغته الا ما كان من لقطات يلتقطونها هنا وهناك من أفواه الخدم او زملائهم في المدرسة ان هم ركنوا اليهم . هذا الصنف الذي يشعر بمركب التعالي امام كل ما يمت الى حضارته نجده في الغالب بين الاطر العليا .

واغرب الاصناف بعض العائلات المثرية التي تتخذ مربيات وخادمات اوربيات . فبدلا من ان تسعى المربيات والخادمات — كما هي طبيعة الكون — الى تعلم العائلات التي يشتغلن عندها ، نشاهد العكس حيث ان العائلات هي التي تجهد النفس لتعلم لغتهن. فيكفي ان تدخل خادمة أو مربية اجنبية بيت احد السراة لتصبح اللغة العربية في محنة .

يضاف الى هؤلاء واولئك العدد العديد من العمال الذين تضطرهم ظروف العيش الى الاشتغال في المؤسسات الخاصة التابعة للاوربيين . تتبدل لغة تعبير هؤلاء العمال من عامية صرفة الى « فرنسية » منفرة، فيدخلون في لغة تخاطبهم الفاظا اعجمية بسيطة

كثيرا ما يكون لها مقابل متداول فى العامية .. بـــل يصرفون الافعال الاعجمية حسب قواعـــد الصرف العامـــي .

هذه بعض الصور التي تحمل فى ثناياها خطـــرا داهما على اللغة العربية وبالتالي على احد المقومـات الاساسية للشخصية المغربية عاجلا أو آجلا . اننـا امام امتصاص لمادة جوهرية من مـــواد حضارتنـا واستبدالها بشيء مشوه للغاية ! ولا اقول امـام غزو فكري من لدن حضارة اجنبية ــ فهو موضوع آخر ــ اذ نحن المـــؤولون أولا واخيرا عن المحنة التي تعانيها لغتنــا .

ما لم تتضافر المدرسة والبيت والمجتمع ، وما لم تكن هناك ارادة قوية على المستوى العام والمستوى الخاص للحفاظ على اداتنا التعبيرية ، فلا امل فى درء هذه الصورة الشوهاء التي تتجلى فيها لغتنـــا على لسان الناطقين بها ، ولا رجاء كذلـــك فى استمــرار مقوماتنا الحضارية ، وتأكيد طابعنا المتميز عما سواه.

ان المتعلمين منا مهما قلـدوا الغربييـــن فلـــن ينسلخوا عن ذاتيتهم التي فطروا عليها وتفاعلـــت فى تركيبها عدة عناصر عبر الاجيال ، ولن يتوفقوا الا فى المحاكاة ، ولن يكونوا الا صورا كاريكاتورية للغربيين. فاحسن بهم ان يراجعوا انفسهم ويسعـــوا لاثبـــات شخصيتهم عن طريق المحافظة على لغتهـــم وعلى كل طابع يميزهم عن غيرهم .

نواكشوط : قاسم الزهيري



في سبيل العربية

للأستاذ سعيد الأفغاني

« هذا حديث كنت كتبته قبل سنتين مع بعض البحوث ، يوم كلفتني جامعة دمشق للاشتراك باسمها في الموسم الثقافي الذي اقامه « المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي » ثم عاقت مصيبة عامة دون الاشتراك .

وزارني هذا الصيف زائر عربي كريم من الشمال الافريقي ، ودار الحديث حول من فجعت امتنا بفقده من قادتنا المخلصين الواعين الاعلام .. حتى ذكر لي الفقيد الكبير السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلتي « الفتح » و « والزهراء » احد الصابرين الصادقين في رفع راية العربية بداب وصمت وثبات ، فاثار ذكره شجنا كامنا في القلب منذ نعاه الي الاستاذ الكبير السيد خير الدين الزركلي وكان زاره في المستشفى قبل وفاته بايام . فاذكرني كلام الزائر حديثا كان السيد الخطيب حدثني قبل ثماني سنوات كنت اودعته اوراقا عزمت على اصطحابها لذلك الموسم الثقافي في المغرب العزيز ، فاستخرجتها ، فلما اعدت قراءتها آثرت أن انشره كما قد كتب في حياة الاستاذ الخطيب رحمه الله ، في مجلة اثق انها تقع من قلبه ـ وهو في عليين ان شاء الله .. موقعا كريما .. »

كان لنا في « ثانوية دمشق » مدرس فاضل قوي المشاركة في فنون مختلفة ولغات عدة ، ذكي ، ما اظن اني ورفاقي راينا مثله قوة بديهة وسرعة خاطر ، مع مزاج حساس سريع التأثر ، منه كان يدخل الخلل على ضبطه لنصف ، ويلع اولو الشغب من الطلاب لاثارته .

دخل مرة فراى اشياء في غير مواضعها ، فسأل عن الفاعل فأجيب : « هكذا وجدناها » فقال :

« هذا غير صحيح ، تريدون ان اصدق ان عامل مطبعة قبض قبضة من حروف فرماها على الناضدة نيفما اتفق ، فاستوت منها قصيدة عامرة لا عيب فيها .. هذا لا يكون ، ان قصيدة عامرة تعني ان شاعرا قضى زمنا في غيبوبة شعورية ناضجة فتمخض عنها نظم قصيدة ، ثم ارسلها الى ناشر فأرسلها الى المطبعة فانهمك في تنضيد كلماتها عمال ساعات ، ثم طبعت ثم وزعت ..

وهذا المثل ينطبق تمام الانطباق على كل ثمرة من ثمار المعارك الظافرة ، فلا بد من اعداد سابق وتدريب طويل يسبقها تخطيط ، وقبل التخطيط اختمار فكرة النضال التي لا تكون الا بعد ظلم واضطهاد او غصب حق ..

— ◆ —

نحن اليوم في اذاعاتنا وحفلاتنا ومحاضراتنا ونوادينا وصحفنا ومجلاتنا وبياناتنا ونشراتنا وحتى في خطب وزرائنا وارتجال زعمائنا ... نحن في كل ذلك نتعم ببيان مشرق ولغة سلسلة ، وشعر جيد ، ونثر رفيع ، وحياة ادبية ، وسبل ممهدة ، ومناهج

مطروقة ... فنغتبط بكل ذلك ، وينسى اكثرنا عرق الكادحين الذين مهدوا السبل وتحملوا المشاق ، واوذوا في اموالهم وابدانهم واعراضهم لتكون للعربية حياة في بلادنا تحيا امة العرب بحياتها في جميع اقطارها، ينسى اكثرنا ذلك الا قليلا من العارفين الاقليين يقولون: « ليت الرعيل الاول من شهدائنا عاشوا في هذه الايام ليروا راية لغتهم مرفوعة ، وسيادة امتهم حقيقة ، فينعموا بثمرات ما تعبوا في غرسه » .

افلا يكون من الحق علينا ان نرجع البصر الى العصر الذي شق الطريق فنذكر بالرحمة والخير ، المجاهدين الاولين ، وما لقوا من عوائق ومشاق ، قابلوها بالايمان والصبر حتى سلمت البذرة وانطوت عليها التربة ، ورعاها الله فانبتت هذا النبات الحسن.

— ◆ —

« يوم (1) اراد الله لنهضة العرب الانبعاث قبل سبعين سنة، آمن الطليعة من جنودها ان اولى مقومات الامة لغتها ، فهي السلك الناظم لكل ما به حياتها . وحمل هذه الرسالة في الشام (2) حفنة خيرة من شبانها توزعتهم دور العلم في الاستانة وبعض عواصم الغرب ، فراوا ما للغة القومية – مهما يضؤل شانها – من تقديس ورعاية عند الامم الراقية والشعوب الناهضة ثم رجعوا البصر الى لغتهم العربية وما ادت الى الحضارة الانسانية من خدمات وما حفلت به بين اللغات من امجاد ، فراوا لغة في الاوج ورعاية في الحضيض ، وادركوا منذ يومئذ ما عليهم نحوها من واجب جسيم .

اعادوا ابصارهم فراوا بلادهم تغط في نوم عميق اسلمها اليه الحكم التركي ، الحكم الذي لم يكن فيه في عهده الاخير (عهد حزب الاتحاد والترقي العنصري المتعصب) خير للاتراك انفسهم فكيف يرجى منه خير لغيرهم ، فلما اعلنت الحرية والدستور عام 1908 م واستبشر العرب خيرا ، وتسلمت الاحزاب الحكم ، تبين ان الخطة الخفية لتلك الحرية وهذا الدستور هي تتريك العناصر بالحديد والنار ، فهبوا للعمل في اعصب الاوقات واحلكها ، فاسسوا الجمعيات في عاصمة الخلافة العثمانية على حذر من السلطان وعوز من المال وافتقار الى النصير .

لكن الايمان اذا ملأ القلب فكل عسير يهون ، فما كاد هؤلاء الاخيار من الشبان يجتمعون حتى رأيناهم يأخذون انفسهم باسرار المؤمن المنافح ، الا يتكلموا في اجتماعاتهم الا بالعربية الفصحى على قدر وسعهم، وراح كل الى بيته يختلس الوقت ليعكف على دراسة لغة حرمه الظلم والجهل تعلمها في المدارس ، ودوت هذه الخلايا في الاستانة تؤدي رسالتها السياسية والعلمية والقومية بلغة عربية ، فكانت مناقشات الاحزاب وخطب الحفلات ونشرات الجمعيات في قلب العاصمة الطورانية ، برهانا ساطعا على ما للايمان والحب المخلص من معجزات .

وخطا الزمان خطوة في امتحان هؤلاء الاخيار المؤمنين ، فكان عهد الارهاب والاحكام العرفية في الحرب العالمية الاولى ، وامتلات بهم السجون ايام جمال باشا (السفاح) ، فاهتزت بكثير منهم اعواد المشانق ، وغاب في الصحاري من نجا منهم بعنقه وشبع الدهر من صهر هذه العزائم ... فلما وضعت الحرب اوزارها ، وقام في الشام اول حكم عربي قبل خمسين سنة ، واضطلع به هؤلاء الصابرون من بقايا السيوف ، كان ما ادوا الى العربية عجبا من العجب :

شبان تعلموا باللغة التركية منذ نعومة اظفارهم ، واستمروا عليها حتى تخاطفتهم المناصب في الجيش التركي والادارة التركية (شان اكثر المسؤولين اليوم في المغرب العربي والجزائر وتونس وليبيا) ، فظلوا بحكم بيئاتهم ومناصبهم لا يتكلمون ولا يقراون غير التركية ، ثم تنتهي الحرب العالمية الاولى ويكون الاستقلال ويتسلمون الاعباء ، فهل سمعتم بدولة ولدت فغيرت اللغة السابقة المفروضة واوضاعها بجرة قلم ؟

هذا ما جرى في الشام ايام العهد العربي الفيصلي، وهو ما نتوقعه اليوم من المغرب الكبير الصابر المناضل.

لا يتسع المقام لتفصيل الخط العريض الذي اوجزت الكلام عليه ، ولكني سأسجل للتاريخ ، النقطة التي ولدت هذا الخط ، فكان منها كل الخير الذي

1) من كتابنا (حاضر اللغة العربية) .

2) يشمل (الشام) ما يطلق عليه اليوم في التقسيمات الادارية : كليكية وسوريا ولبنان وفلسطين والاردن

يغمرنا اليوم ، اسجلها كما حدثني بها ناقطها الذي نقطها ، والذي لا يجد اليوم احدا اسعد منه ، اذ امتد به العمر ، فراى بذرته الصغيرة دوحة سامقة ترتد عنها اليوم هوج الرياح منهزمة صاغرة .

اما المحدث فهو الرائد المجهول عند فتيان هذا الجيل ، الغني عن كل تعريف عند العلماء والمتتبعين من شيوخ الجيل الماضي امثال الامير شكيب ارسلان ومحمد كرد علي وعزيز علي المصري والشيخ محمد رشيد رضا وعبد العزيز الثعالبي والامام السنوسي ومحمد الخضر حسين وغيرهم ممن استأثرت بهم رحمة الله ، وعند اتباعه اهل الرعيل الاول من بلاد الشام الذين انصرف اكثرهم الى الرياسات والوزارات والنيابات منذ اربعين سنة امثال شكري القوتلي وسعد الله الجابري ولطفي الحفار وغيرهم ، وبقي اقلهم يرعى الغراس صادقا ما عاهد الله عليه ... وكل اولئك وهؤلاء معترفون للاستاذ الجليل السيد محب الدين الخطيب بمقام الريادة والفضل ، كما يقر العلماء بانه الحجة القوية الواسعة الاطلاع في كل ما خص تاريخ العرب في هذه الاعوام السبعين الاخيرة . ومجاهدونا في هذا المغرب العربي الكبير لا يمكن ان ينسوا المعركة التي دارت رحاها على رؤوس المحتلين اصحاب الظهير البربري والتي اطلقت نيرانها من جريدة محب الدين الخطيب « الفتح » فهزت العالم الاسلامي باسره ، ان جريدة « الفتح » ــ ايها القراء المؤمنون ــ سجل الجهاد الخالد تقراون فيها الصفحات البيض لنضال هذه الامة الواحدة من اقصى المشرق الى اقصى المغرب (1) ، في غوطة دمشق ومشارف الشام الى العراق الى ثورة عمر المختار الى جهاد تونس والجزائر والمغرب ، وتذكرون اياما كنا فيها جسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فبارك الله في حياته وزاده سعادة وغبطة بعزة الامة ولغتها المقدسة .

هذا هو المحدث ، فاما الحديث فقد اغتبطت به كل الاغتباط سندا ومتنا ، وانا مع اسفي على تأخر هذا اللقاء واني لم اطلع عليه في لقاءاتي السابقة الكثيرة لاودعه مكانه من كتابي (حاضر اللغة العربية) ، مع هذا انا سعيد ان احدث به الآن ؛ كان هذا اللقاء عشية الاربعاء في 21 / 3 / 1962 في مكتب الاستاذ محب الدين في المكتبة السلفية بجزيرة الروضة بالقاهرة .

— ◆ —

نزل السيد محب الدين الخطيب في استانبول سنة 1905 ايام السلطان الداهية عبد الحميد الثاني ، فوجد اكثر الطلاب العرب يتتركون غير شاعرين بعروبتهم قط ، اذ لم يشعرهم بها احد في المدارس التركية ولا في الدور ، فالعصر عصر ظلمة وجهل وغفلة ، وجدهم يتكلمون التركية ويتعلمونها ويكتبونها ، ويتباهون كلما تقدموا فيها خطوة ، ويجهلون لغتهم العربية الا بعض الجمل السوقية الرديئة نصفها مخلوط بالكلمات الاجنبية . اما تاريخ امتهم وجغرافية بلادهم وسجل حضارتهم .. فشيء لم يسمعوا به قط ؛ وجد ابن عمه السيد ذكيا الخطيب (الوطني المناضل فيما بعد) ورفاقه لا يختلف حالهم عن حال غيرهم ، ووجد اكثر العراقيين المتعلمين يتراسلون بالتركية وكأنهم لا يمتون الى العربية بصلة ، ووجد ، ووجد ... فهاله الامر وتذاكر هو والشهيد المرحوم عارف الشهابي وشكري الجندي وبقية الرعيل ، الخطر المشرقين عليه فرسموا ما يلي :

1 ــ يتقاسم محب الدين وعارف الشهابي بعض الرفاق حاثين اياهم على التكلم بالفصحى والكتابة بها ومدارستها بالتدريج : يطالبونهم اولا بالاقتصار على رفع الفاعل اينما ورد ، فاذا تدربوا التدرب الكافي افهماهم معنى المفعول به ، واضافوا الى التدريب على رفع الفاعل نصب المفعول به فقط ، ثم تدرجوا خطوة خطوة على هذا النسق العملي في احياء الفصحى بينهم .

2 ــ اكثر الطلاب العرب كانوا ينزلون في الاستانة خانات ذات غرف معدة للايجار ، واكثر ما يجتمعون في غرفة ذكي الخطيب ، واتفقوا على ان يجعلوا احدى هذه الغرف غرفة قراءة لهم ، وكتبوا الى المرحوم الاستاذ محمد كرد علي في مصر ليمدهم بما تصل اليه يده من كتب ومجلات وصحف يستغني هو عنها

1) كان احتجاب « الفتح » لضيق حال صاحبها يومئذ ولتفكير المشتركين في اداء ما عليهم ، دليلا على ان العالم الاسلامي كان يغط في نوم عميق . لقد سبق السيد محب الدين الخطيب ــ في وعيه الواسع وحدسه العميق ــ زمنه مائة سنة ، فلما بدا النائم يستيقظ استبدل الدهر برجالنا العاملين المجاهدين الواعين ، دمى والاعيب يحركها اللاعبون من وراء الحدود .

تتبادلها الطلاب العرب ، فينموا صلتهم بلغتهم وامتهم وتاريخهم . ولبى الاستاذ الرغبة فكان الطلاب يتخاطفون ما يصل منه ، ويلتهمون ما فيه . وبهذا قويت رغبتهم في تعلم العربية وتاريخها وبداوا يعرفون من اي امة هم ؟

3 ـ لاحظ السيد محب الدين ان اكثر العرب يسكنون حي (شمبرلي طاش) ولا سيما شارع (ديوان يوغلي : شارع الدواوين) حيث كثير من الادارات الرسمية ، واكتشف فيه مقهى مهملا له (روش) على الطريق واسم المقهى (روش قهوهس) قل من يدخله اذ لا اثاث فيه ولا رواء ، وهو يدل على فقر صاحبه الارنؤوطي ، فبرقت في راس السيد محب الدين فكرة: ان يشتروا لهذا المقهى كراسي ومناضد ، ويعنوا به ليكون مرتادا لابناء العرب ، وعرض الفكرة على شكري الجندي قائلا : « اذا تم ذلك استطعنا اجتذاب عدد كبير الى تعلم العربية بحمل صاحب المقهى على اذاعة اسطوانات عربية مقابل هذه المعونة » ، ثم فاوضوا صاحب المقهى وعرضوا عليه المعونة فقبل وهو لا يكاد يصدق ، واشترك الرجلان في النفقة ، وحملا الى المقهى مناضد وكراسي وبعض اثاث ، ورتبا ذلك في ذوق ، واشتريا مجموعة من الاسطوانات بالعربية الفصحى ، صارت تذاع من حاكي المقهى (الفونوغراف) من مثل اغنية الشيخ سلامة حجازي :

ان كنت في الجيش ادعى صاحب العلم
فانني في غرامي صاحب الالم

وعجب صاحب المقهى الفقير من هذه الاريحية التي لم يعرف الحافز عليها ، ولو عرف لقدس هذين المؤمنين ، فالشعب التركي تنطوي جوانحه على اقوى مشاعر التعظيم للغة القرءان الكريم .

لفتت هذه الاسطوانات انتباه المارة من العرب ، فصاروا يردون المقهى فرادى ثم كثروا ، ثم صار بعضهم يغري بعضا في ارتياده . وكان السيد محب الدين كأنه اجير في المقهى يبادر الى استقبالهم ببشاشة ويؤانسهم ويحدثهم ، ويشرح لهم ما قد يخفى عليهم من معاني الاشعار التي يغنى بها ، وينتقل الى تحديثهم عن امتهم ولغتهم ، ويعرض عليهم صحفا ومجلات وكتبا يستعيرونها ويعيدونها ؛ ووقع كثير في هذا الشرك النبيل ، فتلقوا حب العربية وتاريخ العرب من محب الدين ، ونفذوا ما كان يرسم لهم من خطط ووصايا في مدارستها ، وكان هذا هو (التكتل) الاول الذي نجح فيه المخلصون في ارساء اول حجر في نهضة الشام العربية الحاضرة .

— ◆ —

كان هؤلاء الشبان يرجعون الى بلادهم العربية في العطل الصيفية ، لا للراحة والاستجمام ، لكن ليواصلوا جهادهم في ميدان آخر ، فأسسوا جمعيات ثقافية ، وجمعوا التبرعات لانشاء غرف قراءة في احياء المدن ليقبل العامة على القراءة ويحبوها يوم كان غير الاميين في الحي يعدون على الاصابع .

ان هؤلاء المؤمنين المناضلين كانوا يعملون والاضطهاد منيخ على البلاد بكلكله ، والجواسيس والسجون والاعدام سياط مسلطة ، والحذر والخوف مالئان الافئدة . ولا تظن أن طريقهم ممهدة ، لقد كانوا يتحملون فوق ما تقدم نظرات السخرية والارتياب بعقولهم من أقرب الناس اليهم ؛ لكنها الرسالة العظيمة التي ملكت نفوسهم جعلتهم لا يبالون ما يجري عليهم ، وحسبك ان تعلم ان احدهم اذا جلس مع رفاقه في ملهى بدمشق مثلا ووقف عليهم سائل ـ وما اكثر السائلين يومئذ ـ يستجدي قال له : « استجد بالفصحى وانا اعطيك » ويعلمه جملة صحيحة معربة ، فاذا قالها باتقان اعطاه ، وطفق السائلون يدل بعضهم بعضا على هؤلاء (المجانين) ويعلمه ما يقول لهم ، ويبادر السائل يستجدي بالجملة المعربة فسرعان ما تنهال عليه (المتاليك = الفلوس) من اهل الحلقة في المقهى ، ويظن المستجدون انهم خدعوهم وما عرفوا انهم هم انفسهم الذين وقعوا في الاحبولة الخيرة ، وان اولئك الدعاة المؤمنين يقومون برسالتهم في نشر الفصحى الجامعة في كل بيئة حتى بين المستجدين .

— ◆ —

هذا رعيلنا الاول الذي اسس وتحمل ما يتحمله اصحاب الرسالات الكبرى من اذى وسخرية وحرمان واضطهاد ، أسسوا فاستطاع اتباعهم سنة 1920 حين قامت الدولة العربية في المشرق ان يعربوا كل شيء بجرة قلم كما يقولون ، زرعوا فحصدنا نحن ونعمنا بالخصب والخير العميم ، فهل سرنا على الطريق ورفعنا من بنائهم الذي شادوا ، ووسعنا الرقعة التي فيها زرعوا، وهل نحن على العهد والامانة مثلهم ماضون ؟

هذا صنيع اهل العربية في المشرق ...

دمشق : سعيد الافغاني

الشخص والحضارة المعاصرة

الكنابدائيون *

للعميد محمد عزيز الحبابي

ان وحدة الجنس البشري حقيقة علمية ، واقعية ، ثابتة ، يستحيل دحضها . انطلاقا من هذا اليقين . يقوم كل مذهب اخلاقي ، سواء اكان دينيا أم لا ــ دينيا ، وكذلك جميع المذاهب الفلسفية القويمة . فلا وجود للفروق بين الاجناس سوى في اساليب المعيشة ، مع العلم ان هذه الاساليب ليست رهن ارادة الناس ، بل تخضع دائما لظروفهم الجغرافية والتاريخية ، كما رأيناه في الحديث السابق .

كثيرا ما اثبت العلماء الصلات القائمة بين الوظائف العقلية للكائن البشري وتصرفاته من ناحية ، وبين بيئته الجغرافية من ناحية اخرى . وقد تأكدت تلك الصلات بفضل الابحاث والمناظرات المختلفة التي جرت مؤخرا بين علماء الجغرافيا والعلوم الاجتماعية [1] يشمل تداخل الآفاق (Les interhorizons) البيئة الاخلاقية ، والعقلية والثقافية ، وكذلك المحيط المادي كالتربة وادوات العمل ، والمحيط المجتمعي (الاختراعات العلمية والتقنية والصلات البشرية) . ففي البيئة تتكون الجماعات وتتفاعل متأثرة بعوامل المناخ (كالحرارة والضغط والرطوبة) وبالعوامل المادية الحيوية (كثروة الارض ، وطرق استغلالها ، وتربية المواشي ، ووسائل السكن) . هكذا ان لتداخل الآفاق تأثيرا قويا على الانسان ، جسديا ونفسانيا . وما العرق البشري ، في الواقع سوى الحصيلة الناجمة عن مجموع تلك التأثيرات المتراكمة على ممر القرون . فطول القامة ، ولون البشرة ، وابعاد الجمجمة ، وحتى السلوك الشخصي والمواهب العقلية ، هي الى حد بعيد ، رهن بطبيعة التربة والمناخ والغذاء . وبالتالي ، يسوغ لنا ان نتجرأ فنقول : ان العرق البشري هو « صدفة فيزيائية » (انظر : ابن خلدون ، **المقدمة** ، القسم الاول) .

— ◆ —

لكن ، من البديهي ، أيضا ، ان تأثير البيئة ليس مطردا موحدا مطلقا ، فلا يمكن ابدا ان نحصر العلية في التأثير الحتمي للجغرافيا الطبيعية ، بصرف النظر عن دور الفعل الانساني (الارادة المكافحة ، والعقل المبدع ، وقابلية التكيف ، والقوة على ترويض الطبيعة ...) . لا شك ان اغفال النشاط السيكولوجي والمجتمعي يعني تجاهلا للواقع الانساني ، اذ لا يمكن ، مطلقا اعتبار الانسان مجرد اجهزة بيولوجية وفيزيولوجية (اي مجرد

(×) انظر دعوة الحق ، العدد السابع ــ ربيع الثاني 1390 .

(1) انظر مثلا :
M. Sorre, **Géographie psychologique,** Traité de psycho appliquée, livre 6, Paris, P.U.F.

اختلاط المادة المنوية الذكرية بالبويضات الانثوية ، فى تفاعل مع العوامل الجغرافية) . ان الكائن البشري منظومة متكاملة تعمل بطبيعة نوعية على ان تتناسق وتتناغم الوظائف البيولوجية والانفعالات النفسانية والتكيف المجتمعي المسترسل . فلا يمكن للثقافة ولا للحضارة ان تكتسبا اى معنى او مفعول ما لم تعتمدا على المبدا التالي :

تستند الحياة على علاقة وثيقة بين تداخل الآفاق وبين النشاط الشخصي والمجتمعي .

لا جرم ان اعمال الانسان ومبادراته تشكل عنصر الحياة الاساسي ، مع العلم ان الانسان ، وان كان فاعلا ، يخضع لعوامل الكون ، وبذلك فهو مفعول الى حد ما .

اذا كان بعض الباحثين لم يرتقوا بتحليلاتهم الى مستوى المبدا المتقدم ، فذلك لانهم غالبا ما يتخبطون فى مسائل زائفة واحكام مسبقة ، او لانهم يرغبون فى تبرير الاستغلال الوقح الذي تستنزف بـه بعض الشعوب شعوبا اخرى ، وفى اضفاء المشروعية على الاتجار بمجهود المستضعفين والاسترقاقية ، اى على الوضع المجتمعي الذي خص به عمال لا يملكون الا قوة جسدية يقدمونها ، كل يوم الى السوق ، ضريبة للحياة . ويحاول ايضا اولئك الباحثون ان يبرروا الوضع الاجرامي للزنجي ، فى عالمنا المعاصر ، « مما ادى الى انبثاق ادب تصويري لوصف طبائع الزنجي المنحطة المزعومة (...) وبالتالي لبلورة الراي العام حول ذلك الادب ، فاصبح العالم يؤمن ، بصورة غريزية ، ان للزنج طبيعة بشرية منحطة ، كما لو كان ذلك حقيقة منزلة من السماء » . (2)

— ◆ —

هكذا ، قد استسلمت الحضارة المعاصرة لنشوة الدوران الناجم عن سرعة منجزاتها التقنية وعن لا ــ اخلاقية عدوانية فاجرة ، حتى اصبحت تدور فى حلقة مفرغة دونما هدف معين ــ انها فقدت حاسة الاتجاه القويم ، واختنقت من جراء غطرستها وكبريائها الى حد انها لم تتمكن بعد من ان تدرك ادراكا كافيا التناقضات المزعجة ، ولم تبحث الا نادرا عن ادراك ذاتها بوعي علها تتوفر على ضمير يلائم انظمة وبنيات العالم المعاصر وما يجتره من مشاكل معقدة .

ما ذلك ، فى راينا ، سوى نتيجة مباشرة للقيم والمعايير الجديدة التي اضحت اسس الحياة ، نتيجة لتوجيه العام الذي تسير عليه . انها حضارة معبودها الانتاج والدخل ، وقوامها الاتجار والمزاحمة ، حتى انها لم تعد تتورع عن اية مساومة : كل شيء فيها يباع ويشترى ، بما فى ذلك الحقيقة ، والشهادة ، والكلام ، وحتى الصمت ! ... واذا كانت هنالك خبرة يعيشها الانسان المعاصر ، بكل ما اوتي من ادراك (حتى فى الغرب الذي يمثل الطليعة الانسانية) ، فانما هي خبرة الوجدان المائع ، والوهن الروحي . هذا ما يصفه (ج. م. دومناك) فى قوله : « بقي الارهاب يزحف ، منذ ربع قرن ، بدون مقاتلة حتى عام 1941، ثم من عام 1941 حتى يومنا هذا ، باستثناء الضربة التي مني بها فى اسبانيا . اجل ، لقد سخر الارهاب وسائل متقدمة فى زحفه ، ومع ذلك ، ما كان لـه ان يتقدم بمثل تلك السرعة الخاطفة ، ولا ان يقطع مثل ذلك الشوط البعيد ، لو لم يؤازره ، ضمنيا فى زحفه، اشخاص كثيرون من رجال الفكر والدين ... » (3)

— ◆ —

لم يعد الفيزيائيون يعتبرون الكهرباء ، والنور ، والحرارة وغيرها من ظاهرات الطبيعة بمثابة « قوى »، بل بمثابة كيفيات تسم الظواهر الطبيعية ، وتدل على علاقات بعضها ببعض . واذا اردنا تحديد الثقافة القومية لشعب ما ، ساغ لنا كذلك ان نقول ان هي الا كيفيات سلوك الافراد الذين يتألف منهم ذلك الشعب. وبتعبير آخر : ان **ثقافة** شعب من الشعوب **هي الاساليب التي يعبر بها عن شخصيته ، والطرق الخاصة التي يتسم بها تصرفه ازاء الظاهرات الانسانية والروحية والطبيعية** . وايضا ، الثقافة هي : **الوسائل التي يلجا اليها لتحديد مختلف الصلات بين الفرد والجماعة ، على أساس القواعد المستنبطة من الخبراء، والمكتسبة من التاريخ ، والتي يفرضها عليه العامل الجغرافي .**

وعليه ، ان البحث العلمي فى الحضارة يرجع الى اتباع منهج ذي مرحلتين :

2) Cheikh Anta Diop, **Nation nègre et culture,** p. 32.

3) J.-M. Domenach, **Esprit,** n° 1, 1953, p. 16.

اولا : النظر في كل ثقافة قومية من حيث هي مجموعة ظواهر وظاهرات مستقلة ، بعض الشيء ، استقلالا ذاتيا بالنسبة للثقافات القومية الاخرى .

ثانيا : وضع هذه الثقافة الخاصة ضمن نطاق الثقافات المختلفة لملاحظة ما ينشا عن ذلك التقارب من انفعالات متواترة ونشاط تكاملي .

بيد ان هذه الطريقة ليست هي المتبعة عادة . فالذين يبرزون التضاد القائم بين « المتحضر » و « البدائي » يلجاون ، حتى يومنا هذا ، الى مقاييس غريبة مستهجنة، يقتبسونها من ذهنية بعض الغربيين، حسب منطق معين تمتزج فيه العقلانية الآلية الجامدة بالاحكام المسبقة المتشعبة الاصول .

ومن الغريب انه ، حتى بعد صدور « **مذكرات** » (ليفي بريل) عقب وفاته ، تلك المذكرات التي عدل فيها عن لفظة « Prélogique » لكونها لا تنطبق على الواقع 4) ، هنالك من بقي متمسكا بها ، على ما فيها من غلط ومغالطة ، واذا بجميع احكام القوم وآرائهم في التمييز بين الاجناس البشرية ، وابحاثهم الاجتماعية والسكلوجية تتاثر بتلك الفكرة الخاطئة وتعتمد عليها، ذلك اننا نعيش في عصر تعس ، كما قال (آينشتاين) « اصبح فيه تحطيم الاحكام المسبقة اعسر من تحطيم الذرة ! » .

لم يفهم اولئك الباحثون ، حتى الان ، (أو لم يريدوا ان يفهموا) ان المنطق ، بنوع عام ، ليس سوى مظهر من مظاهر الحياة الفكرية ، وان الحياة الفكرية لا تنحصر تماما في قوانين العقل . وهذا الوضع يرجع الى سببين :

الاول : يرجع الى مركب التفوق لدى بعض الغربيين ، بحكم الغرور المكتسب من ماجريات عصر التصنيع والتقنيات .

والثاني : ايمانهم الاعمى في صلاحية ادواتهم الفكرية التي تسقط من اعتبارها بعض المظاهر العقلية والسيكولوجية ، لكونها تخرج على الاطارات الضيقة والاساليب المطروقة في المنطق العادي . هكذا يضحي الغربيون بجانب غني وعميق من الحياة النفسانية والعقلية ، رغم انه يوجه ويسير الخبرة الانسانية ، تعني الواقع العاطفي الذي يقضي ، بحكم طبعه ، كل اعتبار منطقي .

— ◆ —

لقد افترضنا ، تسهيلا لعرض الموضوع ، ان الفكر الغربي منطقي ، في حين ان فكر الذين ليسوا غربيين مخالف للمنطق . غير ان هذا الافتراض لا يستند على معطيات الواقع : اذ ان التناقض والخلق المنطقي لا ينحصران في جانب دون الآخر ، وليسا وقفا على اي فكر او اي جنس .

فبعد ان اوردنا ، في الحديث السابق ، وجهة نظر (ليفي بريل) و (موريس لينهارت) حول الموضوع الذي نعالجه ، لا بد ان نتوقف هنا ، من جديد ، للاشارة الى بعض الوقائع المتعلقة بالعقلية الغربية ، وهي وقائع كلها خاصة بعوائد تخالف ابسط قواعد التفكير السليم . انها كافية لتقنعنا (ان كنا لا زلنا في حاجة الى اقناع) بوجود تصرفات تبتني على الخرافات والايمان بمفعول السحر والسحرة، مما لا نكاد نصدقه. فاذا ما قارن باحث تصرفات المجتمعات التي يقال عادة عنها انها « بدائية » بذهنية وسلوك كثير من الغربيين، تبين له سخافة النظرية العنصرية وغباوتها .

يلاحظ في اوربا ، حتى **يومنا هذا** ، سواء في القرى ام في المدن وعلى اختلاف المستويات المجتمعية، ان للسحر والعرافة (وهذا يذكرنا بالشوافة في المغرب، اي البصارة في المشرق) جانبا كبيرا من القوة والنفوذ، ولا يضاهي هذا التاثير العرافي سوى اعتقاد مئات الالوف من الغربيين بالرءوى والعجائب ، والتنجيم ، الى غير ذلك من الخرافات المتنوعة،علاوة على السحر، والتنجيم ، والايمان باستحضار الشياطين ومحاورتهم، والاعتماد على تنبآت المتنبئين وعلى اصحاب التنويم المغناطيسي (الذي يلعبون نفس الدور الذي يقوم به الكاهن « فودو » في البيئات « المتخلفة ») .

ويجدر بنا ان نشير ، كذلك ، الى انواع من التعبد والطقوس ، الغريبة والبشعة في وقت واحد : مثل الصلات المثلثة الزوايا (La messe triangulaire) المعروفة عند سكان اقاليم وسط فرنسا ، والصلاة السوداء التي يصح مقارنتها بعبادة (فودو Vaudou

4) كلمة كان يصف بها (ليفي بريل) الذهنية « البدائية » ، في مرحلة « ما ــ قبل ــ المنطق » او مرحلة « غير ــ منطق » ولقد رجع عن هذه النظرية واعترف بانها مغلوطة (انظر : الحديث المتقدم) .

عند « البدائيين » . وكم تاخدنا الدهشة عندما نتصفح كتابا صدر اخيرا عن السحر وعواقبه الوخيمة فى اقليم (بيري) . يعيش الفلاح هنالك بخوف من الوثنية ومن السلطة الشريرة التي يمتلكها الساحر ؛ وهو يعتقد ان لهذا الاخير معاهدة مع ابليس تخوله قدرة على تسيير الريح والمطر والصاعقة ؛ وان باستطاعته اتلاف الشجر وقتل الناس (5) .

واذا قارنا كتاب السيدة (بوتيي) بكتاب آخر يتناول السحر فى جزيرة (هايتي) ، ظهر لنا تشابه واضح ، تمام الوضوح ، بين العوائد والسلوك والعقائد التي ينادي بها اتباع السحر والعرافة ، سواء اكانوا من الاوربيين ام من السود ، مما يدل على ان « البدائية » و « الخرافات » ليس لهما حدود اقليمية او عرقية ، ولا ارتباط معين بلون البشرة .

ونصل الى النتيجة نفسها اذا قابلنا كتاب السيد (دويسم) (6) والدراسة التي قام بها السيد (لوبرو) حول عبادة القديسين فى مقاطعة (شارنط) بفرنسا ، حيث القديسيون ، تماما كآلهة الاقدمين وكالاولياء فى المغرب وفى افريقيا السوداء ، متخصصون ، كل واحد بجانب معين فى خوارق العادات : فهذا يشفي من الوجع ، وذاك يقلب عقم المراة الى خصب ، وثالث يعطي الحصانة ضد النار او ضد الافلاس ... (7)

الى جانب المراجع التي اشرنا اليها ، هنالك عدد لا يحصى من المؤلفات عن « البدائية » ، او بالاحرى « اللامنطقية » ، التي نجدها فى العقلية الاوربية المعاصرة وفى العقلية الامريكية (امريكا الشمالية ، ربة ابولو وصاحبة كاب كينيدي) . سنكتفي بأن ناتي ببعض العناوين : « البقايا الوثنية فى العقائد المسيحية » للكاتب (كيغال) (8) و «المؤسسات السرية فى باريز » من وضع (جيرو) (9) وهو كتاب عام ومهم ، برهن فيه المؤلف على وجود كثير من الافكار « البدائية » المظلمة تترعرع فى احضان «عاصمة النور » ، باريز تذكرنا بعض صفحات هذا الكتاب « بالفقيرية » ، فى البلدان الاسلامية وخصوصا بالهند، اما كتاب « عاصمة الصلاة » فنقل فيه (ريني شقولز) مسائل غاية فى الغرابة عن مساء الورد (Lourdes) وعن الحجاج الواردين الى تلك العاصمة الفرنسية الدينية ، من مختلف الشعوب المسيحية ، علهم « يتبركون » بالماء وبأحجار الكهف المقدس ليعالجوا الشلل وغيره من الامراض المعضلة .

ويجدر بالقارىء ، اخيرا ، ان يتصفح مقالات (اوليفيي لوروا) فى مجلة « الحياة الروحية » (عدد مارس 37 وعدد ابريل 1938) حيث وصف المؤلف بعض التصرفات الغريبة عند احدى المنظمات الدينية الايطالية تعتقد ، مثلا امكانية لتكثير الاملاك بواسطة الاذكار ، مما يذكرنا « بالبركة » عند المسلمين) (11).

صدرت مؤخرا دراسات كثيرة عن هذه المواضيع تتضمن معلومات جمة ودقيقة ، نخص بالذكر منها : « مشاهير المنومين المغناطيسيين » لـ (امادو) (12) ، و « السحر وطقوسه وتاريخه » لـ (بوميسون (13)، و « الاشباح والمنازل المسكونة » ، تاليف (دي نوبورج) (14) .

فى هذا النصف الثاني من القرن العشرين الشامخ ، ما زال عدد كبير من مواطني (روني ديكارت يفضلون ان يتخلوا عن الطب الشرعي العلمي ليستشيروا « الشافين » (Les guérisseurs) و العرافين ، وان يؤثروا الاستشفاء بواسطة النذر والحج الى الاماكن المقدسة على العلاج الطبي التجريبي « المنطقي » .

5) M. Bouteiller, **Sorciers et jeteurs de sort,** Paris, Plon, 1958.
6) C.-H. Dewisme, **Les zombis ou le secret des morts vivants,** Paris, Grasset.
7) M. Leprouse, **Dévotion et saints guérisseurs,** Paris, P.U.F., 1957.
8) A. Weigall, **Survivanves païennes dans le christianisme,** trad. fr., Paris, Payot.
9) P. Geyraud, **Sociétés secrètes de Paris,** Paris, Emil Paul.
10) N. René Schwols, **Capitale de la prière,** Paris, Desclée.
11) Olivier Leroy, **La vie spirituelle.**
12) R. Amadou, **Grands Médiums,** Paris, Denoël.
13) M. Bouisson, **La magie, ses grands rites, son histoire,** Paris, Les Nouvelles Ed. Debrisse.
14) C. de Neubourg, **Fantômes et maisons hantées,** Paris, Grasset.

لقد جاء في مؤلف عن «**معرفة الغيب أمــام العلــم**» (ص : 55) لعضو من اعضاء اكاديمية العلوم بفرنســا هو (مارسل بول) ، (15) ان للرائين والعرافين ، في باريس وحدها ، 3480 مكتبا للعيــادة ، درت على اصحابها سنة 1930 مبلغ 73 مليون فرنكا من الارباح، على ما ورد في السجلات الرسمية لدائرة الضرائب !! اي ان هذا الدخل السنوي لا يحتوي على الارباح التي لم يستطع العرافون والراؤون كتمانها ، لانهم يمارسون « مهنتهم » علانية . وبطريقة شبه رسمية .

— ◆ —

يسوغ لنا ان نتساءل عن سبب نجاح الهتليرية : الا يرجع ، في معظمه ، الى الانسياق لبعض القــوى الغامضة التي لم يتوصل تحكم العقل الى استئصالها ؟ لقد كانت « النازية » ، على ما تتضمنه من عنصريــة عمياء ، وكبرياء متعالية ، وضراوة وحشية ، تتجاوب مع حماس غريزي يخالف المنطق .

— ◆ —

يكفي الرجوع ، الى الدراسات والابحاث الخاصة التي افردها علماء الاجتماع والاجنــاس البشريــة لبلدانهم ، في امريكا واوربا ، لنتيقن من ان الثقافات الغربية ، قديمها وحديثها ، منبثقة جميعها من اصول « لا ــ منطقية » تستمد منها الحياة والنشاط (من غير ان يقلل ذلك من قيمة تلك الثقافات او يسيء الى سمعتها) . وبسبب ذلك ان الانسان ، قبل ان يكــون « حيوانا عاقلا » او « قصبة مفكرة » يمكن تحديــده بثلاثة ابعاد : انه كائن ذو جهاز مجسد وجهاز مجتمعي، وجهاز معنوي ، اي ان له ثلاث مركبات : احتياجات ، ورغبات ، ومطامح .

ينطبق هذا التحديد على جميع الكائنات البشرية، فلا يجوز ، ابدا ، وصف الانسان بـ « البدائــي » ، كما لو كان بقية من بقايا العصور الغابرة التي سبقــت التاريخ واصبحت اليوم نسيا منسيا . ان «البدائي» موجود بين جميع الاجيال وفي جميع الاقطــار ، في اوربا ، في امريكا ، في روسيا ، وفي كل مكان . انه في باطننا ، في باطن كل منا ، اذ « **البدائية** » **بنيــة** **اساسية للعقل البشري ، في جميع تطوراته التاريخية،** كما بين ذلك (ليفي بريل) في مذكراته . و « البدائي » موجودة في الطفل عندما يلفق ويخترع اساطيــره الخاصة ، كما يقول (كوفيليي) ، وهو موجــود في المجنون عندما يهذي ، كما انه موجود في البالغ السليم العقل عندما يحلم ، وعندما يصوغ الشعر ، وعندمــا يهرب من الواقع الى عالم الخيال او الى الزمن » الذي كانت فيه الحيوانات تنطق » (16) . كلنــا نعرف ان للاشباح والساحرات دورها ما في مسرحيات وليام شكسبير ، وفي الآداب الانجليزية ، بصفة عامــة ، امثلة كثيرة جدا تظهر تفاعل العوامل الطبيعية مــع الخوارق للعادة .

لقد اظهر (جورج سوريل) الى اي مدى تعيش المجتمعات الاوربية العصرية من الاساطير ، فهــي تنقاد ، لا الى الافكار ، بل الى تصورات خالية لا ــ منطقية لها صلة بالاوضاع الملموسة المجتمعية التــي تحياها الجماهير ، وتتجاوب مع رغبات تلك الجماهير ومع مكنون وجدانها . قد استوحى (موسولينــي) اتجاهه الفاشيستي من نظريات (سوريل) وجعــل الفاشيستية ، تلك « الاسطورة الحية » التي تكتنز ما يكفي من الجدة والجاذبية للتجاوب مــع الحقيقــة الباطنية ، لدى الشعب الايطالي ، فيما بين الحربين العالميتين ، فجعلها تعارض البروليتاريا الاشتراكية ، تلك الاسطورة البالية ، التي اخذ شأنها يتضاءل ، » ، كما كان يدعي (موسيليني) .

— ◆ —

امام هذه المعطيات التي تقوم كلها على اللامنطق وعلى اغمض الغرائز البشرية ، أفليس من الغرابــة المدهشة ان نسمع اصحاب النظرية العنصرية يقسمون الناس ما بين اصحاب « عقلية متفوقة » قابلة للتحضر، وبين شعوب « قاصرة » عن فهم الحياة العصريــة ومجاراة سيرها ؟ .

الا يتصرف تصرفا « بدائيا » كل من يتــوط احتراما خاصا ، شبه ديني ، بمجرد رموز (كالعلم ، والنشيد القومي ، والتماثيل ...) متخــذا منهــا « تابوات » مقدسة ؟ .

15) Marcel Boll, **L'occultisme devant la science,** Paris, P.U.F.

16) A. Cuvillier, **Partis pris,** p. 205, Paris, A. Colin.

وما هو الميدان الحضاري في هذا القرن العشرين الذي لا يتصرف فيه الانسان تصرفا بدائيا بوجه من الوجوه ؟ ان كل البيئات اليوم ، مهما كان شأنها الثقافي ومستواها الحضري ، تتعاطى عادة ارتهان الاساري الشنيعة (L'otage) . وعلى منوال البدائيين ايضا ، تلجا الامم الراقية الى تضحية « كبش الفداء »: احرق النازيون الآلاف من الاحياء ، بدافع العنصرية (معاداة الساميين) او بدوافع الانتقام ، كما وقع في (اوراد و سور غلان (Oradour-sur-Glane) وشنقوا العشرات بـ (تيل (Tulle) ، فدية لضابط الماني اغتاله المقاومون الفرنسيون . ان جيوش الاستعمار الفرنسية والانجليزية ، وغيرها من جيوش الامم الراقية المتمدنة المدنة ، قد سجلت اعمالا شنيعة في تاريخ القرن العشرين ، واقربها بالذكر حركات التقتيل والاحراق التي قام بها ، بالجزائر ، رجال المظلات الفرنسيون ... وقد سجل التاريخ كذلك احداثا اجرامية على اليابان ، واخرى على السوفياتيين بالمجر وبالاتحاد السوفياتي ذاته ، ايام الستالينية السفاكة ؟ ولا ننسى الولايات المتحدة ، الامة التي ضربت الرقم القياسي في الرقي ، وما تفعله بالهند الصيني ، ومواقفها من الامريكيين السود انفسهم ...

كل هذه الوقائع اوردناها ، على سبيل المثال ، من بين وقائع كثيرة اخرى يعرفها القرن العشرون . ان العقلية الغربية تتأرجح بين المتناقضات ، وترتكز على اساطير متضادة . (17) من ثمة ، لا يجوز للغرب ان يدعي انه يسير طبقا للمنطق الصرف . ان للغرب مواطن عظمة ، ومواطن ضعف ، كسواه من العقليات غير الاوربية .

— ◆ —

فهل الغربي كائن منطقي ؟

نعم . غير انه لا يفوق بالمنطق من ليس بغربي . المنطق ليس وقفا على احد .

قد اعتمد علماء غربيون على التحليل النفساني، فاكتشفوا في اعماق الوجدان الانساني ، جيشا عرمرما من الغرائز البدائية ، كما اكتشفوا وراء العقل عالما كاملا من اللامنطق ، بل ومن العبث . ولقد صدق (كوفيليي) عندما قال : « ان فينا غرائز بدائية ، وصبيانية ، وحتى مرضية » ، (المصدر المذكور 213) . ان المنطق لا يوجد ابدا صافيا محضا . فمن خاصيات الفكر ان يركب نشاطه من المعقول واللامعقول ، من الموضوعية والذاتية .

— ◆ —

هذه كلها معطيات علمية ثابتة ، ولكن، بين الواقع كما هو والواقع كما نتصوره ، هو عميقة . فكثيرا ما يتغافل البعض عن الجوهر ليتمسكوا بالتافه ، ذلك ان شجرة واحدة تكفي لتحجب غابة بكاملها عن نظر من لا يريد ان يرى ابعد من الشجرة .

الجزائر : د. محمد عزيز الحبابي

---

17) انظر : R. Kanter, **Essai sur l'avenir de la religion,** Paris, Julliard
P.-L. Landsberg et J. Lacroix, **Dialogue sur le mythe,** Paris, Le Seuil
P.-L. Landsberg, **Problèmes du personnalisme,** Paris, Le Seuil.



للأستاذ عبد الله العمراني

دعت الجمعية الاسبانية للمستشرقين A.E.O. التي تضم اعضاء من مختلف انحاء (1) العالم ، لعقد مؤتمر بمدينة غرناطة دام من فاتح اكتوبر 1970 الى الرابع منه . وقد تميزت هذه الايام الاربعة ببرنامج حافل ومنوع اشتمل على حفلات تعارف واستقبال ومآدب تكريمية وزيارات للمعالم الاثرية ، كما شمل جلسات عمل جاد في سبيل تنظيم حياة الاستشراق الاسباني وتزويده بما يبعث فيه قوة جديدة تدفعه الى الامام على الدوام .

اشترك في المؤتمر علماء من مختلف جهات الدنيا فمن حضر منهم شخصيا شارك في تبادل وجهات النظر بالمناقشة او تقديم العروض ، ومن لم يحضر منهم اعتذر للمؤتمرين او قدم دراسة او بحثا مما جعل الجمعية تتوفر على دراسات وابحاث بلغ عددها مائة وخمسين بحثا ستعمل الجمعية على نشرها في القريب العاجل .

وتمخضت جلسات المؤتمر عن توصيات واقتراحات اهمها :

1 ــ اقتراح تقدم به احد الاعضاء ينص على المطالبة بانشاء هيئة فنية للمستعربين الاسبان تكون في مستوى جامعي وتعترف بها الدولة وتحوطها برعايتها التامة :

2 ــ اقتراح دعا الى تأسيس مدرسة للغات الشرقية بحيث يمكن ان تبدأ بشكل متواضع منذ الان وذلك باعطاء دروس يقوم بالقائها اساتذة تستقدمهم سفارات الهند والصين واليابان وغيرها من السفارات الشرقية المعتمدة بمدريد ، وستعمل هذه المدرسة على تزويد الجامعات الاسبانية والوزارات وخاصة وزارة الشؤون الخارجية بمختصين في هذه اللغات .

3 ــ تكريم سكرتير الجمعية الاسبانية للمستشرقين الاب Félix M. Pareja بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره ، وذلك مكافأة له على خدماته في ميدان الاستشراق عموما وفي نطاق الجمعية الاسبانية للمستشرقين خصوصا وتجلى ذلك التكريم فيما يلي :

أ ــ منحته السلطة وسام الفونس العاشر المعروف بالعالم El Sabio وذلك من درجة كومندادور .

ب ــ صوت المؤتمر بالاجماع على بقائه مدى الحياة سكرتيرا للجمعية الاسبانية للمستشرقين .

جـ ــ قام عدد من تلامذته واصدقائه باهدائه مجلة Oriente Europeo .

د ــ استصدار كتاب يوجه اليه ويشمل على دراسات وبحوث يشترك في اعدادها نخبة من اساتذة الجامعات باسبانيا والعالم .

هذا وقد تحدثت الصحف الاسبانية عموما والغرناطية خصوصا عن اشغال المؤتمر ، وغطت اخباره طيلة الايام الاربعة ، وليس في متناول يدي كل الصحف التي كتبت عنه ، ولكن امامي الان عددا الاحد رابع اكتوبر 1970 من جريدتي Ideal و Patria وكلتا هما غرناطية وتتحدث عن الجلسة الاخيرة الختامية التي عقدت ببناية Casa del Chapiz

(1) من بينهم المستشرق الانكليزي المعروف Nevill Barbour الذي ادعى احد المغاربة جهلا وتعنتا انه ليس مستشرقا ، مع ان الاوساط الادبية في العالم تعرفه وتدعوه بالمستشرق ؛ ثم ها هي ذي كتبه وابحاثه تنبيء بذلك ، وليس الخبر كالعيان.

ذات الحدائق الفيحاء والمنظر الخلاب والمواجهة لقصور الحمراء الشهيرة ؛ وهي مقر مدرسة للدراسات العربية بمدينة غرناطة ، تلك المدرسة التي يديرها المستشرق الاسباني الذائع الصيت البروفيسور ضون لويس سيكو دي لوثينا ، والتي كان لها الاثر الفعال في تخريج عدد ضخم من المستعربين الفنيين الاسبان يساوي – حسب جريدة Patria – نصف العدد الذي تتوفر عليه اسبانيا جمعاء . فهذه المدرسة الغرناطية هي المسئولة – على حد تعبير الكاتبة Mary Carmen Riaza – عن تضخم عدد المستعربين الاسبان ، وهي التي تعدهم الاعداد اللائق بمهمة البحث والتنقيب والانتاج الادبي في ميدان الاستعراب .

وكان للمؤتمر ايضا صداه البعيد في بعض الاوساط الادبية خارج اسبانيا ، فقد كتبت الاديبة Dora Bacaicoa مديرة المكتبة الاسبانية بتطوان في جريدة España الصادرة بطنجة عدد الخميس 22 اكتوبر 1970 مقالا فيما تحدثت فيه عن الاهمية المتزايدة للغة العربية في مجال التفاهم الدولي سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، مشيرة الى دورها التاريخي وكفاءتها واستيعابها لمختلف المعارف الانسانية والى كونها لغة العالم العربي المترامي الاطراف ، ولغة القرءان والدين الذي يعتنقه العالم الاسلامي الممتد من المغرب على المحيط الاطلسي غربا الى اندونيسيا على المحيط الهادىء شرقا

وبعد ذلك اشارت الكاتبة الى ان ثراء اللغة العربية وغناها من حيث المفردات ، وصعوبة النطق الصحيح ، والمورفولوجيا المعقدة (علم الصرف) وعلم النحو العربي ، كل ذلك يتطلب من الدارس تفرغا تاما وعناية كاملة اذا اراد التخصص في العربية والتمكن منها . ثم نوهت بالعلائق التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تربط اسبانيا حاليا بمختلف دول العالم العربي مشرقه ومغربه .

وتختم الاديبة مقالها قائلة : من اجل هذا كله صوت مؤتمر الجمعية الاسبانية للمستشرقين من اجل انشاء هيئة فنية للمستعربين الاسبان .

ونحن العرب نحيي هذه البادرة من المؤتمر ، التي تنم – ولا ريب – عن فعالية التفاهم والتعاون السائد بين الشعب الاسباني وشعوب العالمين العربي والاسلامي في مختلف الميادين ؛ وخاصة ميدان البحث والتنويه بتراث العروبة والاسلام ونشره على العموم بروح علمية بناءة خالية من كل ما تشتم منه رائحة الغرض او التحامل او تشويه الحقائق . فتلك الروح هي الجديرة بايصالنا الى المثل العليا التي طالما تاقت لها الانسانية واعني بها فضائل العدل والسلام والخير والحق والجمال .

واود ان اشير هنا الى نقطتين هامتين :

1 – ان الجمعية الاسبانية للمستشرقين بسعيها الحثيث لتقوية حركة الاستعراب وتعزيز جانبه في اسبانيا ، انما سعت من أجل اعداد العدة لزيادة التعمق في دراسة لغة تعد من اعرق اللغات السامية ان لم تكن اعرقها على الاطلاق ، ذلك ان راي علماء اللغة المحدثين وفيهم مستشرقون كبار يرون – خلافا لما كان شائعا من قبل – ان الموطن الاول للشعب السامي هو شبه جزيرة العرب ، وان اللغة العربية هي اقرب اخواتها السامية شبها باللغة السامية الام ان لم تكن هي اللغة السامية الام اعتورتها بعض التعديلات التي اقتضاها تطاول الزمن وسنة التطوير ، كما اقتضتها موجات الهجرة من بلاد العرب واليها ، وما تبع ذلك من احتكاك بين الشعب العربي وغيره ، ومن صراع لغوي تتاثر فيه حتى اللغة المنتصرة .

اذن ، فليست العبرية اقدم اللغات السامية كما ادعى ذلك احبار اليهود من قبل ؛ وليست الكلمات المتشابهة في العربية والعبرية مثلا مفردات اقتبسها العرب من العبرانيين كما يحلو لبعضهم ان يدعي ، وانما هي في الغالب كلمات عربية اصيلة ، وربما كان مصدر التشابه ان كلتا الاختين استمدت من اللغة السامية الام . ونضرب لذلك مثلا كلمة « شعر » التي يزعم البعض انها ماخوذة من كلمة شير العبرية ، ناسيا او متناسيا ان مادة شعر موجودة في المعجم العربي وهي وثيقة الصلة بالشعر والشاعر لان هذا كان دائما ادق الناس احساسا واكثرهم شعورا مما جعل عشيرته او قبيلته تحتفل بنبوغه وتعتمد عليه في السراء والضراء . ويرى بعض المطلعين ان العبريين هم الذين اقتبسوا من الشعر العربي فاخذوا بعض اوزانه وادخلوها في شعرهم الذي لم يكن موزونا من قبل .

ولعل هذا التاريخ الطويل والعمر المديد للغة العربية هو الذي اغناها مفردات وقواعد خيل معها لغير العرب وحتى للعرب غير المتمكنين من لغتهم انها مستعصية على التعليم والفهم الصحيح ، بينما الواقع ان بعض اللغات المعروفة بالهندية – الاوربية ، وبعض لغات الشرق الاقصى اكثر تشعبا وصعوبة . ومهما يكن من امر فان الارادة القوية والتفرغ وتحسين طريقة

التعليم كل ذلك كفيل بتذليل المصاعب والعقبات ؛ وهو فيما اعتقد متوافر له ؛ بعض دوائر الاستشراق في دول الغرب بدليل اننا بين الفينة والفينة نسمع او نشاهد مستعمرين ينطقون العربية بكيفية سليمة جدا.

2 — ان ثراء العربية الواسع وتاريخها الطويل لم يحولا دون احتفاظها بقوتها وفعاليتها حتى في احلك فترات تاريخها . ولا شك ان للقرءان الكريم اثرا عظيما في بقائها وخلودها الذي تحوطه العناية الربانية : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وفي الوقت الحاضر نجد اللغة العربية تحتل مكانا مرموقا بين اللغات الحية في العالم ، فهي رسمية في عدد من المنظمات الدولية : في هيئة الامم المتحدة ومنظمة اليونيسكو التابعة لها وذلك الى جانب اللغات الصينية والانجليزية والاسبانية والفرنسية والروسية؛ وهي رسمية كذلك في منظمة الوحدة الافريقية الى جانب الانكليزية ، والفرنسية ثم انها اللغة الرسمية الوحيدة في منظمة جامعة الدول العربية .

ان اتخاذ العربية لغة رسمية في هذه المنظمات الدولية دليل على ما تتمتع به من حيوية ونفوذ وانتشار ، وتجدر الاشارة هنا الى ان اللغة العربية اكثر انتشارا من كثير من اللغات الاوربية ، وتفوقها من حيث عدد المتكلمين بها . وفيما يلي جدول ماخوذ من مصدر موثوق به هو Anuario Mundial لعام 1961 :

اسم اللغة	مواطنها	عدد المتكلمين بها
ماندرين	اللغة الوطنية للصين وتسود شمال البلاد خاصة	444 مليون
الانكليزية	الجزر البريطانية وجمهورية ايرلندة والولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندة وغيرها	278 مليون
الاسبانية	اسبانيا وامريكا اللاتينية عدا البرازيل ثم المستعمرات الاسبانية	160 مليون
الروسية	معظم جمهوريات الاتحاد السوفييتي	156 مليون
هيندو	الهند وباكستان	149 مليون
الالمانية	المانيا والاراضي المجاورة لها ثم النمسا وسويسرة	120 مليون
اليابانية	اليابان وكوريا ومنشوريا	95 مليونا
البنغالية	الهند وباكستان	79 مليونا
العربية	بلدان المغرب العربي وموريطانيا وبلدان المشرق العربي	76 مليونا
البرتغالية	البرازيل والبرتغال ومستعمراتها	75 مليونا
الفرنسية	فرنسا وبلجيكا وسويسرة ومقاطعة كويبك بكندا والمستعمرات الفرنسية	70 مليونا
ملايو	ملايو واندونيسيا	69 مليونا
الايطالية	ايطاليا ومستعمراتها السابقة	57 مليونا
الأوردية (1)	باكستان والهند	51 مليونا
الكانتونية	كثير من جهات الصين	43 مليونا
الجاوية	جزيرة جاوة باندونيسيا	42 مليونا
الأوكرانية	جمهورية اوكرانيا السوفييتية	40 مليونا
الوو Wu	جزر من الصين	39 مليونا
المين Min	جزر من الصين	36 مليونا
التامول Tamul	الهند وسيلان	35 مليونا
الكورية	كوريا	33 مليونا
البولونية	بولونيا	33 مليونا
الماراتا Marata	الهند وباكستان	32 مليونا

(1) الأردية Urdu هي في الحقيقة نفس اللغة هيندو Hindú مع فرق هو اختلافهما في الكتابة ، اذ ان الاوردية تستعمل الحروف العربية في كتابتها .

هذا وان حركة الاستعراب ليست جديدة على اسبانيا وهي البلد الذي احتضن منذ اوائل القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) مدرسة طليطلة للمترجمين التي قامت بأول ترجمة للقرءان ، وادت دورا مهما في نقل التراث العربي والفلسفة الاغريقية الى العالم الغربي ، فاسهمت بذلك في التعريف والحفاظ على ذخائر العقل البشري على العموم.

وتتوفر اسبانيا الان على مدرستين للدراسات العربية ، احداهما بمدريد والاخرى بغرناطة ؛ والى وقت غير بعيد كانت توجد بتطوان مدرسة للدروس العربية تخرج منها عدد لا يستهان به من المترجمين الاكفاء.

واذا كان لنا من امل نزجيه ازاء النشاط الجديد لحركة الاستعراب لدى الشعب الاسباني الصديق ، فلعل ذلك يتمثل في رغبتنا المخلصة في ان تستعيد اسبانيا دورها الطبيعي ومكانتها القيادية في هذا المجال . واني على يقين من ان حركة الاستعراب الجديدة لن تقع فيما وقعت فيه مدرسة طليطلة من اخطاء في الترجمة الى اللاتينية ، نتجت عن سوء فهم للنصوص العربية ، وادت الى غموض المعاني واضطرابها لدى طلاب الفلسفة حينئذ .

تطوان : عبد الله العمراني





المدينة العربية في العصور الوسطى

للدكتور نقولا زيادة

(1)

كانت المدن الاولى التي عمرها العرب او مصروها، قواعد عسكرية اقتضتها ظروف الحروب والفتوح التي قاموا بها خلال القرن الاول للهجرة . فالبصرة والكوفة مصرتا بامر عمر بن الخطاب لتكونا قاعدتين للجيوش التي كانت تتجه شرقا وشمالا في شرق ايران والعراق. وقد انشئت القيروان في تونس لتكون منطلقا للمقاتلة الموجهين نحو شمال افريقية . واتخذ عمرو بن العاص من الفسطاط بمصر مركزا الجيوش هناك . كما ان الحجاج اتخذ من واسط ، في اواسط العراق ، مركزا للجيوش الشامية التي عهد اليها بالمحافظة على الامن والنظام في تلك الديار . وحري بالذكر ان امورا معينة روعيت في اختيار هذه المدن العسكرية . فالبصرة والكوفة كانتا على اطراف الصحراء بحيث تكونان نقطتي اندفاع نحو البلاد المفتوحة . والفسطاط وواسط كانتا تتوسطان المنطقة التي كان على كل ان تعنى بها . والقيروان روعي في انشائها ان تكون على الطريق العام الموصل من الشرق الى الغرب . الا ان تأسيس القيروان نظر فيه الى امر آخر . ذلك ان الجيوش المقاتلة كانت ، في سيرها في شمال افريقية، تعتمد الطريق البري ، وتتجنب الشاطىء لان اسطول البزنطيين كان لا يزال قويا ، ولم يكن للعرب اسطول . فاختير موقع القيروان بعيدا عن سفن العدو . لكن لما اصبح للعرب اسطول ، في ايام الامويين ، اضيفت مراكز اخرى للتجمعات العسكرية مثل طرابلس (ليبيا) وتونس نفسها ووهران .

على انه جدير بالذكر ان هذه المدن التي ذكرنا لم تلبث ان اصبحت مراكز تجارة وعلم وحضارة حتى في القرن الاول الهجري . وهذه البصرة والكوفة تتزعمان الحركة النحوية بحيث اننا لا نزال الى اليوم نتحدث عن مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة كلما عرضنا الى قضية لغوية .

ونحن اذا تذكرنا الفترة الطويلة التي كان فيها للعرب حضارة وعلم وفن وادب ومدارس يرتشف منها الظامىء ، ادركنا ان عدد المدن التي عمروها ، بعد ان هجرها اهلها ، او مصروها من جديد كان كبيرا . لذلك عندما يقدم الواحد منا على التحدث عن المدينة العربية في العصور الوسطى يتحتم عليه ان يختار من هذه المدن عددا قليلا . وها نحن اولا نقتصر في هذه المقالة على بعض منها وهي : دمشق وبغداد والقاهرة ومراكش وفاس وقرطبة وتونس وبلرمو . وقد راعينا في هذا الاختيار التنوع والتوزيع الجغرافي ، كما اننا عنينا بتوضيح الدور الذي قامت به كل من هذه المدن، آملين بذلك ان نضع بين يدي القارىء صورة متكاملة للمدينة العربية .

(2)

فاذا اخذنا دمشق وجدنا ان المدينة قديمة العهد . فقد انشأها الاراميون على الراجح وكانت عاصمة لديار الشام عبر القرون . ولما فتح العرب

تلك الديار وعين معاوية حاكما لها اتخذ دمشق قاعدة لولايتـــه .

ودار الزمن فاذا دمشق عاصمة هذه الدولـــة الطويلة العريضة ، العربية الاسلامية ، الممتـــدة مـــن الـــسند الى البرانيس ، واذا بالخلافة تعمرهـــا ، واذا بجامعها الاموي يزينها . وقد ابتعدت الخلافة فيما بعد عن دمشق ، فما انكمشت ولا توارت عن الانظار ، فقد كان لها دوما من عزيمتها باعث ومن همة اهلها دافع ، فـسارت قدما . فالمقدسي الذي عرفها في القـــرن الرابع (العاشر) يقول عنها : « دمشق هي مصر الشام ودار الملك ايام بني امية ، وثم قصورهم وآثارهم . بنيانهم خشب وطين وعليها حصن احدث وانا بها من طين . اكثر اسواقها مغطاة . ولهم سوق على طـــول البلد مكشوف حسن . وهو بلد قد خرقته الانهار ، واحدقت به الاشجار ، وكثرت به الثمار مـــع رخص اسعار ، وثلج واضداد . لا ترى احسن من حماماتها ، ولا اعجب من فواراتها ، ولا احزم من اهلها » .

في ايام الامويين عادت موجة الفتح التي توقفت ايام عثمان الى زحمها وقوتها ، فاندفعت الجيـــوش المنتصرة الى حوض السند واواسط اسية واسبانية. ولكن المشكلة الاولى التي كان على الامويين ان يحلوها هي ادارة هذه الرقعة الواسعة . واذن فدور دمشق كان تنظيم الامبراطورية . في هذا القرن ، او ما يقرب منه ، نظم الخلفاء الدواوين . فزادوا عددها بحيـــث كانت للجيش والمال والمراسلات وما الى ذلك . ثم انهم عربوا السجلات والقيود . فقد ظلت الســجـــلات تدون بالفارسية في العراق وما اليه ، وباليونانية في ديار الشام ، وبالقبطية في مصر . لكن عبد الملك بن مروان وابناءه نقلوا هذه كلها الى اللغة العربية . وفي ايام الامويين سك نقد ذهبي خاص بالعرب في ايام عبد الملك بن مروان . ذلك بان دينار الامويين الجديد كان يختلف وزنا عن الدينار الرومي القديـــم . وفي ايـــام الامويين صدرت الاوامر الادارية في الولايات المختلفة، وهي امور اصبحت فيما بعد جزءا من الاحكام التي تتقيد بها الدولة والمحاكم والقضاء . وفي هذه الفترة ظهـــر المفسرون والمحدثون الذين اصبح عملهـــم الحجـــر الاساسي في وضع اسس الشريعة الغراء .

هذا من حيث ادوات الحكم واساليبه ونظمه . لكن معاوية كان يعرف قيمة البحر ، وكان يعرف انه لن يضمن مصر وشواطىء الشام وشمال افريقية ما لم يصنع قوة بحرية تستطيع ان تقف في وجـه الاسطول البزنطي . لذلك اتخذ له في كل من عكا وصور وصيدا دورا صناعة ونظم وحدات بحرية على غرار ما كان عند خصومه . وقد غزت اساطيل الامويين جـــزر البحر المتوسط الشرقية ، كما ان الامويين ارسلوا حملـــة بحرية كبرى الى القسطنطينية .

ومما عني به الامويون البريد . فقد نقلوا عـــن الفرس والروم ما كان عندهم وتوسعوا في استعمالـــه بحيث اصبح صاحب البريد من كبار رجال الدولة في ايامهم وايام من جاء بعدهم من ذوي السلطان الاكبر .

والمدينة نفسها عني بها الامويون . فبنوا فيها الجامع الاموي ليتناسب مع اهميتها كعاصمة للدولة الكبرى . والجامع الاموي في دمشق مفخرة من مفاخر الفن المعماري في هذه الديار . ونحن ان استنطقنـــا التاريخ عن هذا حدثنا بخبر بناء هذا الجامع العظيم الذي تم في عهد الوليد بن عبد الملك . روى التاريخ قائـــلا :

« واستعمل الوليد في هذا المسجد خلقا كثيرا من الصناع والمهندسين والمرخمين . وكان المستحث على عمارته اخوه سليمان بن عبد الملك . ويقال ان الوليد بعث الى ملك الروم يطلب منه صناعـــا في الرخـــام والاحجار وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريد، وارسل يتوعده ان لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ، وليخربن كل كنيسة في بلاده حتى القيامة التي بالقدس الشريف ، ويهدم كنيسة الرها وجميع آثار الروم . فبعث ملك الروم صناعا كثيرة جدا ...

« وبنى الوليد المنارة يقال لها العروس ، وجعل عدة من المصابيح توقد عليها في كل ليلة ، ورتب لها ثلاث نوب ، كل نوبة اربعون مؤذنا وهي باقية الى يومنا هذا. واما (الغربية) و (الشرقية) فهما على ما كانتا عليه من غير عمل ادوار ودرابزين ، وهما من بناء اليونـــان كالصوامع لضرب النواقيس والرصد » .

ومع ان الامويين اضطروا الى بذل اكبر الجهد في شؤون الحرب والادارة وحماية الحدود ، فانهم وجهوا بعض جهودهم الى شؤون العلم . والعلمان اللذان نالا بعض الحظوة في البلاط الاموي هما الطب والكيمياء . وقد تأثر المشتغلون بهما باليونان ، عن طريق النصارى، وبالفرس . وقد كان الطب حصة الحاشيـــة ، امـــا الكيمياء فقد كان موضع اهتمام خالد بن يزيد ، احد امراء البيت المالك .

وكان البلاط الاموي ملجأ كبار الشعراء كالاخطل والفرزدق وجرير .

وقد عدد البدري في نزهة الانام صناعات دمشق فقال :

« ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه . ومنها عمل القماش الاطلسي بكل اجناسه وانواعه . ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف اشكاله وتباين اوصاله . ومنها عمل القماش الابيض القطني المصور لاحياء القصور ، واموات القبور . وبها ايضا عمل القماش السابوري بجميع الوانه وحسن لمعانه ؛ وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع ، والممدود والمرصوع . وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي اوصاله . وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغتها المرضية . وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع. وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير . وفيها تعمل صناعة السلاح ، بما فيها من الاعاجيب والاقتراح . وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون . وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس . وفيها صناعة الواح الصقال ودهن الواح صغار الكتاب ، وجفان القصع وتفصيل القبقاب » .

(3)

وتمثل بغداد ، التي بناها ابو جعفر المنصور العباسي اواسط القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، نقلة هامة في تاريخ العرب السياسي والحضاري . فقد بنيت لتكون عاصمة اسرة حاكمة جديدة ، تعتمد الجبال الداخلية وتتوسط العراق ، وبذلك تبتعد عن شواطىء البحر الابيض المتوسط . وقربها من فارس حمل اهل الحل والعقد فيها على جعل بلاطهم فخما تبدو فيه ابهة الملك والعظمة والرفاهية . وانصبت ميازيب الثروة فيها من الامبراطورية الواسعة .

وتعقدت الادارة الحكومية في عهد العباسيين . فقد زادت الدواوين وازداد عدد الموظفين وتكاثرت اصنافهم ونظمت العلاقات بينهم وبين كبيرهم وهو الوزير .

وقد كان سكان بغداد اكثر تنوعا من حيث العناصر والعادات والاصناف والمستويات من سكان دمشق. ذلك بان ثروة بغداد واتساع تجارتها وابهة الملك فيها وكرم اولي الامر جذب اليها الناس من كل صنف ونوع . فكنت ترى فيها العربي والفارسي والتركي والهندي ، كما كنت تجد هناك المسلم والمسيحي واليهودي والصابئي ، كما كانت تقع عينك على الاصيل والمولى وعلى التاجر والصانع والثري والفقير والعالم والجاهل وكلهم يروح ويغدو ، ويعمل ويستريح ، ويفرح ويحزن . والحياة مليئة بالصور المنوعة ، تهدر حينا وتهدأ حينا آخر .

لكن بغداد كان لها دور خاص في حياة العرب وتاريخهم الحضاري . ففيها تعرف العرب الى علوم الاقدمين وفيها ظهر اوائل العلماء العرب والمسلمين الكبار .

وقد كان الدور الاول في هذه الحركة هو دور الترجمة عن السريانية واليونانية على ايدي النصارى من النساطرة واليعاقبة . وكانت الترجمة اولا فردية وان كان المنصور شجع المترجمين . لكن ايام هرون الرشيد والامين والمامون 170–218 هـ(786 –833م) شهدت تنظيما للترجمة والنقل تجلى في اختيار الكتب اختيارا مرتبا مصنفا وفي اتخاذ « بيت الحكمة » مركزا للترجمة وفي دفع مرتبات منظمة للمترجمين . والكتب التي نقلت في تلك الفترة كانت في الطب والفلسفة والرياضيات . وقد اشتهر حنين بن اسحق وابنه اسحق وآخرون من اسرته في الطب وعني يحيى بن عدي ، من اهل القرن الرابع (العاشر) وتلاميذه بترجمة المؤلفات الفلسفية والمنطقية ، كما تخصص ثابت بن قرة واعوانه بنقل التراث الرياضي والفلكي عن اليونان .

لم ينتظر العرب استكمال ترجمة المؤلفات اليونانية ثم الهندية حتى يقوموا هم بابحاثهم الجديدة والاصيلة . ولكن هذه نمت ونضجت بعد استكمال الاتصال العلمي بالاصول . وهنا تظهر الاسماء الكبرى التي ظللتها الخلافة العباسية من الكندي الى الفارابي ومن ابن سينا الى الرازي ومن بني شاكر الى البيروني ، من الفلسفة الى الطب الى الرياضيات .

والى جانب هؤلاء كلهم كان ثمة « العلماء » الذين كانوا يعنون بالعلوم الاسلامية اصلا كالتفسير والحديث والفقه والكلام . وفي مقدمة علماء تلك المنطقة ابن حنبل وابو حنيفة والشافعي .

وهنا أمر يجب ان يذكر عن بغداد . ففي هذه المدينة وحدها من مدن العالم العربي الاسلامي حدث احتكاك ثقافي هام كبير بين الثقافات المختلفة والافكار المتنوعة والمذاهب الفكرية المتعددة . هنا التقى الفكر اليوناني والروماني والفارسي الوثني والفكر النسطوري واليعقوبي المسيحي ، بالفكر الاسلامي . وهنا التقى العقل بالوحي ، وهنا احتك المنطق بالمنقول ، والتقت الفلسفة بالشريعة . ونتج عن ذلك كله جو فكري حي يقظ متفتح . وفي هذه الفترة اعطت الحضارة العربية الاسلامية خير ما عندها في ميادين الفكر الاصيل الخلاق الديناميكي .

وقد نقل ابن ابي اصيبعة عن يحيى بن عدى رواية فيها الكثير من الطرافة ، وقد لا تكون بعيدة عن الحقيقة والسبب ، وان بعدت عن الواقع فى روايتها . والرواية هي :

« قال المأمون : رأيت فيما يرى النائم : كان رجلا على كرسي جالسا فى المجلس الذي اجلس فيه فتعاظمته وتهايبته وسألت عنه ، فقيل لي : هو ارسطو طاليس . فقلت : اسأله عن شيء : فسألته . فقلت : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت: ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . قلت ثم ماذا؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من اوكد الاسباب فى اخراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة فى بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحجاج ابن مطر ، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل ، وقد قيل : ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم . واحضر المأمون ايضا حنين بن اسحاق وكان فتى السن وامره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي واصلاح ما ينقله غيره فامتثل امره .

« ومما يحكى عنه ان المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلا بمثل . وقال ابو سليمان المنطقي : ان بني شاكر ، وهم محمد ، واحمد ، والحسن ، كانوا يرزقون جماعة من النقلة . منهم حنين بن اسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت ابن قرة وغيرهم ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة » .

(4)

فى اواسط القرن الرابع (العاشر) دخل الفاطميون مصر آتين من المغرب ، واستقروا فيها وبنوا مدينة القاهرة ، وكان ذلك قبل الف عام . وقد عرفت المنطقة التي بنيت عليها القاهرة من قبل فسطاط عمرو بن العاص وقطائع وعسكر العباسيين . لكن القاهرة كانت فاطمية ـ عاصمة لدولة جديدة لها مذهب خاص وموقف خاص من قضايا السياسة . ومع انشاء القاهرة بني الازهر . وكان مؤسسة لتدريب الدعاة وفيه نظمت اساليب تدريب الدعاة على شكل لم يعرف من قبل فى العالم العربي الاسلامي . وقد ظل لهذا اللون من التفكير والعمل القدح المعلى فى القاهرة الى اواسط القرن الخامس (الحادي عشر) اذ اخذت الدولة تتضعضع . ومع انها استمرت قرنا آخر من الزمان ، فان ما قامت الدولة الفاطمية الشيعية من اجله لم يكن له المقام الاول .

وقد كانت القاهرة ايام الفاطميين ، كما استمرت على ذلك الى اواخر عهد المماليك ، واحدا من مراكز التجارة الكبرى . اذ كانت متاجر الشرق الاقصى تنقل عبر مصر الى اوروبة . ولم يكن ينقص بلاطها شيء من الفخامة والرفاهية . وقد خلف لنا الرحالون ، المسلمون منهم والاجانب ، من ناصرى خسرو الى ابن جبير وابن بطوطة الى بيلوتي الى بيلون الى ابن خلدون صورا للقاهرة تنبض بالحياة . فتحدثوا عن بيوتها العالية واسواقها الملأى بالمتاجر ومدارسها الكثيرة ومستشفياتها العديدة وقصورها الفخمة وسكانها واحيائها ومظاهر الحياة فيها .

فمما جاء عند ناصري خسرو قوله

« وعلى الجانب الشمالي للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله فى اى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف . ورأيت هناك الادوات التي تصنع من الذبل كالاوعية والامشاط ومقابض السكاكين وغيرها . ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب . وقيل انه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور الطف واكثر شفافية من بلور المغرب . ورأيت انياب الفيل ، احضرت من زنجبار ، وكان وزن كثير

منها يزيد على مائتي من . كما احضر جلد بقر من الحبشة ، يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال . وقد جلبوا من الحبشة طائرا اليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى راسه تاج مثل الطاووس .

« ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والاقداح والاطباق وغيرها، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن » .

الى جانب الازهر اقام الفاطميون مكتبة القصر ودار الحكمة . وفى هذه المؤسسات الثلاث كان الراغب فى العلم يجد حاجته . وكانت القاهرة تجذب اليها كبار العلماء من جهات مختلفة فاليها شد الرحال ابن يونس الفلكي الذي كان يقوم بقياساته الفلكية من مرصد على جبل المقطم . واليها انتقل ابن الهيثم صاحب الابحاث الدقيقة فى البصريات . واليها رحل عمار بن علي الكحال (طبيب العيون) المشهور ، وابن رضوان طبيب الحاكم بامر الله .

الى جانب هذا كله شاد اولو الامر المساجد الجميلة المزخرفة . ففي القاهرة عشرات المساجد التي ترجع الى ايام المماليك خاصة وكل منها ياخذ بمجامع القلوب مثل جامع السلطان حسن والجامع الازرق وجامع قلاوون وغيرها .

وهكذا فقد قامت القاهرة بدورها الخاص فى ايام الفاطميين والمماليك . ففي الفترة الاولى اتاحت للمشتغلين بالفلك والطب وما اليهما مجال العمل اذا ضاقت بهم بلادهم ، وفى الفترة التالية اجتمع فيها علماء السنة والمؤرخون وفى مقدمة هؤلاء ابن خلدون. ومن المهم ان نذكر ان الفترة الاولى كانت الى الاصالة اقرب وبها الصق .

وقد نال القاهرة نصيب من قلم ابن بطوطة الساحر ، فتحدث عنها كثيرا ، لكننا نكتفي بما قاله عن مدارسها :

« واما المدارس بمصر فلا يحيط احد بحصرها لكثرتها . واما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد اعد فيه من المرافق والادوية ما لا يحصر ، ويذكر ان مجباه الف دينار كل يوم . واما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة ، والامراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء واكثرهم الاعاجم ، وهم اهل ادب ومعرفة بطريقة التصوف ، ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب امورهم عجيب . ومن عاداتهم فى الطعام انه يأتي خادم الزاوية الى الفقراء صباحا ، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فاذا اجتمعوا للاكل ، جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه فى اناء على حدة لا يشاركه فيه احد . وطعامهم مرتان فى اليوم ، ولهم كسوة الصيف ، ومرتب شهري من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر الى عشرين . ولهم حلاوة من السكر فى ليلة جمعة ، والصابون لغسل الوابهم ، والاجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . وهم اعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية . واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عاداتهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . واذا صلوا صلاة الصبح قراوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتي بنسخ من القرءان العظيم مجزاة ، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرءان ويذكرون . ثم يقرا القراء على عادة اهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

بيروت : د. نقولا زياده
استاذ التاريخ والجغرافيا فى الجامعة الامريكية

نوافذ ...

ارتسامات عن "مورياك"

للأستاذ محمد ازنيبر

بموت فرانسوا مورياك يختفي وجه من الوجوه الكبرى التي تمثل فرنسا في هذا القرن العشرين . فهذا الكاتب ليس مجرد محبر اسطر ومحرر كلمات يتلمس الشهرة عن طريقة البراعة اللفظية والحذق الفني . بل هو ، قبل كل شيء ، رجل يعيش افكاره ، ويجربها في نفسه وفي حياته ، قبل ان يجعل منها موضوعا فكريا وادبيا . فالادب يأتي عنده في المرحلة الاخيرة ، مرحلة التبليغ . وقبل ذلك ، نراه يعيش ، تارة ، كانسان يتأثر للمآسي الانسانية ، وما اكثرها في عالم اليوم ، كما يسر لكل بشرى يتراءى من ورائها بصيص من النور والامل ، وطورا ، نراه كمواطن يغار على بلاده ويراقب تقلباتها عن كثب ، ويوما بعد يوم، ويحرص على سمعتها ويغضب على رجالها ان تقاعسوا وقصروا ، كما يصفق لهم ويهتف ان احسنوا التصرف وظهرت منهم جراة ومقدرة على الخلق والابتكار في العمل والقيادة . واخيرا ، وليس بآخر ، نراه كمؤمن له عقيدته التي يتشبث بها ويجهر ويفتخر وسط مجتمع طغت عليه العوامل المادية واصبح فيه المال هو المحرك الوحيد للمطامح والشهوات وهو المقصود بالذات لدى سائر الطبقات الاجتماعية ، بينما اصبحت القيم الروحية متوازية في زاوية ضيقة.

هكذا ، يعود بنا « فرانسوا مورياك » في هذا القرن العشرين الحافل بالمشاكل والمآسي من كل نوع الى بعض المقومات الانسانية التي تجعل من الانسان كائنا حيا يتجاوز المستوى البيولوجي ويعلو فوقه ، كائنا له شعور وعقل ، كائنا يفرح ويغضب ، يقبل ويرفض ، كائنا يعبر عن وجوده وكيانه بمواقف يختارها بمحض ارادته وسيرا مع ضميره ومع المبادىء الاخلاقية السامية .

وليس من المبالغة في شيء ان اقول ان جيلنا من الذين تلقوا تعليما مزدوجا باللغتين العربية والفرنسية ، تعرفوا على فرانسوا مورياك منذ بداية الدراسة ، ثم التقوا به بعد ذلك في كل اطوار حياتهم .

نعم ، لقد عرفناه في المدرسة ، في كتب المطالعة، وشرحنا بعض نصوصه المختارة ، واخذنا منه نماذج من التعبير ، لأن الرجل من الكتاب الحريصين على سلامة لغتهم وسلامة اسلوبهم . فهو لا يبتذل في كلامه، ولا يقتنع بالعبارة كيفما كانت ، بل هو يريد أن يحلق وان يطبع افكاره في العقول عن طريق التعابير الطريفة، القوية في لينها ونغمها ، ويريد ان يسحر القارىء لا عن طريق التمويه والتدليس ، ولكن عن طريق التعاطف والاقتناع .

وفي هذا الطور الدراسي عرفنا بعض رواياته التي اكتسب بها الشهرة في بلاده وفي الخارج مثل « تيريز ديسكيرو » و « القبلة للمخدوم » و « عقدة الأفاعي » وغيرها ، ولم تكن تلك الروايات مجرد قصص للتسلية وتزجية الفراغ ، بل كانت تنطوي على دراسة عميقة لبعض المشاكل التي يتعرض لها الفرد وكذلك المجتمع . وهي مشاكل اخلاقية في اساسها ، ولكن لها خلفية روحية يجتهد مورياك في

ابرازها ، دون شطط ولا تعسف ، بل بطريقة تضم الرفق الى البراعة الفنية .

نعم ، لقد اراد أن يصور بعض الأحوال من سوء التفاهم التي تحدث للفرد مع مجتمعه . فبين ، مثلا ، كيف ان تلك الاحوال قد تؤدي الى الجريمة كما وقع لبطلته « تيريز ديسكيرو » التي لم تعد تطيق الحياة في زاويتها الاقليمية ، تلك الحياة المحدودة ، الخاضعة لانواع من الضغط . وفي روايته «المرائية» ، حاول ان يصور جو النفاق الديني الذي يسيطر على الحياة الاقليمية بفرنسا . وتعرض لمشكلة المال وما تحدثه من خراب معنوي داخل الاسرة في روايته « عقدة الافاعي » التي يصور فيها الدور السيء الذي يقوم به اب بخيل ازاء اسرته بسبب بخله .

وتلك مشاكل اخلاقية ، نفسية ، روحية يصطدم بها الفرد في المجتمع ، وبخاصة في هذا العصر الذي انطلقت فيه الشهوات من عقالها ، واصبح الانسان اكثر طموحا يؤمن بقوته ولا يرتدع لاي رادع . ولذلك ، فان « فرانسوا مورياك » بصفته مسيحيا ، مؤمنا بعقيدته ، يرى أن حل هذه المشاكل لا يكفي فيه المجهود الانساني وحده ، بل لابد من العودة الى الله والتعلق به . واول ما تتمثل تلك العودة في قانون المحبة ، الذي هو من المبادىء المسيحية ، كما لا يخفى وفي هذا الموقف الميتافيزيقي ، يلتقي « مورياك » مع سائر الاديان السماوية ، وبخاصة مع الاسلام الذي هو ، ايضا ، يرى أن الانسان لا يستطيع ان يفوز بالنجاة اذا لم يتعلق بالله ويعتصم به .

هكذا عرفنا فرانسوا مورياك في طور الدراسة، عرفنا فيه الروائي اللامع ، الخلاق الذي يبحث عن الحقيقة الانسانية ويعبر عنها باسلوب يمتزج فيه النثر بالشعر واليقظة بالحلم .

ثم التقينا به في طور ثان على خشبة المسرح حيث نقل عالمه المتمزق ، المعذب الى جو التمثيل ، فاستطاع ان يلفت الانظار الى افكاره بصورة ابلغ واقوى . ولا زلت اذكر شخصيا بأي اهتمام وانصات تتبع الجمهور بمسرح الاوديون الباريسي روايته « اهل الحب السيء » « Les mal-aimés »

وكان المسرح غاصا لا يوجد فيه مكان فارغ . وقد بلغ التعبير الدرامي عند المؤلف منتهاه من التأثير والفعالية. وكان مورياك هو الكاتب المسرحي الوحيد الذي قبل مسرح « لا كوميدي فرانسيز » ، وهو اكبر مسارح فرنسا وافخمها ويحظى برعاية الدولة ، ويضم ثلة من المع نجوم التمثيل ، ان يقدم رواياته ، رغم كونه لا يزال على قيد الحياة .

وفي طور ثالث ، حينما بدانا نقرا الصحف السيارة ونتتبع مقالاتها ، عرفنا في فرانسوا مورياك الصحفي الممتاز ، اللامع ، وهو ، في الحقيقة ، لم يكن صحفيا بالمعنى الاحترافي ، وانما جاء للصحفي كاديب ، وظل يعمل فيها كاديب كذلك ، ولم يقبل ، في يوم من الايام، ان يستعمل اسلوب الصحفيين ولا كمائنهم وطرائقهم في التعبير ، بل حافظ على اسلوبه الاصيل وبفضله فرض وجوده على عالم الصحافة في فرنسا . فكانت مختلف الصحف تلتمس مشاركته وتتمناها . فكتب في جريدة « الفيغارو » وفي اسبوعية « الفيغارو » الادبية وفي اسبوعية « لاكسبريس » . ومن دون شك ، أن عددا كبيرا من القراء كان يقبل على تلك الصحف ليطلع ، بالخصوص ، على ما كتبه « فرانسوا مورياك » . ومن دون شك ، كذلك ، انه ساهم كثيرا في انجاح جريدة « الاكسبريس » وهي لا تزال في بداية حياتها تتلمس طريقها نحو الجمهور .

وقد عرف « مورياك » هذا النجاح في عالم الصحافة ، اولا لانه لم يقبل المنطق المعتاد للصحفيين الذين لا يتجاوزون افق اليوم او الشهر او السنة ، على الاكثر ، في نظرتهم الى الاشياء والاحداث ، بل كان يحلق ، نوعا ما ، فوق الزمان وينظر الى الابعاد الراسخة والقيم الخالدة ، دون أن يفقد في اي لحظة ، الاتصال بالواقع الملموس ، فتأتي مقالته ، وسط الاعمدة الأخرى المليئة بصور العالم المتقلب المضطرب، موحية بنوع من الاستقرار والحكمة والايمان بالمثل الأعلى .

وعرف النجاح ، ثانيا ، لانه كان محاورا من الدرجة الممتازة . بل يمكن القول انه لا يوجد بفرنسا من يضاهيه في فن المناقشة والجدل . ففي بلد تكثر فيه الآراء والمذاهب من كل نوع وفي كل موضوع وتتلون فيه الصحافة بكل الالوان الفكرية ، من الطبيعي أن يقوم نقاش دائم بين المثقفين ، اما للبحث عن الحقيقة او لنصرة عقيدة من العقائد . ولا تخلو الدعوة لبعض الافكار والنظريات الجديدة ، احيانا ، من شوائب الغلو والتطرف . وهنا نجد « فرانسوا مورياك » يظهر على حقيقته الانسانية ، انه فضولي متطلع لكل ما ينشر ويقال . بل هو ، في الواقع ، باحث عن المثل الاعلى وسط الآراء المتناقضة ، وهذا ما يدفعه الى مواصلة النقاش مع معاصريه من المفكرين والكتاب عسى أن يشع النور وسط الحوار . وهكذا ، نجده

يناقش رجال اليمين ورجال اليسار ، على حد سواء ، دون ان يرفض الاتفاق مع الطرفين فى المسائل التي يقبلها ضميره . واسلوبه فى الحوار يبلغ ، فى اكثر الاحوال ، منتهى المتعة . فهو لا ينحو منحى المتعمقين، بل يستند على اللمحات الوجيزة والواضحة ، فى آن واحد ، وهذا ما يجعله فى متناول الجمهور الواسع . كما انه لا يرفض استعمال السخرية والتهكم ، ولكن دون خشونة ولا غطرسة ، بل برقة ولباقة ، لانه يرى ان التلميح اقوى مفعولا وابلغ اداة من التصريح.

وفى هذا الميدان ، ميدان الجدال الصحفي ، كان لنا ــ نحن ابناء المغرب العربي ــ لقاء مع « فرانسوا مورياك » . وهذا ما يجعلنا ، اليوم ، نتاثر لوفاته ونشعر بعامل الوفاء يدفعنا للحديث عنه واثارة ذكراه . نعم ، لقد كان « مورياك » من الفرنسيين القلائل الذين رفعوا عقيرتهم للدفاع عن حقوق ابناء المغرب فى الحرية والاستقلال . ولقد وجد فيه الوطنيون المغاربة مناصرا حينما هبوا للدفاع عن قضيتهم فى فرنسا نفسها . وكان لصوته تاثير خاص ، نظرا لما يحظى به من نفوذ معنوي فى الاوساط المسيحية بفرنسا وفى الاوساط التقليدية ذاتها . ولم يبرح فى جريدة « الاكسبريس » يصدح بحقوق التونسيين والجزائريين والمغاربة ، مسخرا فى ذلك مواهبه الفكرية والأدبية ، ويكفي ان نقرا الآن يومياته فى الحقبة الممتدة من سنة 1950 الى 1956 لنرى مبلغ ما كان له من اهتمام بقضيتنا . ولا زلت اذكر كيف انه، وقت الكفاح فى بلادنا ، نظم مع المستشرق الكبير لوي ماسينيون ، يوما يشارك فيه المسيحيون المغاربة مشاركة روحية وذلك بصيام يوم من ايام رمضان للتضامن معهم .

نعم ، لقد اتخذ « فرانسوا مورياك » فى هاته القضية ، قضية الكفاح ضد الاستعمار ، موقفا يتسم بالشجاعة الادبية . فلا ننسى ان التيار الاستعماري كان قويا فى فرنسا ، قويا بتنظيماته وكثرة انصاره ووسائله المالية . ولا ننسى انه، بحكم اسرته ونشاته، كان ينتمي الى الاوساط التقليدية والبورجوازية ، التي تسير عادة فى ركاب السياسة الاستعمارية التي خططها الساسة الفرنسيون منذ القرن الماضي . ومع ذلك ، فانه لما تبين له الحق ، لم يتردد فى الجهر به ومناصرته ، مؤديا ، بذلك ، الواجب الطبيعي والانساني الذي ينبغي لكل كاتب ان يلتزم به .

نعم ، هنالك جوانب تستدعي الملاحظة والنقد لدى « فرانسوا مورياك » . وهو نفسه اول من يعترف بذلك . الا اننا ، فى هذه المناسبة ، لم نشا ان نجعل من حديثنا دراسة نقدية وتحليلية . بل قصدنا بالخصوص ان نرسم صورة رجل يمكن ان نعده من اصدقاء بلادنا وصورة اديب عالمي كبير كان له مجال واسع فى القول والكتابة . كما اردنا ان نقوم له ببعض واجب الوفاء عما اسداه من خدمات لقضيتنا الوطنية. ولنا فى شاعرنا الكبير البحتري خير قدوة حين عرف كيف يخرج من نطاق القومية الضيقة ليعبر عن وفائه للغير، قائلا :

ذاك عندي ، وليست الدار داري
باقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نعمى لاهلها عند اهلي
غرسوا من ذكائها خير غرس

الرباط ــ محمد ازنيبر



زعمت ابنتي الموت شخصا يحس
وعظمت من امره ما صغر
وما هو الا انطفاء الحياة
وعصف الردى بسراج العمر

هكذا وصف شوقي الموت وتحسس به وتلمس آثاره ، بما لا عهد للشعر العربي به من عهد المتنبي وابي العلاء. وهكذا كان هذا الشاعر العظيم دائم التفكير فيما وراء الغيب يحاول ان يجلوا خافية وان يستشرف غامضه ، بقريحة مرهفة ، وفكرة نيرة ، واحساس يكاد لا يخطيء دقائق الهواجس وبدوات القدر .

وان انس لا انسى عصر احد ايام الخريف من عام 1932 وقد جلس الى جانبي الشاعر النجفي المعروف احمد الصافي وطلع علينا احد الرفاق يقول ، وكلامه يتلجلج في فمه وحديثه ينعقد على لسانه من ثقل الخبر وفداحة النبا وقال : لقد مات شوقي ، ورايت الصافي وقد لملم اطراف عباءته واخذته رعشة الخوف ، وكان شبح الموت قد امسك بتلابيبه واستغرق الشاعر الساخر استغراقة طويلة افاق بعدها وهو يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ، لقد ذهب شاعر عظيم لن تخلفه الاجيال في الفترات المتراخية والسنين الطويلة.

وخرجنا من مكان اجتماعنا ، وقد تغير الحديث ورانت على الوجه كدرة الحزن وحسرة الفقد فقد كان شوقي على حد قوله هو :

واني لفريد هذي البطاح
تغذي جناها وسلسالها

او قوله :

كان شعري الغناء في فرح الشرق
وكان العزاء في احزانه

ورجعنا ننظر في شعر شوقي وننعم النظر في هذه الديباجة الصافية كالفجر ، وهذه الالفاظ البراقة المكهربة ، وهذه النغمة الشجية المطربة ، على لغة متينة لا يأتيها الخطأ ، واسلوب قوي لا يتزعزع بناؤه ولا يتهلهل نسجه، وذكرنا حين افل نجم الشاعر الكبير تلك المناسبات الرائعة التي كان لا يغادر منها صغيرة او كبيرة حتى يصفها وصفا يبقى على الزمان ويعرض آثارها في النفوس عرضا لا يمكن ان ننساه .

نشأ شوقي في بيئة رفيعة الجانب ، فقد كان اهله على صلة وثيقة بالبيت المالك آنذاك — 1868 —

وتنقلت طفولته بين اعتاب القصور الانيقة ، ودرج صباه في الحدائق المونقة ، وتعودت عيناه ان تستجلي صور الفن وبدائع الالهام ، واوتي عدا هذا وذاك ، فطرة رائعة ، وموهبة عالية ، تواتيه في كل مناسبة وتستجيب اليه عند كل حادث ، ورزق بسطة في اليد ، وسعة في الجاه فلم يكن يكلف نفسه عناء العمل ولا جهد السعي ، ولم يذق مرارة الحرمان ، ولا شكا من تقلب الحدثان ، فخرج شعره من هذا الطراز الفني الموسر ، وكان فيض عبقريته وليد هذه النعمة السابغة من الخير الوفير ، وكان ادبه مترفا لا يعرف المرارة والحقد ، وكانت شكواه من رتابة الحياة ، وموت الاصدقاء واسراع الشباب الى الزوال،

وتخلف الجسد عن التحمل والنشاط والاندفاع وراء الاستمتاع الناعم الانيق .

وكانت طريقة شوقي فى الشعر هي الطريقة التي سار عليها العباقرة العظام ممن درجوا قبله ، عمل تحوطه السهولة ، وانتاج غزير لا تكلف فيه ولا جهد الا ما تقتضيه الصنعة الفنية ، وما يمليه حب التجويد والاتقان ، وكان اسفافه اسفاف النبوغ الذي يحمل معه العذر ويضع امامك السبب ، لان الفنان كغيره قد يعمل لغيره فلا تشاركه نفسه فى العمل ، فيطلع على الناس بأثر لا يفيض من القلب وانما هو يقتسر اقتسارا لضرورة لاخلاص او لمناسبة يحمل عليها حملا، وهكذا تلكا شوقي بالرثاء يوم مات حافظ ، ولا ندري سبب التلكؤ ، وحين سئل عن ذلك قال وهو دامع العين على صاحبه وسميره : العواطف لا تساق بالعصا ، وكان بعد ذلك ان قال قصيدته فيه ومطلعها اجمل مطلع عرفه الرثاء فى الشعر العربي :

قد كنت اوثر ان تقول رثائي
يا منصف الموتى من الاحياء

والذي يهمنا اكثر من كل شيء آخر هو شعر الشاعر القومي ، فقد كان شوقي متهما بالانزواء والارتماء فى احضان النعمة ، وكان الناس يأخذون عليه قوله فى الخديو اسماعيل :

الخون اسماعيل فى اولاده
ولقد ولدت بباب اسماعيلا

وقوله عن نفسه :

شاعر العزيز وما
بالقليل ذا اللقب

ولكن شوقي رجل مسالم غير مشاكس ، وهو انما يصنع ما يصنعه المعتدلون من الناس ، اما المتطرفون فلهم آراء خاصة قد لا تنطبق على واقع الحياة ، ولكن شوقي ، من ناحية اخرى ، كان يدلي بآرائه ، ويتقدم بنصائحه القومية الرائعة ويهاجم المستعمرين هجوما لم يكن يلحقه به لاحق ، اما علاقته مع اصدقائه فعلاقة رجل يحترم نفسه ، لان شوقي كان يجد ذلك غير معيب ما دام هو واهله قد عاشوا فى ظل اولئك الاصدقاء المخلصين . ولكن كان شديد الوطأة على اللورد كرومر ، وعلى بقية المستعمرين الذين عاثوا فسادا فى مصر ، كما كان فى سوريا خير من تحدث عن ظلم المستعمرين ووحشيتهم وقسوتهم ، وله فى هذا الموضوع قصائد قطعت الطريق على كل شاعر سواه وانظر الى بعض اقواله فى هذا الموضوع :

بنو امية للانباء ما فتحوا
وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم
فهل سالت سرير الغرب ما كانوا

وقوله فى الثورة السورية :

رماك بجهله ورمى فرنسا
اخو جهل به صلف وحمق
اذا ما جاءه طلاب حق
يقول عصابة خرجوا وشقوا
دم الثوار تعرفه فرنسا
وتعلم انه نور وحق

وقوله فى يوسف العظمة :

سأذكر ما حييت جدار قبر
بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما اقامت ميسلون
يذكر مصرع الاسد الشبالا

وقوله فى عمر المختار :

افريقيا مهد الاسود ولحدها
ضجت عليك اراجلا ونساءا
والجاهلية من وراء قبورهم
يبكون زيد الخيل والمنحاء
ان البطولة ان تموت من الظما
ليس البطولة ان تعب الماء

الى آخر هذه الاقوال التي كانت آيات محكمات تتحدث عن كل نفس وتتكلم باسم كل قلب ، وان ما يهمنا من الشاعر اثره الذي عرف به وانتاجه الذي عاش من اجله ، اما سلوكه الشخصي فله شان آخر لانه ليس بذي بال بالنسبة للشاعر .

رحم الله شوقي ، لقد وفى ما عليه لقوميته ووطنه ، فقد كان رائدا للشعر القومي الحديث ، وكان اذا تحدث خرست الالسن وسكنت الجوارح وانطوى كل متحدث آخر على نفسه على حد قول الشاعر :

اذا جاء موسى والقى العصا
فقد بطل السحر والساحر

وهكذا كان شوقي شاعرا وكان ساحرا .

وبعد مدة غير طويلة سيحين الموعد الذي ذهب فيه الشاعر الكبير عن هذه الدنيا ، ويتلفت كل اديب حواليه فلا يجد ذلك الخيال الشاحب الذي نطق فاعجز وتكلم فاحسن واوجز ، ويرجع الطرف كرة اخرى ليرى هذا الديوان الرائع وهذا القصص الفني، فيذكر شاعره الكبير .

دمشق : احمد الجندي

الزليج، والفسيفساء والقاشاني

للأستاذ عبد القادر زمامة

تدور هذه الاسماء الثلاثة على السنة الواصفين حينما يحاولون وصف المباني الفنية الجميلة . القديم منها والحديث .. فيقولون ان جدرانها ، وسقوفها ، وارضها مزخرفة بالفسيفساء .. والقاشاني .. هذا في المشرق . اما في المغرب فيقولون : (مزلجة) بالزليج ..

ويختلط الامر علينا فلا ندري هل هاته الاشياء الثلاثة .. مختلفة في مدلولها . فلذلك تعددت اسماؤها ام هي شيء واحد .. ولكن الاسماء متعددة ..

ويزيد ارتباكنا حينما نرى ونسمع الكتاب المعاصرين في الشرق . ويتبعهم بعض المغاربة يتحدثون عن المباني الاثرية في الاندلس والمغرب ويصفون ما بها من فسيفساء .. وقاشاني .. من غير تعريج على كلمة الزليج وحتى الذين يذكرونها .. نشعر بها في كلامهم او كتابتهم وكانها تمشي على استحياء .. وقلق .. مما يدلنا على ان المدلول الحقيقي لهذه الكلمة ليس واضحا في اذهانهم .. لهذا سنعطي هنا معلومات مدققة كلها تدور حول التفرقة بين هاته الاسماء الثلاثة ..

وقبل كل شيء يجب ان نعرف ان كل كلمة نشات في لغة .. وامة .. وعصر فالفسيفساء نشات عند الرومان .. ولعلهم اخذوها عن الشرق القديم .

والقاشاني عند الفرس ..

والزليج عند العرب .. في المغرب والاندلس خاصة .. فكلمة الفسيفساء ترجع الى اصل يوناني ولكن الرومان اقتبسوها واستعملوها مما جعل الباحثين يظنون انها رومانية لا صلة بينها وبين اليونان ..

اما مدلول الفسيفساء عند الرومان كما كانوا يفهمونها . وكما كان العرب يفهمونها حينما اقتبسوها من البزنطيين واستعملوها في العصر الاموي في بلاد الشام ، يوم بنوا المسجد الاموي في دمشق .. والمسجد الاقصى في القدس .. فهو حجارة صغيرة دقيقة .. وقطع من الزجاج الملون .. وقطع من الخزف الملون .. تجمع كلها ويصنعون منها صورا للانسان والحيوان والاشجار والازهار .. ومناظر الصيد .. والرقص .. والاجتماعات الدينية .. والمعارك الحربية .. بالاضافة الى الزخرفة والتجميل

وقد اقتبس العرب الفسيفساء وجملوا بها قصورهم ومساجدهم مع اهمال لجانب الصور فيها . ولا سيما منها صور الانسان .. وذلك لاسباب دينية معروفة ..

فالفسيفساء تقوم على اساس التصوير بالالوان .. وتخليد المناظر على الجدران والسقوف .. ومن اجل هذا كانت الاجزاء التي تقوم عليها بسيطة جدا بمادتها واشكالها .. فصانع الفسيفساء يريد اخراج صورة .. ومنظر .. لاخراج اشكال هندسية .. متشابكة ..

اما القاشاني .. فهو منسوب الى مدينة قاشان الفارسية .. وكان اهل قاشان قد اقتبسوا صناعة الخزف اللامع من الحضارة الصينية .. وتوفرت لديهم مواد التلوين .. والتلميع .. فمن اجل ذلك ابتكروا هذا النوع المسمى القاشاني .

والقاشاني يصنع من الخزف على شكل مربعات ومستطيلات وقبل طبخها في الافران تلون بالالوان البراقة وتكتب عليها الكتابات المطلوبة بتعاريج

وزخارف بديعة .. وبعد طبخها تلمع بمواد خاصة قبل ان تاخذ مكانها من السقوف والجدران ..

فالقاشاني يقوم على اساس الكتابة المزخرفة والحروف الجميلة .. في اطار جميل جذاب ..

وكانت الحضارة الاسلامية في المشرق تزين القصور بالفسيفساء ، وحيث ان الفسيفساء لا تملك الكتابة بالحروف .. فانها استعملت القاشاني ايضا ليكمل نقص الفسيفساء ..

وهكذا نفهم ما نشاهده في المباني الاثرية بالشرق .. عندما نزور مسجدا او قصرا أو ضريحا من اضرحة الاولياء والملوك والعلماء هناك ..

بعد هاته الجولة مع الزخرفة الشرقية ننتقل الى الزخرفة المغربية بالزليج ...

ونحاول عبثا اذا نحن اردنا ان نبحث عن كلمة الزليج في المعاجم ، او دائرات المعارف .. فقد اهملت هذه الكلمة اهمالا غريبا .. من القدامى والمحدثين .. فلا يكادون يذكرونها .. وحتى اذا تجرا احدهم واشار اليها . اقتضب الكلام اقتضابا تبعا لسابقيه ..

وقد تنبه لذلك المستشرق الهولندي .. دوزي .. فكتب في كتابه : (تكملة المعاجم العربية) معلومات عن كلمة الزليج .. ورغم اهمية هذه المعلومات .. فان دوزي اخطا حينما زعم ان الكلمة ماخوذة من اللغة الاسبانية . (Azulajo)

فالزليج كلمة عربية لا غبار عليها ..

وهي ماخوذة من الزلج بمعنى الملاسة والنعومة .. والزلق .. يقال مكان زلج وزلج بمعنى املس تزلق القدم فيه .

فالكلمة الاسبانية ماخوذة من الكلمة العربية لا العكس كما توهم دوزي .. ومدلول الزليج يختلف تماما عن مدلول الفسيفساء ومدلول القاشاني .

فالزليج المغربي لا يقصد به الصورة .. كما هو الشأن في الفسيفساء .. ولا يقصد به الكتابة كما هو الشأن في القاشاني .. ولكن يقصد بـه التجميل والزخرفة .. لا غير .

والاجزاء التي يتركب منها الزليج المغربي اجزاء على اشكال هندسية متعددة متشابكة .. يتكون من مجموعها شكل ملون جذاب يسمى اصطلاحيا باسم خاص ..

اما الكتابة فان الزليج المغربي لا يستعمل فيها طريقة القاشاني .. وانما يستعمل طريقة اخرى حيث ياخذ المربعات بعد خروجها من الافران .. وينقش عليها الكتابة المطلوبة ..

والزليج المغربي الان ميراث حضاري رسبت فيه عبقريات وتجارب قديمة .. ويكاد يكون الوحيد من بين انواع الزخرفة الاخرى عند الامم التي قاومت كل تحديات العصر .

والغريب ان الصانع المغربي الآن يستطيع ان يقدم ادق انواع الزليج التي زخرفت بها قصور بني مرين ومدارسهم في فاس .. رغم ان هاته الانواع قد انقرضت وبطل العمل بها منذ قرون .. الشيء الذي لا يتاتى في الفنون الاخرى ..

وهكذا يمكننا ان نفرق بين الزليج والقاشاني والفسيفساء .

ولا نودع كلمة ـ الزليج ـ دون ان نشير الى انها كانت مستعملة في الاندلس الشيء الذي حدا المستشرق .. دوزي .. الى ان يجعلها ماخوذة من الكلمة الاسبانية (Azulejo) وان يحاول الربط بين الكلمة الاسبانية وكلمة (لازورد) المعربة عن الفارسية .. (1)

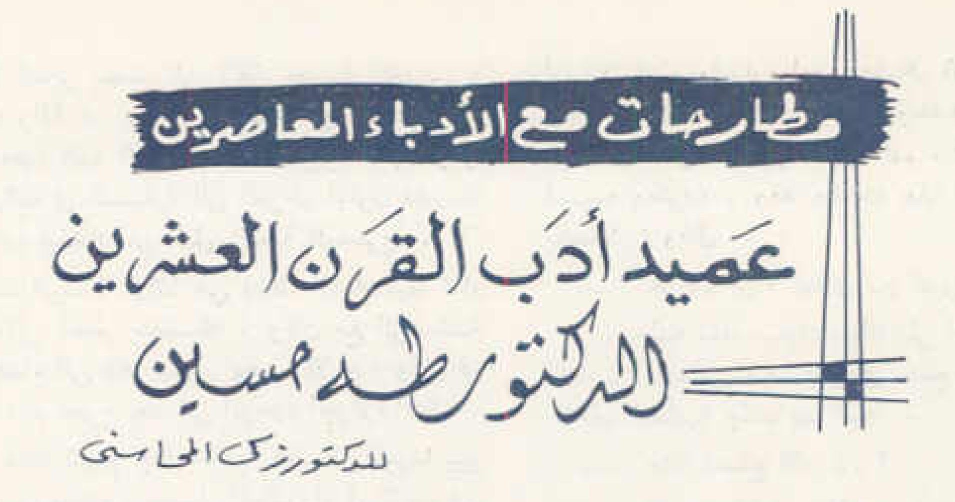
واللازورد يعني حجرا يكاد يكون في عداد الحجارات الكريمة . وله زرقة لامعة مشهورة كانها زرقة السماء (2) .. وذكر الشعراء اللازورد في اشعارهم الوصفية في كل من الاندلس والمشرق .. ونسبوا اليه فقالوا .. لون لازوردي بمعنى ازرق .

وكما حاول دوزي الربط بين الزليج واللازورد حاول غيره الربط بين الزليج والزجاج ..

وكلا المحاولتين فيها من البعد والتحمل ما لا يخفى .

فاس : عبد القادر زمامة

1) راجع كتاب تكملة المعاجم العربية لدوزي ج 1 ص 598 ـ الطبعة الثانية ـ باريز 1927 م .
2) راجع عن اللازورد كتاب (نخب الذخائر بتعليق الكرملي ص 55 . وما بعدها . القاهرة 1939 .



عميد أدب القرن العشرين الدكتور طه حسين

للدكتور زكي المحاسني

كنت يومئذ مدرسا للغةالعربية وآدابها في التجهيزية الاولى – وكانت فريدة – بدمشق وانا غارق في ميعة الصبا . كنت اكتب لطه حسين الشعلة الجديدة التي ارتفعت في سمائي ، ولا اتلقى منه جوابا . فعجبت لصلف ادبائنا العظام ، وذكرت له في رسالة ضافية كيف ان « هنري روبير » نقيب المحامين في باريس لعهده ، قد تلقى يوما رسالة عجلى من فتى معجب به وبآثاره ، واذا الفتى يتلقى جوابا اعجل ، يدعوه فيه سيد المحامين الى السمر عنده في موعد مضروب ، فيقبل الفتى ، ويدخله الخدم الى بهو فسيح تعلقت الثريات في سقفه ، حتى يلج الزائر الشاب على مضيفه قاعدة مجلسه ، في ردهة حافلة بجلة اهل الفكر والسياسة ودهاقين الادب .

وينهض « هنري روبير » فيمشي خطوات لتلقي زائره العزيز ، فيصافح يده بحرارة – كما نقول بلغة عصرنا – ويهزها هزا ثم يقدم اليه :

— المارشال ليوتي ، موروجيا فيرى النائب العام الاعظم ثم المحامي الاكبر ، نقولا سيغور صديق اناطول فرانس وكاتبه ، ثم طائفة من اهل القصة ورعاة الاقلام وافذاذ الصحافة الذين كانوا بحضرته يسمرون .. !

حتى اذا انتهى روبير من تقديم ضيفانه لزائره ، قال لهم بلهجة الجاد الفرح :

— صديقي السيد مارتان الذي كتب الي رسالة يبين فيها اعجابه بي .

ولولا ثبات قلب ذلك الفتى في تلك الغمرة الغامرة ، والبهرة الحافلة ، لاغمي عليه من الخجل والدهش ، أن كان الخجل والدهشة يسببان الاغماء مثل الفزع والخوف .. كتبت كل هذا ، ولم اتلق جوابا من طه حسين وكنت اقيد رسالاتي اليه بالبريد المسجل المضمون ..

وانشات في ذلك الحين مجلة الحديث الحلبية مسابقة كبرى موضوعها :

(من هو اديب العصر الافضل في دنيا العرب المحدثين) ؟

بل : (من هو اكبر اديب عربي معاصر)

فوجدتها سانحة وصرخت بيني وبين نفسي صرخة الاغريقي العالم ارخميدس :

— وجدتها ، « اوريكا »

فادنيت دلوي في الدلاء – كما كان يقول العرب في استعارات الجدود ، وجرت اوراقا كثرا بعد جهد ليال متتبعات ، في تفضيل الدكتور طه حسين على ادباء العصر جميعا ، وبت انتظر حتى اعلنت لجنة التفضيل أن موضوعي هو الذي نال الجائزة ونشرت تلك المجلة دراستي لحياة طه حسين وآثاره التي كانت قد ظهرت يومذاك ، وكان ثاني الفائزين كاتب فضل العقاد . وكانت الجائزة ثمينة تجيء في خمس ليرات ذهبية ، فلم تصل الي . وضرب الدهر بيني وبين الجائزة حتى لقيني صاحبها الذي رصدها وهو الاقتصادي المشهور « سعيد الزعيم » رحمه الله ، فجعل يبارك فوزي ، ويسبغ التهنئة علي بجائزته وقد اعلمني مقدارها ، فدهشت وادهشته حين قلت له :

— لم اتسلم اية جائزة ! ..

ومن ذهابي بنفسي ، لم ارسل للدكتور طه حسين خبر هذا الفوز به . وما راعني وانا في غرفة

التدريس الا المدير يبعث الي لالقاء بعد الدرس ، فخففت اليه واذا هو يسلمني رسالة من الدكتور طه حسين ، دفعها اليه الاستاذ عبد العزيز السيد وهو منطلق مع ركبه في السيارة الى العراق ليكون مدرسا في كلية الآداب ببغداد من قبل البعثة المصرية .

ففتحت الرسالة واذا هي بخط كاتبه فيها ثناء كبير على مقالي الفائز بتفضيله ، وكان مع الرسالة اول كتاب اهداه الي طه حسين وهو (الايام) وكان في جزئه الاول ، لم تخرج بعد الى الوجود اجزاؤه التالية.

ومنذ ذلك اليوم جعلت كتبه تفد الي نجوما بين السنين ، حتى بعثت لتحصيل الدكتوراه في الادب من الجامعة المصرية فسعيت اليه ، وجعل يأنس بي ويضفي علي التشجيع ، ومضى زمن ردني الى مصر ملحقا ثقافيا في سفارتنا السورية بالقاهرة ، فكنا نقيم المآدب فيها في مواسمنا الوطنية والتزم زورة طه حسين وادارى زوجته ، واسعى الى تكريمه واذا هي ذات مرة تقبل متهاوية لتختطف من يده كأسا من عصير الليمون جئته به وتقول بعنف :

— كلا ، انه يتبع حمية ! ..

فجعل يقهقه ويعتذر .

وفي زورات متتالية كنت القاه في منزله وافرح بلقائه في سفارتنا ليالي حفولها الوارفة في حي الزمالك.

وقال لي قائده النابغ وامين سره على العمر الصديق الاستاذ فريد شحاتة :

— تعال معنا حين ذهاب الدكتور ، فانه اهدى اليك مجموعة كتبه كلها ، وهو حدث لم يصنعه الا لقليل من خلصائه ..

فخففت ساعة توديعه ، وتلقيت رزما مغلفة ، فلحق بي اديب يشركني في توديعه ، وقال لي ما هذا؟ فقلت له في حذر :

— انها مخطوطات استعيرها من مكتبة العميد..

وجعل من يزورني في منزلي بدمشق ينظر فيها ، وفي اهداءاتها المبصومة بخاتم الدكتور اذ كنت عرضتها في خزانة ضاحية بحجرة الضيوف . ومر زمن وهي في رف متوسط خاص به وليس عليها من رتاج ، واذا بي اطلب يوما بعضها فلا اجده ، ويصير بي التحقيق الى ان الفتيان ربما زارونا من عشاق الادب ، فجعلت ايديهم تمتد الى كتب الدكتور وحدها وتذهب بها ، حال غيابنا في تحضير القهوة لهم ، او الخروج فجاة لسبب مطلوب . وقد حدثت بهذا الدكتور ، فجعل يضحك ، وقال :

— جزاؤك ان لا تهدى من كتبي بعد اليوم .

وجئته منذ سنوات وانا على اهبة الطبعة الاولى لكتابي (المتنبي) فسالني في جمع من الزائرين من الديار الشامية جئت بهم اليه :

— ماذا تصنع الآن .. ؟

— الفت كتابا في « المتنبي » وسيصدر في طبعات دار المعارف بمصر وذكرتك فيه كثيرا .. !

وهنا تحرك الدكتور العميد في مجلسه وكان فيه ساكنا لا يريم عنْ قعود ، وقال مخاطبا :

— اني لألوم صاحبك ابا الطيب ! .

— وفيم يا سيدي الدكتور المعلم ؟ .

— لانه تنكر اواخر عمره للعرب .

— وكيف يكون منه ذلك وهو امام الداعين الى العروبة ومجد العرب وجمع كلامهم وعهودهم ؟ !

— بامتداحه الفرس .

فهششت ، وجعلني ابعث في نفسه الحماسة لهذا الموضوع واذا هو يعاجل في قوله لي :

— اخرج كتابك ، وسانقدك .

فزادت هشاشتي وفرحت ، وقلت له :

— بابي انت وامي ، هذه بغيتي الي احب ان اراها بعد اعجابك بكتابي الاول (التواسي شاعر من عبقر ، سنة 1939) .

فقال وهو يتبسم ثم يضحك ضحكة عريضة كضحكاته المعهودة :

— تفنا ، يا محاسني ، تقول على لغة العرب الاقدمين : (بابي انت وامي)

فجعلت اكررها له بنفس بهجة وقلب ممتلىء بحبه ولسان يدعو له بالعمر المديد .

الدكتور زكي المحاسني

لماذا خلا الأدب القديم من القصة

للدكتور جعفر الكتاني

من بين القضايا الادبية التي ارسلت الفرضيات عليها في صياغة حكم عام ، ان الادب العربي خلا منذ فجر التاريخ ، من الفن القصصي ، لان منتجيه قوم ضعاف المخيلة لا يستطيعون بطبيعة تكوينهم النفسي ان يعددوا مرائيهم للشيء الواحد ، فهم موحدون في كل شيء في الدين .. في الادب .. في الفنون الجميلة ، لا تنفذ مخيلتهم الى ما وراء مشاهدهم المادية ، ولذلك كان ادبهم خاليا من الفن القصصي ، هذا الفن الجميل الشيق ، الذي لا يطوع الا لذي مخيلة خصبة ثره .

وتلك نظرية نصوغها بجملنا ـ يمكن الوقوف على مثلها عند رونان في مقدمة كتابه (التاريخ العام للغات السامية) في طبعته الفرنسية :

Renan : Histoire générale des langues sémétiques

والواقع ان من يقابل ادبنا العربي القديم بأدبنا الحديث ، تحمله نتائج المقابلة على وضع سؤال عن سبب غياب الفن القصصي عن فنون الادب القديم بينما ادبنا الحديث اصبح فيه الفن القصصي من فنون القول المتبارى في تجويدها ، فنا قائما بنفسه ، له كتاب مرموقون وقراء مقبلون ، وبتخذ لعرضه طباعة مغرية ويتناول بالقص الفني موضوعات تتطرق لسائر المجالات المجتمعية ، حتى غدا بينا كيف ان هذا الفن القصصي ينتزع عرش الشعر الذي ظل الشعر وحده يتبواه من بين سائر فنون القول الاخرى ، في ماضي الادب العربي البعيد والقريب منه على السواء .

وتلك قضية من قضايا ادبنا ، لا شك في انها تطرح نفسها لوضع حد واضح يفسر غموضها .

فهل يعني خلو الادب العربي حتى العصر الحديث من الفن القصصي ، ان الاديب العربي ظل واهي الخيال ، بحيث يقصر خياله عن التشخيص والحوار وعدهما في المشهد الواحد ؟ وان مشهده الواحد لم يعرن الى مشاهد متعددة الرؤى ؟ وان الاديب العربي بسبب ذلك لم ينتج القصة ؟؟

ام أن الحكم بخلو الادب العربي جملة من الفن القصصي حكم مجحف ، وعاطل التقدير ؟؟

اذا نحن وضعنا معاييرنا المعاصرة في احدى كفتي ميزان التقييم ، وسعينا الى استخلاص النتيجة عما عساه يعطينا هذا الميزان من نتائج تشهد بغياب القصة او بوجودها في الادب العربي القديم فاننا بلا شك سوف نعلن عن افتقاد الفن القصصي من بين فنون القول في الادب العربي القديم . ولكن معايير الميزان ـ كما يجب أن تذكر ـ سوف تكون منقولة بارادتنا من بيئة الى اخرى . وهي عملية خاطئة ـ موضوعيا ـ في التقييم كذلك ان معايير الفن القصصي في مجتمع الادب الحديث ، ليست معايير ذلك المجتمع القديم . ونحن لن نثير دهشة اى مجتمع اوربي قبل اوائل القرن الثامن عشر اذا نحن عرضنا صنفا من ادب العرب القديم على اعتباره ادب قصة . ونقصد من ذلك مثلا : الاساطير العربية قبل الاسلام ، وقصص

القرءان . وقصص ايام العرب وغزواتهم ، ثم قصص الحب العذري بعد ذلك ، فالف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والمقامات ، والمسامرات الادبية ، وقد عد ابن النديم منها فى الفهرست ما يربو على المائة كتاب .
وان المجتمعات الاوربية نفسها لم تستطعم المقاييس الجديدة للفن القصصي الا فى اوائل القرن الثامن عشر بحسب ما ترويه دائرة المعارف البريطانية فى مادة (قصة) : Story

وبالرجوع الى الشعر الجاهلي نجدنا قصد مواقف قصصية لا تحصى ، من ذلك مثلا قصيدة لبيد المعلقة ، يصور فيها بعد العشرين بيتا الاولى بقرة وحشية اختفى عنها فريدها الرضيع فى ليلة باردة من ليالي الشتاء باتتها البظلة بكملها الصقيع والاسى تجري من سهل الى حزن ، تفتش عن وحيدها الضائع ، تتسلق الرعان وتحوم حول المراعي ، وفى مسارح الصوان ، وكانما قد شقت الارض شطرين انجدب بينهما الوليد الفريد ثم انطباقا عليه ، وهي قصة شيقة لوفك معجمها ، وتحرر شعرها من قيوده .
ومثل لبيد الجاهلي ، عمر بن ابى ربيعة الاسلامي فى اقاصيصه الغرامية المتعددة . ومثلهما ابو نواس ، وابو فراس الحمداني فى السرد القصصي الشعري .

وحتى على فرض صحة وضع معاييرنا الحديثة فى ميزان الحكم على القدماء ، فان هذا لا يخولنا تعليل غياب الفن القصصي عند العرب الاقدمين بكونهم قوما ضعاف المخيلة ، ينظرون بعين الوحدة ، فى مشاهدهم ومرائيهم . وذلك لان النماذج التي يمكن بها الاستشهاد على العكس من تلك النظرية كثيرة جدا فى انتاجهم الادبي البحت ونضرب لذلك مثلا بشعر الحطيئة فى قصيدته الميمية المتألفة من ستة عشر بيتا ، وهي قصة اسرة املقت بعيث فى اطفالها الجوع والشحوب مأواهم الصحراء يفترشون الرمال ويلتحفون بالاسمال يبحثون فى كد الياس عن جرعة ماء ولقمة خبز ، ولكنهم برغم حالتهم المدقعة تهيب بهم تربية مجتمعهم الى الشعور بالمسؤولية تجاه الضيف الطارىء .

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

اخي جفوة فيه من الانس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

وافرد فى شعب عجوزا ازاءها
ثلاثة اشباح تخالهم بهما

حفاة عراة ما اغتدوا خبز ملة
ولا عرفوا للبرمد خلقوا طعما

راى شبحا وسط الظلام فراعه
فلما راى ضيفا تشمر واهتما

فقال هيا رباه ضيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

فقال ابنه لما راه بحيرة
ايا ابت اذ بحنى ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا
يظن لنا ما لا فيوسعنا ذما

فروى قليلا ثم احجم برهة
وان هو لم يذبح فتاة فقد هما

فبينهما ، عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
على انه منها الى دمها اظما

فامهلها حتى تروت عطاشها
فارسل فيها من كنانته سهما

فخرت نحوص ذات جحش سمينة
قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما

فيابشره اذ جرها نحو قومه
ويابشرهم لما راوا كلمها يدمى

وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
وما غرموا غرما وقد غنموا غنما

وبات ابوهم من بشاشته ابا
لضيفهم والام من بشرها اما

وقصة الحطيئة هاته ، شعر جاهلي بمفاهمه ، وعاداته ، وقيمه الفنية ، ويمكن ان يكون نموذجا للفن القصصي بعقدة القصة الحديثة ، وحبكتها ، وبداياتها، ونهاياتها . ولولا سهولة اللفظ فى هذه القطعة الشعرية، ويسر معانيها لاخترنا عوضا عنها ، من شعر لبيد ، ومن شعر امرىء القيس ما هو ادق تمثيلا للفن القصصي فى الشعر الجاهلي .

وبرغم ذلك فاننا لا نذهب شططا فى القول بأن الفن القصصي كان احد فنون القول فى تاريخ الادب العربي. فان الثقافة العربية لم تبلور هذا الفن لتعبيرها

الرفيع الا حديثا ، يعكس الادب الاغريقي الذي حفلت معطياته الادبية بالقصة المسرحية الشعرية . الا ان الامر لا يتعلق وجودا وعدما للفن القصصي عند امة من الامم القديمة او الحديثة بمقدرة خطب في المخيلة او بمحلها ، ولا هو دليل على عبقرية العقلية او ضعفها . فالقصة في راي نقادها ـ ومن بينهم ـ توفيق الحكيم ـ لا تزيد على كونها تصويرا للانسان في حياته ، بينما باقي فنون القول من شانها تصوير الفكر في حياة الانسان ، ولذلك فان معطى القصة لا يبلغ في حد ذاته شمولية ادبية ليكون دليلا على خصب الخيال وعبقرية العقلية . ولكن التقدير الحق ـ فيما نراه ـ لعدم توافر الفن القصصي في الادب العربي القديم ، هو ان حياة الانسان العربي لم تفض الى التعقيد الاجتماعي في العصر الجاهلي وفي العصور التالية بعده ذلك ان التعقيد هو الذي يخلق للفرد حياة ذات اشكال ضمن الجماعة المحيطة به .

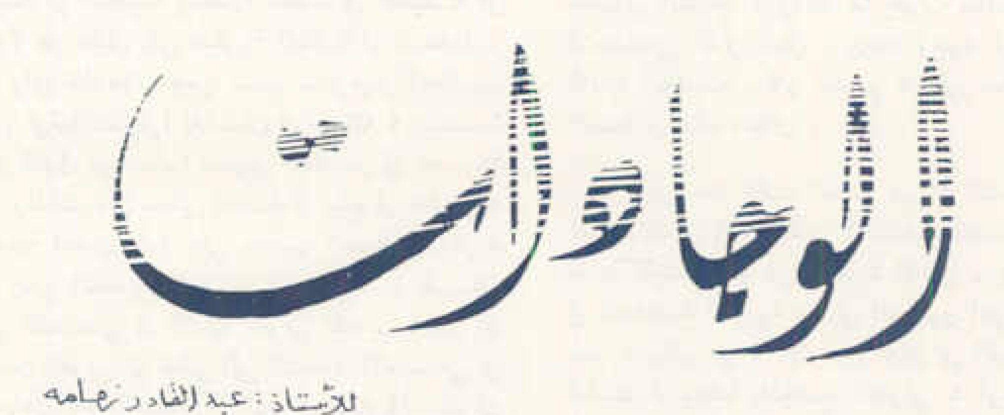
وحينما قارب المجتمع العباسي مرحلة التعقيد، بطبيعة الامشاج التي حملت الى مجتمع الدولة الاسلامية قيمها المختلفة ، وانماط تفكيرها وتقاليدها ، وعاداتها المسلكية ؛ فان الفرد في ذلك المجتمع لم يكن قد نيطت بشخصه الاهتمامات الاجتماعية لمجرد انسيته . ولذلك ظل شانه مثلما كان في المجتمع القديم بشبه الجزيرة مربوطة اهميته باندماجه وسط قومه . ولذلك لم تتخذ حياة الانسان العربي موضوعا لفن القول . وعلى هذا الاساس لم تولد القصة فنا للقول الى جانب الشعر ، وظل الشعر في العصر العباسي كما سبق ان كان قبل ذلك : فان القول المعبر عن الوجدانيات التي تلازم ضياع اهمية الفرد في خضم قومه .

ويوم ان ارتبط تعقيد مجتمعنا الحديث ببروز قيمة الفرد لانسان ذي ابعاد ، وشخصية مستقلة في نطاق المجتمع ، اصبحت القصة فنا ادبيا ذا كينونة بذاته . يتطلبه وسطنا الثقافي الحديث ليعبر به عن احداثه المتلاحقة التعقيد ، واجدا فيه اداة ضرورية لتحليل قضاياه الفكرية والاجتماعية . لان مجتمعنا الحديث تطور من بيئة بسيطة الى بيئة مركبة، اصطدم فيها الفرد منا نتيجة توسع افق التعليم بتيارات اجنبية جعلته في حيرة من امره ، بين ان يظل متشبثا بتربيته البسيطة ، وبين ان يعتنق المفاهيم الاجنبية الفازية وفي هذه الحيرة بين التشبث بالتراث ، والاعتقاد في الحضارات الدخيلة ، ذات المذهبية المختلفة ، يقف الفرد في بيئتنا العربية موقفا مضطربا ، مجهول النتائج ، وذلك ما يقرب معنى التعقيد الاجتماعي الذي نعلل بوجوده وجود فن القصة ، في الادب الحديث . لان الشعر لا يفي بما يفي به فن القصة في هذه الحال .

ومن هنا كانت القصة وريثة الشعر في عرش الفن ذلك ان الفن الذي لا ينهض بقصد خدمة الانسان لغاية المجتمع هو فن محدود الاجل . ولقد قام الشعر في الجاهلية العربية ، وفي العصور التي بعدها بدور مهم ، ولكن موجة الشك والقلق في القيم الخلقية التي اعقبت ارتباطنا بالمجتمع الدولي ، أوجدت تعقيدا اجتماعيا حول انظار الادباء المبدعين من الشعر الى القصة . وهذا التعليل الذي نستنتجه وننشره بين طلاب آداب الجامعة منذ سنة 1958 لا نعرف احدا ذكره قبلنا . ولذلك تراتا لا نشير فيه الى مرجع . وبعد ، فانه لا يجوز أن يهمل السؤال عن سبب غياب القصة في الادب العربي القديم من غير ان ينوه بأن العرب قد ابدعوا في الشعر بما لم يبلغه ادب امة اخرى في عصرهم . فقد تفننوا في اوزانه ولونوا في موسيقاه، وتفقوا من نظمه ، واطربوا في الغناء به ولم يقل احد ان هذه العبقرية في الشعر عند العرب مدعاة الى انتقاص عبقرية من لم يماثلهم فيها من الامم الاخرى ، ولا لشيء انتقاصها ، الا لكونها امة لم تنبغ في الشعر .

وعلى هذا فانه ليس نقصا بالمقابل في الانتاج الادبي القديم لدى العرب أن لا يكون من بين فنونه الفن القصصي ، فالقصة في راي نقادها كما قلنا لا تزيد على كونها تصويرا للانسان في حياته ، بينما باقي فنون القول تصور الفكر في حياة الانسان . وقد كان للعرب من فنون القول التي تصور الفكر في حياتهم ، فلما ان اصبح للانسان في المجتمع العربي حياته ذات الابعاد الانسية ، نشا الفن الذي يصور حياته . واصبح الفن القصصي على راس فنوننا الجميلة في الادب الحديث المعاصر ، وانه المجتمع الخضم ، ذو القيم والموازين المتقلبة المتجددة كل حين .

الرباط : جعفر الكتاني



للأستاذ: عبد القادر زمامه

275 — فى مدينة تطوان

وجدت فى كناشة ابن حسون الوزاني قطعة من شعر علي مصباح فى مدينة تطوان يقول فيها :

قف العيس اياما فهذى بلادهـــا
تعاهدنا بالبشر فيهـا عهادهـــا

لئن شاق حب العامرية قيسهـا
لتطوان ليلى مهجتي وسعادهـــا

دمشق مغانيها . وزور قصورها
وحتف عوالبها . وربح جيادهـا

ونجد اراضيها . اسـود رجالهـا
نجوم دراريها شموس خرادهـــا

ارى ارض تطوان تضوع نشرها
وامواهها يطوي الهموم اطرادهـا

فسقيا لها من بلـدة هضباتهـا
مناخ لاثقال العـلا ووهادهـــا

هي الخال فى وجه المدائن لم تزل
عليها من اثواب الجمال جوادهـــا

276 — شينـــات الربيـــع

وجدت فى مخطوطة كتاب انس السميـــر فى نوادر الفرزدق وجرير للشاعر علي مصباح ... !

« قلت : ولم اقف لهم الآن على شيء فى الربيـــع ... وهو احق الفصول بأن يجعل له بعض ذلـك .. فجعلت له « شينات » سبعا وقلت فى ذلك :

اذا ما اتى فصل الربيع وجدتني
اخا سبعة وقف عليهن المحاســن

شواء : ومشموم ! وشرب مدامة
وشبابة ! شعر ! وشاد وشادن »

277 — قصر « الربيـع » بمراكش

اذا كان الزمان قد احتفظ ببعض مآثر قصـــر البديع الذي شيده المنصور الذهبي بمراكش ... ! فان الشاعر حسن الفكون القسنطيني قد احتفظ لنا ببعض اوصاف قصر « الربيع » الذي بناه الموحـــدون بها ... بقصيدة رائعة يقول فيها : (1)

عشونا الى نار « الربيع » وانمـا
عشونا الى نار الندى والمحلـــق

---

1) عنوان الدراية ص : 203 — الطبعـة الاولى .

ركبنا بواديـــه جيـــاد زوارق
نزلنا اليها من ضوامـــر سبـــق

وخضنا حشاه والاصيل كانـــه
بصفحته يبدي مـــروق زئبـــق

278 — حوت الماء من حوت النجوم .. !

ووجدت من شعر حسن الفكون الذي رحل من قسنطينة الى مراكش ونزل ضيفا على الموحدين .. يصف نزهة معهم فى زورق ... وقد ارخـــى الليـــل سدوله ... (1)

تشكلت الكواكب فيـــه حتـــى
جرت فى قعره شهب النجـــوم

واشكل منظرا علـــوا وسفـــلا
من الفلك الاثيـــر الى التخـــوم

فما تمتـــاز ارض مـــن سمـــاء
وحوت الماء من حوت النجـــوم

279 — اعقيبـــــت

وجدت فى مقال نشر بمجلة المغرب جوان 1936
« وفى رحلة ابى علي اليوسي .. ! وهـــي من جمع ولده ... لما تكلم على ضريح عقبة بن نافـــع وترجمته .. ويقال انه بلغ الى اقصى المغرب .. ! وبلغ وادي درعة .. ! واليه تنسب القرية المدعـــوة اعقيبت ... ! بخميس تنزلين ... !!! »

280 — ثـــلاث شينـــات

وجدت فى كتاب (نزهـــة الانظـــار) المطبوع بالجزائر سنة 1908 عند ذكره للشيخ عبـــد الحـــق الاشبيلي دفين بجاية .

« وكانت تأتيه امته مرارا فى يوم واحد لمجلس درسه تطلب دراهم .. ! فلم يخيبها قط .. ! فقال له بعض تلامذته : هذا كثير يا شيخ ... ! فاجابه ... استحيي ان تجتمع فى ثلاثة شينات شيـــخ ... ! وشحيح ... ! واشبيلي ... !!!

1) المصـــدر السابـــق — ص : 204 .

281 — قـــل احد عشـــر

فى الروض المعطار ص : 196

« وقش : قرية بثغر الاندلس ينسب اليها ابـــو الوليد هشام بن خالد الكناني الوقشي من اهل طليطلة ولي قضاء ، طلبيرة . وعني بالهندسة والمنطق مليح النادرة .. ! ذكر انه اختصم اليه رجـــلان : فقـــال احدهما ... !

— يا فقيه . اشتريت من هـــذا اثنى عشـــر تيسا حاشاك ... !

فقال له القاضي :

— قل احد عشر ... !!

282 — جزيرة التوبة ... !

فى الروض المعطار ص : 64

« التوبة : جزيرة بالاندلس على البحر المحيط قد احاط بها خليج . وهي مأوى للصالحين .. ! ورباط لاخيار المسلمين ... ! وبها آبار عذبة ... يعتملون عليها من اصناف البقول ما يقوم لمعاشهم مع مرافق البحـــر ... !! »

283 — لطالب صناعة العود

وجدت فى احدى المجامع رسالة لطيفة فى موضوع طريف عنوانها :

« تحفة الودود لطالب صناعة العود » الفهـــا الاستاذ الميقاتي الشهير عبد العزيز الوزجاني بمدينة وزان ... ! واهداها لابي العباس احمد بن الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف ... ! »

284 — سوى معنى القطيعة والفراق

وجدت فى كتاب (زهر الافنان) ج 1 ص 66
« وما احسن ما الغز صالح بن شريف الرندي فى الحكمين ... حيث قال :

ومصطحبين ما اتهمـــا بعشـــق
وان وصفـــا بضـــم واعتنـــاق

لعمر ابيك ما اجتمعا لمعنى
سوى معنى القطيعة والفراق

285 — ابو عنان الاندلسي .... !!

من الغرائب التاريخية المتعلقة بالمغرب ما وجدته فى كتاب (هدية العارفين) لاسماعيل باشا البغدادي

« ابو عنان الاندلسي .. ! فارس بن ابن الحسن علي بن عثمان المريني من ملوك الاندلس ... !! المتوفى سنة 759 هـ من تصانيفه الدرة السنية .. ! والوسيلة النبوية (1) »

286 — يوس ... ! قبيلة من البربر .. !!!

ووجدت فيه ايضا عند ترجمته لابي علي اليوسي:

« ابو علي الحسن بن مسعود اليوسي. نور الدين ابو الوفاء المغربي ... يوس بالضم قبيلة من البربر ... !! »

287 — ولا كلب يراني ... !

فى فهرسة ابى حسون الوزاني عند ترجمته لشيخه الحاج الداودي التلمساني .

اجتمعت به فى بعض الايام ببلد الجاينة ... وقامت الصيادة فخرجت ارنب .. ! وقام الصيادون

(1) انظر الجزء الاول ـ العمود رقم : 3 / 8 .

يجرون عليها وكلابهم تسارع اليها ... فقام لربوة يستشرف عليها فتبعته فجعل ينشدني :

قالت الارنب بيتا
حوت جميع المعاني

ليتني لم ار كلبا
ولا كلب يراني

288 — واخبروا باثنين او باكثر ... !

ووجدت فيها ايضا عند ترجمة ابي حسون لشيخه احمد المرنيسي .

« وقعت له حكاية مع سيدي الحاج العربي .. وهي انه اعطاه حلة ... وقال له : هذا المبتدا وسياتي الخبر ... !

مبتدا زيد وعاذر خبر
ان قلت زيد عاذر من اعتذر

فأجابه الشيخ احمد المرنيسي على الفور ... !

واخبروا باثنين او باكثر
عن واحد كهم سراة شعرا

فضحك الشيخ وواصله مرتين .... !!! »

فاس : عبد القادر زمامة

جئنا لنشهد أمة غلابة ..

للأستاذ الشاعر الحبيب المستاوي

أتيحت لمدير مجلة « جوهر الاسلام » الاستاذ العالم المصلح السلفي السيد الحبيب المستاوي فرصة زيارة المغرب فى الصيف الماضي اطلع خلالها على مشاهده ، ومآثره وامجاده ، وقد كان موضع حفاوة وتكريم من طرف وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية .

وبهذه المناسبة فقد جادت قريحته المعطاء بهذه القصيدة الرائعة المومنه التي أعطت للمغرب ورجاله كل تقدير واعجاب .. كما كانت تحية ود واكبار ووفاء للشعب المغربي الشقيق ولمليكه العظيم جلالة الحسن الثاني نصره الله أوحت بها المشاهد الخالدة والخوافق الصامدة والعظمة الاسلامية التي غالبت الزمان فغلبته واستحقت الخلود والتمجيد ... :

سبحت بنا فى الجو اخت حمام ... (نفاثة) محفوفة بسلام

تطوي السماء بخفة وبدقة ... فتخالها برقا بدا بغمام

صنعت لتختصر البعيد فيلتقي ... اهل المحبة من بني الاعمام

قطعت مسافة اشهر فى ساعة ... عجبا رايت ، وما أنا بمنام

اين الفدافد ؟ والسباسب ؟ اين ما ... شاهدته من بعدها المترامي

طويت كما يطوي السجل كتابه ... فيلفه ، ويحاط بالابهام

لله كم بالعلم حقق مارب ... للعاملين بحكمة ودوام

— ◆ —

جئنا لمغربنا الشقيق واهله ... ومليكه (الحسن) العظيم الحامي

جئنا لنشهد امة غلابة ... فشعارها شمم ورفع الهام

جئنا لنشهد امة عربية ... زحفت تشيد محكم الآجام

بقيادة علوية منصورة ... تنمي الى الشرف الصميم الخام

انى توجهنا رأينا نهضة ... تبنى بجد صادق ونظام

الارض تنتج والسماء كريمة ... والشعب يعمل دون ما ارغام

والامن يسحب ذيله متخطرا ... فى حلة فضفاضة الاكمام

اما المآثر والمشاهد فهي قد ... نقشت بلوح ما يزال امامي

ولقد وقفت بكل ثغر خاشعا ... وقرات ما يحويه من الهام

(فالاطلس) الهدار يحكي مده ... صور العزيمة من بنى الاسلام

وجباله الشماء مثل جدودنا ... وصخورها كالدرع والآطام

ومن (الرباط) وثغره وقلاعه ... هبت ليوث الكر والاقدام

و (مراكش) الحمراء سفر خالد ... سكن (الجزولي) بها بخير مقام

وبها (عياض) و (ابن تشفين) الذي ... شاد العلى بالعلم والصمصام

فيها (السهيلي) حوله اجدادكم ... صدقوا فنالوا غاية الاكرام

والفاتح المبرور (ادريس) الذي ... نشر الهدى وقضى على الاوهام

كان المهد للذي قد شاده ... نجل سمي عاش كالايتام

لكنه والنبل منبت اهله ... شق الطريق بهمة المقدام

منه (الادارسة) الكرام و (فاسهم) ... بلد العلوم وموطن الاقوام

فيها جهابذة النهى قد خلدوا ... مجدا بحد السيف والاقلام

من معهد ضرب الجذور مكينة ... فى العمق رغم تنكر الايام

والشيخ (احمد) بالتصوف حزبه ... حمل المشاعل للهدى البسام

قطع المجاهل والفجاج مبشرا ... لا دعم الا رحمة العلام

والجد (اسماعيل) فى (مكناسه) ... قهر العدى ببسالة الضرغام

واذاقهم (بعرايش) و (اصيلة) ... و (بطنجة) الميساء كأس حمام

وجهاده المشهور فى (مهدية) ... ترك العدى تحت الردى كحطام

و (بسبتة) و (مليلية) وسواهما ... هبت جحافله ليوث صدام

وحفده بحر العلوم (محمد) ... بطل (الجديدة) قاطع الآثام

ثغر (الصويرة) ما تزال تلاعه ... سدا بديع الصنع والاحكام

و (بطنجة) الفراء جال بناظري ... جيش (بطارقه) وكل همام

يزجي البوارج والسفين ميمما ... قلب (الجزيرة) دون ما احجام

الفتح مطمحهم وجنة خالق ... وكلاهما للنفس خير مرام

واذا النفوس سمت مشاعرها فلا   تثني ببحر او بحد حسام

المخلصون المومنون مقامهم   عند الاله يفوق كل مقام

لا يغلبون ولا يذل عزيزهم   ابدا فهم فى وحدة ووئام

هذا طريق الفاتحين ونهجنا   وعليه حرضنا ذوو الاحلام

من مثل والدك العظيم (محمد)   فخر الملوك وسيد الاقوام

من قد ورثت خصاله وكماله   فسطعت فى العلياء بدر تمام

وحفظت عنه نضاله ووفاءه   قبل الخلافة وهي مسك ختام

زينتها بالعلم والعقل الذي   اوتيته من خالق الافهام

واعدت للدين القويم بهاءه   ورفعت قدر شيوخه الاعلام

عرق النبوة نابض فى انفكم   يا ابن (البتول) بلغت كل مرام

الملك عدل والشعوب وديعة   والحب يجرحه عنيف ملام

من صانه لا شك سوف يصونه   ابدا فيضحي فوق كل خصام

يا ايها الملك المنيع جنابه   اسلم لشعبك حافظا للذمام

ارجع به نحو الاصالة انها   اصل الخلود ومرهم الاسقام

واذا تنكر للاصالة أرعن   فهو الدعي وانفه لرغام

يعطيه من فتنوه اي قمامة   ويذاد كالمجذوم عند طعام

والفتنة الصماء تغوي معشرا   هم كالخنافس فى دجى الاظلام

فترى الفتاة خليعة مرذولة   ممسوخة فى الشكل والهندام

وترى الفتى متخنثا متشبها   بالمانسات وساخرا بملام

خلع العذار ولم يخف من خالق   ابدا ولم يمسك بأي زمام

زحفت قشور حضارة مزعومة   نحو الشباب فغاب فى الاوهام

الدين والسلطان خير وسيلة   للردع والاصلاح والالجام

فهما وسيلتنا التي تمحي بها   امجادنا من عابث متعامي

لا شيء يعدل ملة لمحمد   فى قطع اصل الشر والاجرام

حفظت بقرءان كريم خالد   جمع الهدى والعلم دون زحام

نفع البرية كلها متفضلا   بنظام حكم فاق كل نظام

فيه الغنى عن زائف مستورد   لا يستوي ابدا على الاقدام

من حكم العقل الرصين مجردا   وافاه ما يرجوه من انعام

وأزاح عن وجه الحقيقة غيبها   كم يختفي حسن وراء لثام

الفطرة البيضاء دين (محمد)   وهي النمير العذب غب أوام

لا عيب فى الاسلام الا انه ... قيد يكبل سورة الظلام

لا عيب فى الاسلام الا انه ... نوع من التقييد والالزام

لا عيب فى الاسلام الا انه ... قد ثار ضد عبادة الاصنام

سوى عباد الله فى انسابهم ... فاذا التقى اصل لكل تسامي

جهل العباد بسره وكنوزه ... جعل العباد تعيش كالانعام

لو فجرت طاقاته بين الورى ... لتفيأ الانسان ظل سلام

اضحى غريبا بين من عرفوا به ... والحق يغمط من ذوي الارحام

— ◆ —

هلا اعدتم يا مليك بناءه ... فى الحكم فى التعليم فى الاعلام

فى كل شيء من حياة شبابنا ... فى الشكل فى المضمون فى الافهام

حتى تكونوا اسوة نبوية ... انتم لها والله خير امام

وهناك يمكن ان نحرر (مقدسا) ... ونذود عنه زعانف الاقزام

وهناك يمكن ان نوحد امة ... بالدين ان الدين خير حزام

لا فرق فى الاسلام بين جنوده ... لا فرق بين العرب والاعجام

— ◆ —

هذا الذي قد قلت زاد مسافر ... يكفيه ما قد جاء من العام

ولعل عذري ان سمحتم ظاهر ... ولقد عهدتم من كرام كرام

وتحية من شعب تونس كله ... (وزعيمه) ورجاله الاعلام

ومن الذين تتلمذوا عن (فاضل) ... وتشربوا اهدافه بغرام

من شيبهم وشبابهم (وامامهم) ... من كل اسرة (جوهر الاسلام)

تونس : الحبيب المستاوي



حمامة الا بك قد حركت احزاني ... وهجت شوقي الى جنات تطوان

تلك المغاني التي ما كنت اعرفها ... لولا هواك ولولا طرفك الجاني

وهبتها سرف حبي واستعدت بها ... شرخ الشباب واضحت موطني الثاني

اسلمت قلبي الى دنيا معطرة ... اشذاؤها فاذا بي جد نشوان

بلا مدام ولا كاس ولا وتر ... يهز سمعي ولا ساق ولا حان

وانما سكرة لاصحو يعقبها ... وغفوة لم تطب يوما لانسان

ودعت فاسا ولكني وجدت هنا ... اهلا كأهلي واخوانا كاخواني !

لم اسل فاسا وفي قلبي مباهجها ... ومن مناهلها علمي وعرفاني

وذكريات عزيزات اذا اضطرمت ... فقدت من حرها صبري وسلواني

مروجها الخضر في قلبي تطيف به ... عرائسا ورباها ملء اجفاني

اني التفت رأت عيناك رائعة ... او فتنة طلعت في وجه انسان !

صليت لله في محراب فتنتها ... وتاه في افقها فكري ووجداني

بيني وبين القوافي جفوة نضبت ... فيها منابع الهامي والحاني

حتى ذكرتك فانقادت شواردها ... الى هائمة تسعى لهيمان

— ◆ —

ذكرتها فذكرت العلم دافقة ... حياضه تتحدى كل ظمآن

عاشت بجامعها بغداد ثانية ... واحتلت الضاد فيه خير بنيان

غصت جوانبه الفيحاء وامتلات ... رحابه بقصي الدار والداني

فبوركت يد من ارسى قواعده ... وبورك الفارس الميمون والجاني

غابت رؤى البيت وانحطت منارته ... وعاد ميتا ولكن دون اكفان

لا صوت للعلم يعلو في منابره ... ولا عمائم كم ازرت بتيجان

ذكراه في القلب جرح لا يعادله … الا جراح دوام في حزيران !

اذا بكى الناس من شادوا مبانيهم … بكت عيوني انا المبني لا الباني !!

رات عيوني في فاس وجامعها … ما لن تراه بفاس بعد عينان !

ناحت بقربي في تطوان نائحة … ولست اعذر من يبكي بتطوان

قالت وغطت بمنديل محاجرها … دعني فان الذي اشجاك اشجاني

في القلب اكثر من جرح اضمده … فضع قريضك من آهات احزاني

مسحت ادمعها حتى اذا رقات … غسلت منديلها من دمع اجفاني

واسحر « مارتيل ! » والدنيا معربدة … تضم نشوى الى احضان نشوان

من كل مائسة الاعطاف ناعسة … تندس في الرمل في طيات ثعبان

يهفو الحليم اليها وهي نافرة … كانها افلتت من سجن رضوان !

غضضت طرفي عن دنيا مفاتنها … وقد بدت ملكا في زي شيطان

القت غلائلها حواء وانتصبت … في الرمل عارية في ظل تبان !

يا للرمال ! وفي احشائها لهب … يغلي كقلب محب ظاميء عاني

تدعو المحبين في شوق وفي لهف … الى حناني ! الى دفيء واحضاني !

والشمس ترنو باعجاب وقد خضبت … بنورها كل مفتون وفتان

— ◆ —

احبب « بمارتيل » مصطافا ذكرت به … اميسيات حبيبات بافران

والشيب لم تبد في افقي لوامعه … والعمر غض الحواشي جد ريان

كانت روائع ايامي التي غمرت … بالنور قلبي ! انساها وتنساني ؟

ويا مرابعنا الخضرا بنهر سبو … اهدى لنرجسك المعطار الحاني

اسقيك بالحب لا بالدمع اسكبه … ولا بغيث على واديك هتان

رعيا لتلك المغاني كم شدوت بها … مع البلابل في الاسحار الحاني

على بساط ربيعي ارائكه … خمائل الزهر او اطواق ريحان

وللبلابل آيات ترتلها … على منابرها ترتيل قرءان

وحولنا من صبايا الحي كوكبة … تكشفت عن شموس فوق اغصان

كانت معاهد ايناس نعمت بها … فاصبحت وهي اصداء لا زمان

اني ذكرتك والايام تاكل من … عمري وتنسج تابوتي واكفاني

وللنوائب حولي زحمة عصرت … قلبي وان عجزت عن عصر ايماني

يتيه بي زورق تجري الرياح به … هوجاء من غير مجداف وربان !!

تطوان : محمد الحلوي

دموع الذكرى

للشاعر محمد بن علي العلوي

اتيت ضريح النور والمجد باكيا ... وزرت ابا الاحرار قبرك رائيا

وجئت الى المثوى المقدس خاشعا ... عسى القرب يشفي او يخفف ما بيا

وهاجت لي الذكرى جراحا عميقة ... فيا ويح نفسي فالجراح كما هيا

وفجرت الذكرى مدامع مهجتي ... ففاضت كما شاء الشعور مراثيا

واسبلتها من منبع الحب والوفا ... وجئت بها القبر الشريف مناجيا

ولولا هوى بالقلب ما سال مدمعي ... ولولا اسى بالنفس ما كنت باكيا

ابى الدمع ان يبقى لدى الجفن بعدما ... هوى النجم من عليائه متواريا

فيا ويح نفسي قد قضى الشهم واختفى ... وولى الذي قد كان يسدي الاياديا

فما بكت الاحداق يوما كمثله ... سوى جده المختار من جاء هاديا

فلله عين ارسل الدمع جفنها ... ولله قلب كابد الجرح داميا

دعوا القلب يبكي ما يشاء لعله ... يخفف بالدمع الهتون الدواهيا

فما اعظم الدمع الهتون تصوغه ... عواطف قلب للخلود معانيا

دعوا القلب يبكي فالذى فقد الحمى ... أعاد له استقلاله والامانيا

يعز علينا ان نرى الشمس تختفي ... وننظر بحر الجود فى الرمس ثاويا

وبالامس كم مدت الينا اشعة ... وكم نشرت نورا يبيد الدياجيا

عزيز علينا ان نراك ابن يوسف لدى القـ ... ـبر تقضي فى ثراه اللياليا

ولو خير الرحمان شعبك فى الذي ... قضاه اتاك الكل بالنفس فاديا

ولو كانت الاقدار تقبل فدية ... لما ابصرت عيناك فى الشعب باقيا

ولو كانت الاقدار تسمح بالفدا ... تسابقت الارواح تفدي الفدائيا
الست الذي ضحى بعرش واسرة ؟ ... وقاد من المنفى كفاحا مثاليا
فديت الحمى بالنفس والعرش ثائرا ... واوقفت بحرا بالمكايد طاميا
وبددت اطماع الاولى تهبوا الثرى ... وايقظت من قد كان يحلم غافيا
ويوم اتاك (الجنرال) منفذا ... جريمته الشنعاء يهوى المعاليا
راى منك فذا فى البطولة مفردا ... وابصر شهما لا يهاب المنافيا
راى بطل التحرير كالطود شامخا ... يرد عن الاوطان من جاء باغيا
وابصر شهما لا يلين وعاينت ... لواحظه عزما يدك الرواسيا
راى بطلا ما ابصر الدهر مثله ... كاطلسنا الجبار يشمخ عاليا
فلله من راس يتوجه العلى ... ولله من نفس تصارع طاغيا
مواقف مالك بيضت وجه مغرب ... واقنت الاشرار درسا فدائيا
وجن لها (كيوم) بل طار لبه ... فحقق ما قد كان من قبل ناويا
وابرز للدنيا جريمته التي ... ابانت من الاحقاد ما كان خافيا
وظن بها المغرور ان نال رفعة ... وما نال الا خيبة ومخازيا
فلا (مرشال) السوء نال مراده ... ولا (جنرال) البغي نال المعاليا
ولا المكر اجدى من تجبر واعتدى ... ولا النفي والابعاد اجدى الاعاديا
ورد اليك الله عرشك شامخا ... وحققت للاوطان ما كنت راجيا
وجئت بالاستقلال والمجد للحمى ... ونال بك الشعب الوفي الامانيا
وعدت الى العرش العتيد مظفرا ... تحقق آمالا وتسدي اياديا
وكنت لدى التحرير امهر قائد ... فكسرت اغلالا واطلقت عانيا
الا ايها القبر الذي ضم فرقدا ... ونجما مضيئا عالي القدر ساميا
عليك من الاعماق الف تحية ... تضم ضروبا فى الوفا ومعانيا
ولو كان بالامكان جعل عيوننا ... فراشا بسطنا للفقيد الماقيا
ولو كان بالامكان جعل نفوسنا ... فداء اتاه الكل بالنفس فاديا
ولكنها الاجال حين دنوها ... فلا شيء يثني او يؤخر دانيا
اذا حكم الرحمان فالكل خاشع ... لما قدر الرحمان بالحكم راضيا
وحل قضاء الله فاهتزت النهى ... وزازلت الاوطان تندب حاميا
واذهلنا الامر العظيم فلم نطق ... ولم نستطع الا البكا والمراثيا
ظننا الحمى قد ضاع بعد محمد ... ولكن لطف الله هيأ ثانيا
فلله نجم غاب مكتمل السنا ... والله نجم قد سما متلاليا

فقاد الحمى نحو المفاخر والعلى ... وروانا بين الشعوب المعاليا

به بزغ الفجر الذي نشر السنا ... ونور آفاق الحمى والنواحيا

واشرقت الاوطان بالحسن الذي ... لخير الحمى والشعب يعمل داعيا

اذا ما بنى سدا لخير فلاحة ... تراه لخير الفكر يعلي المبانيا

وان شيدت يسراه للشعب معملا ... تحركت اليمنى تنمي المراسيا

وما زالت الاوطان تعتز بالذي ... حباها من الدستور عقدا مواتيا

فلا زلت يا مولاي كالشمس ساطعا ... ولا زلت يا مولاي كالشمس هاديا

فعش للحمى والشعب والعرش والعلى ... ودم لحمى الاخلاق والدين حاميا

وعاش ولي العهد والاسرة التي ... تفوق الثريا رفعة ومعانيا

فاس : محمد بن علي العلوي

موكب الأعياد ... أم موكب ذكرى ...

للشاعر مغدي زكرياء

— 1 —

اى عيد بارك التاريخ يومه — فاذا الاكوان افراح وبسمه

واذا الانسام اوتار ونغمه — واذا الاقدار الطاف ورحمه

لست ادري يامحمد : اي عيد يتجدد ؟ اي فجر يتولد؟

عيد ميلادك ، ام ميلاد امه ؟

— 2 —

موكب الاعياد ... ام تمجيد ذكرى؟ — اى عيد غمر الآفاق بشرى ؟

اى عرس ضمخ الارجاء عطرا — اى صبح فى الليالي المدلهمه ؟

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتولد ؟ لست ادري يا محمد

عيد ميلادك ، ام ميلاد امه ؟

— 3 —

ما الذي ايقظ احلام السكارى ؟ (1) — اى بدر لاح فى ليل الحيارى ؟ (2)

ويمن لوح فى دنيا النهارى — يتسامى شامخا يحمل رسمه ؟

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتولد ؟ لست ادري يا محمد

عيد ميلادك ، ام ميلاد امه ؟

---

1) احلام المستعمرين السكارى بالاوهام .

2) اشارة للاعتقاد الذي كان ساريا ومتواترا فى ان القمر انشق عن صورة جلالة محمد الخامس .

— 4 —

اى صقر خطفـــوه من ذرانــــــا | اى نسر قنصـــوه من حمانــــــا
فسبحنا فوق نهــر من دمانـــــا | وحفظنا لبناة المجــد ذمـــــه

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امــــه ؟

— 5 —

يوم (عشرين) هزمنا الحدثانـــــا | واردنا ... فتحدينـا الزمانــــــا
وكسبنا ـ يوم صممنا ـ الرهانـــــا | وبلغنا فى العلا ارفــع قمــــــه

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امــــه ؟

— 6 —

انما المجــد كفـــاح وثبـــــات | ادن للموت تحالفــك الحيـــــاة
واركب الاخطار تلقفــك النجـــاة | من هفا للنور لا يرهــب ظلمــــه

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امــــه ؟

— 7 —

انا فى عيدك يا شعــب أغنــــي | من ولي العهد انغامي ولحنــــي
من مليك لم يزل للمجد يبنــــي | يلهم الاجيال تدبيــرا وحكمـــــه

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امــــه ؟

— 8 —

صانع التاريخ ، والعهد الجديــــد | وارث الرشد ، هنيئا بالرشيــــد
لاح فى الاعياد كالصبح الوليـــــد | حل من قدر فى (العشرين) يومه !

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امــــه ؟

— 9 —

انه عيــد الامانــي والبشائـــــر | لبلاد ابدعتهـــا يــد ساحـــــر
من جمال صاغه الهــام شاعــــر | فى نشيد (حسن) ابدع نظمــــه

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امــــه ؟

— 10 —

موطن العز ، ومهـد العبقريـــه   من ذمـــام طاهــرات علويـــه
وسجايــا ، نيــرات عربيـــه   وبطــولات واخــلاص وهمـــه

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امـــه ؟

— 11 —

مصنع للمغرب الحر الموحـــــد   وحدة تبنى ، واركــان تشيـــد
(حسن) دعم بنيــان محمـــد   ومضى فيه ، وآلــى أن يتمـــه

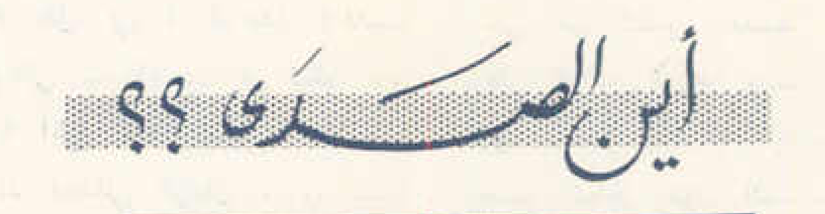
اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امـــه ؟

— 12 —

انا من غنيت بالوحـدة عمـــري   وسما فى حبها فني وشعـــري
اترى تسعدنــا ليلـــة قـــدر   ان سالنا الله فى توحيد امـــه ؟

اى عيد يتجدد ؟ اى فجر يتمدد ؟ لست ادري يا محمد
عيد ميــلادك ، ام ميـــلاد امـــه ؟

مفدي زكرياء



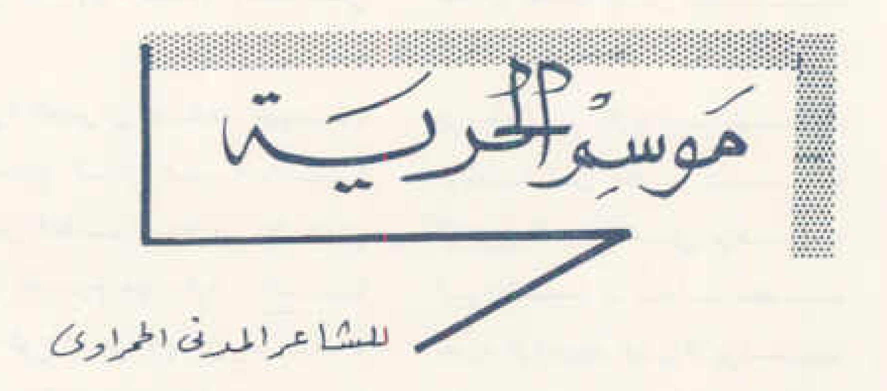
للدكتور الشاعر عبد المنعم خفاجي

كل احلامك عادت سدى — لا تقل لي : اين اين الصدى ؟
ذهبت كل المنى بددا — ومع اليوم كرهت الغدا
لم اجد لي في الورى مسعدا — لست في الناس ارى احدا
وسواء عشت ايامي الـ — آتيات ام لقيت الردى
انا لا احيا حياتي ولا — اتمنى وجهها ابدا
لست للاحباب ارضى حيا — تي ، ولا انشدها للعدا
لا تقل لي : لم هذا ؟ فهـا — هو امري يفزع الحسدا
اقطع الايام يأسا وليـ — ـلاتها اقطعها سهدا
وارى كل اماني هبا — ءا ، وما اجمعه بددا
واذا اغفيت افزعني — ان ارى كل الرؤى شردا
ليتني ما عشت ايام عمـ — ـري كئيب النفس منفردا
ليتني ما عشت ارعى النجـو — م ، وارعى بينها الفرقدا
هو قد اشبهني عـزة — واسى ثم جنى الحسدا
ليتني كنت جمادا ، وكنـ — ـت باعلى جبل جلمدا
ليتني كنت على اليم ، كنـ — ـت على امواجه زبدا
ليتني كنت على فم كل — العذارى – يا اخي – موعدا
ليتني كنت على الدوح او — في الروابي بلبلا غردا
ليتني كنت على زهرة — قطرات حلوة من ندى

لا اب خلف للبؤس والنـــــ	ـــحس في عيشته ولــــدا
لا ، ولا ام رعت وغــــذت	في دجــى ليلتهــا كبــــدا
لا ، ولا شيخ بآخر ايـــــ	ـــامه في عمــره جهـــدا
لا ، ولا طفل يلاقـــي على	كل ما صادقه عقـــدا ..
لا تقل لي : لم هذا ؟ فانـــ	ـــي من الناس نفضت اليدا
وكاني ـ آه ـ في قمقم ..	وعلى الباب قـد وصـــدا
يا اخي تلك شجوني تعيـــ	ـــن وتحيا بيننـا ابــدا
قد تحداني الزمان ، ومــا	يصنع العاجز طول المـــدى
ربما تأتـي الليالـي بمـــا	بهر الحلـم بـه الامــدا
ليس في الدنيا محال ، وما	يعجز الساعة يأتـي غــدا

د. محمد عبد المنعم خفاجي





عمت البشرى ، وتم الارب ... وأتى اليوم الذي يرتقب

وغدا كل فؤاد خافقا ... داعب الاعماق منه الطرب

وبدت غر المنى وضاءة ... فهي في افق المعالي شهب

وصحا الاطلس من غفوته ... فراى حوله دنيا تعجب

فالبرى يسكب من ذروته ... منبع المجد الذي لا ينضب

منشدا قصة شعب خالد ... هي للاجيال لحن مطرب

فتغشت كل عقل سكرة ... قد تساوى الابن فيها والاب

اذهلت ام الفتى عن طفلها ... فغدت في طفلها لا ترغب

وسلا كل محب بعدها ... وانتفى عنه الجوى والوصب

وقف الكون يناجي نفسه ... وقد استولى عليه العجب :

اي سر لهج القوم به ... فرحا ، واهتز منه المغرب ؟

موسم لم تشهد الدنيا له ... مشبها فيما طوته الحقب

— • —

يومه المشهود يوم خالد ... وقفت شمسه ، ليست تغرب

طويت للجور فيه صفحة ... بدماء الشعب كانت تكتب

والى شعبه اهدى عاهل ... درة اشرق منها الموكب

فيها اقبل من مطرحه ... لتراءى شعلة تلتهب

حقق التحرير بالعزم الذي ... بددت منه المرى والكرب

توج المفرق من هامته ... تاج نصر عز منه العرب

اصبح « الخامس » في عليائه ... ساميا يعجز عنه الكوكب

قالت الدنيا : اهذا بشر ؟ ام ملاك معجز لا يغلب ؟

غمر الكون جمالا وسنى بعد ان لفه ليل غيهب

— ◆ —

اسرة العرش فدت امتها من جحيم بالرزايا يلهب

بكفاح كان فيها ءاية فاليها كل فخر ينسب

حسن اعظم به من بطل لم يرع قلبه نفي يرهب

قال للقوم جهارا : اننا اسرة للشعب ـ دوما ـ تغضب

فانا طوع ابي ، بل يده ، معه اركب هولا يركب

موقف العرش مع الشعب ؛ فلا تاملوا في العرش ما لا يحسب

نحن صف واحد مستلحم فاسمعوا حقا صريحا يطلب

شعبنا عن حقه لا يرعوي يدنا من يده لا تسحب

كلمات قالها ذو عزة هي اقوى من سلاح يرغب

رفعت شعبا الى عليائه له في نيل المعالي مرغب

وهوت بالبغي من ءاطامه مثلما الريح بعصف تلعب

— ◆ —

بارك الله وحيى همة هي للشعب ملاذ ارحب

من مليك علوي ملهم ذكره في الارض عطر اطيب

نعمة جلى على امته وحياة في رباها تخصب

ايمن الغرة ؛ في تدبيره كل رشد بنجاح يصحب

العظيم الحسن الشهم الذي هو ـ والله ـ الحبيب الاقرب

— ◆ —

عشت مولاي لشعب مخلص بمزاياك فخور معجب

وحباك الله في شبليك ما ترتجي من نعم تعذب

صانك الله ، وابقاك لنا ملجا في ظله لا نرهب

انت فينا ظل امن وارف انت غيث في ربانا صيب

انت لطف الله فينا ؛ فاغتبط بقلوب ترتضي ما تطلب

يا سليل الطهر طابت اسرة انجبت مثلك فيمن تنجب

آل بيت المصطفى ، احبب بهم انت منهم صفوة تنتخب

انت في نيل المعالي مفرد كل من بارك فيها يتعب

الرباط : المدني الحمراوي



بزغ الصبح الجديد
حاملا اكليل غار
هاتفا يحيا المليك
زارعا اغلى الديار
بالاباء اليعربي
والضياء اليثربي
والفخــــار

— ◆ —

يا بلاد الخير يا خير بلاد
كم على ارضك هبت للجهاد
امة صارعت البطل فباد
وزهت اعلامها فوق النجاد

— ◆ —

كم على تربك سالت من دماء
روت الارض لتزكو فى نماء
يا جراح الامس ، يا سر البقاء
انت للمجد خيوط من ضياء

ايها الخفــاق يا اغلى علــم
يا رفيف النور ان ليل عتم
هزنا ... فى الملتقى .. فى المحتدم
تستبق للمجد .. فى ركب الامم

— ◆ —

نحن للعرش المفدى مخلصون
وله فى الحق جند عاملون
عاش ترعاه قلوب وعيون
يحرس الامجاد والدين يصون

— ◆ —

ايها الابطال ، يا فخر الرجال
يا رؤى طارق فى يوم النزال
أطلقوها نهضة عبر الليال
يبتسم من « مغرب » فجر الكمال

طرابلس — لبنان : محمد شمس الدين

عتاب إلى عيد الفطر المبارك

للشاعرة جليلة رضا

ها قد مددت خطاك فى لهف لكي تأتي الينا
يا ضيفنا المحبوب انك اجمل الذكرى لدينا
يا عيد ان الليل يغمرنا ويغزو مقلتينا
فلم التسرع بالمجيء اليوم .. لم تمش الهوينا ... ؟

*

كنا نؤمل ان نكون مهيئين لعودتك
لك فرحة فى القلب تروى من مناهل فرحتك
لك هزة فى الروح تقبس نورها من شعلتك
كنا نؤمل ان يكون النصر بشرى رؤيتك

*

يا عيد كيف اتيت والعرب الاباة مهددون
ومررت وسط أسنة الأعداء منخفض الجبين
اتجيء والاسلام فى غضب على الظلم المهين
والمسجد الاقصى يدنسه البغاة الآثمون ..؟

*

كيف ارتضيت بأن نغني أو نصفق للهلال
ودماء أمتنا الابية لم تزل فوق الرمال

وانين جرحاها بدوى فى الصحارى والجبال
والبغى — يا ويل الحقيقة — قائم عند القتال

*

رمضان كيف يجيئنا ويدق باب المسلمين
فنصوم نحن الشهر فى امن ونفطر هانئين
وتقر فى دفء وآلاف العرايا نازحون
واللاجئون هناك من عشرين عاما صائمون ... !

*

كنا نريدك ان تجيء ولست بالماضى شبيهها
كنا نريدك ان تجيء مهللا ، مرحبا ، فكيها
ونريد ان تأتى وقد ضمت فلسطين بنيها
وتحررت أوطانها وتألقت زهوا وتيها

*

كنا نريدك ان تجيء ونصرنا فى قبضتينا
ونريد — نحن العرب — نور الحق منتشرا علينا
يا عيدنا المحبوب انك اجمل الذكرى لدينا
فعلام قد أسرعت فى لهف ولم تمش الهوينا .. ؟

القاهرة : جليلة رضا

الأسس التاريخية لوحدة المغرب العربي

للأستاذ الشيخ طه الولي

يبدي الزعماء الوطنيون والحكام المسؤولون في دول شمال افريقيا، من الحدود الشرقية للجمهورية العربية الليبية حتى مرمى الموج على شواطىء الاطلنطي عند التخوم الغربية للمملكة المغربية، يبدي هؤلاء الزعماء والحكام نشاطا لا يعرف الكل ولا الفتور من اجل نظم بلادهم تحت شعار قومي مشترك اطلقوا عليه عنوانا جذابا هو : « وحدة المغرب العربي » .

ولقد اتخذ هذا الشعار الجميل، طابع الامل القومي لجميع الشعوب القاطنة على طول الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط، وهو يكاد يصبح القاسم المشترك في الجهود التي يبذلها قادة هذه الشعوب، في مختلف الحقول العامة من سياسية واجتماعية وثقافية .

ويلاحظ المراقبون ان اللقاءات الشخصية بين حكام هذه الشعوب والاجتماعات المشتركة التي تعقدها حكومات دول شمال افريقيا، على مختلف المستويات والاغراض، لا تخلو جميعها من الحديث عن الوسائل الفعالة من اجل ترجمة هذا الشعار الى تدابير فعلية، تؤدي في النهاية الى بروز فكرة الوحدة المغربية الى حيز التنفيذ بشكل عملي، يتناسب والاوضاع السياسية التي تعيشها الدول التي يعنيها هذا الامر .

وعلى الرغم من ان فكرة الوحدة كانت تراود نفوس شعوب شمال افريقيا حتى في الازمنة القديمة، فانها اخذت سبيلها الى هذه الشعوب بصورة جدية وملحة، في بداية النصف الثاني من هذا القرن بعد ان حرروا بلادهم الشقيقة من اسار الاحتلال الاجنبي على اثر الانتفاضات الوطنية الدامية التي قاموا بها في اعقاب الحرب العالمية الثانية، اذ ان هذه الشعوب التي تترابط فيما بينها بوشائج وثيقة من وحدة الماضي وامال المستقبل، وجدت فيما اصابته من نعمة الحرية والاستقلال فرصة مواتية لتأكيد عرى التعاون من جديد، واقامة علاقاتها بعضها ببعض على اسس ثابتة تضمن لها التشارك في بناء نهضة المغرب العربي القومية من خلال توفير التعامل بين امكاناتها، بحيث تؤمن لنفسها لونا من الكفاية الذاتية تغنيها عن التطلع الى سواها من اجل تلبية حاجاتها الضرورية لتطورها وتقدمها وازدهارها لا سيما في مجالات النمو الاقتصادي والزراعي التي هي في امس الحاجة اليه، بعد ان استنزف الاستعمار، خلال سنوات طويلة، خيراتها الطبيعية وطاقاتها البشرية حينما كان منيخا بكلكله عليها عن طريق الحماية القسرية او الاستعمار المباشر .

ولعلنا نستطيع ان ندرك الاغراض التي تهدف اليها الشعوب المغربية من وراء فكرة وحدة المغرب العربي وتفسر مبادرة هذه الشعوب الى العمل الدؤوب لهذه الوحدة من خلال التصريح الذي اعطاه الحبيب بورقيبة، رئيس جمهورية تونس، الى جريدة « الهدف » الليبية التي نقلته بنصه الرسمي، وقد جاء في هذا التصريح قول الرئيس التونسي :

« ... كانت وحدة المغرب العربي حلما يخامرنا في زمن كفاحنا ضد الاستعمار، باعتبارنا امة واحدة لها تاريخ واحد، وحتى الدول المستعمرة بالنسبة الينا والى الجزائر والمغرب الاقصى، وهي فرنسا، كانت

تمارس فى سياستها الاستعمارية اسلوبا يعتمد وحدة النظر الى الاقطار الثلاثة ، فكانت اجتماعات دورية تنعقد بين المقيمين الفرنسيين بتونس والرباط والوالي العام على الجزائر ، وتضبط فيها الاجراءات الاقتصادية الموحدة او المقارنة بشأن القمـــوح او الخمـــور او الاعانات او غيرها » .

« وكان الحاجز الذي يقف دون اتصالنا ببعضنا هو الاستعمار . وكنا نظن ان ارتباط بلداننا ببعضها سيكون يسيرا بعد الاستقلال ، ولا اقصد بذلك تكوين دولة واحدة ، بل تنسيق جهودنا ومخططاتنا وسياسة تنميتنا بصورة تكسبها نجاعة وفاعلية حتى فى الخارج، ازاء السوق الاوروبية المشتركة او الدول الكبـــرى ، فيكون لنا وزن اكثر . لكننا وجدنا عسرا كبيـــرا فى التطبيق . فالكلام عن « المغرب العربي » كثير ، بينما الانجاز لا يكاد يذكر ، ذلك ان كل دولة تريد ان تحتفظ بشخصيتها بعد كفاح طويل مرير ، ولا ضير من هذا ، انما المشكل، فى تباين الاختيارات السياسية، وعلى كل، فقد خطونا خطوات مرضية والحمد لله . فانجزنا مع ليبيا بالخصوص ، اتفاقيات بشأن استثمار النفـــط والفوسفات واوجدنا بتعاون ، أسواقا لبعضنا ، كمـــا اننا نتفاوض حاليا مع المغرب الاقصـــى ، ونرجو ان نتصل مع الجزائر الى حل بشأن قضية الحدود التي خلفتها لنا فرنسا بمثابة اللغم الزمني ، بينما المسافة تافهة ، لا تعدو عشرة كيلومترات من الصحراء ، وهبها عادت الى احد الطرفين ، فالامر سواء ، بـــل ربمـــا عوضت بأمر آخر . فنطرق باب التعاون الحقيقي الذي يجعل قضية الحدود نفسيا غير ذات موضـــوع ، او أهميتها تتضاءل بفضل امتزاجنا وترابط مصالحنا ، فالخطوات التي قطعناها محتشمة لا محالة ، الا انها ثابتة ، ونؤمل ان تعقبها اخرى أوسع منها ، وعلى كل فاني متفائل بالمستقبل » (1) .

وليس من شك فى ان هذا التصريح الذي فاه به الرئيس الحبيب بورقيبة ، وهو احـــد المسؤوليـــن الرسميين فى احد اقطار المغرب العربي المعنيـــة ، ليس من شك ، فى ان هذا التصريح ، من شأنـــه ان يلقي ضوءا ساطعا على الحوافز العملية التي حملـــت الجناح الافريقي من الوطن العربي الكبير : على اعتماد فكرة وحدة اقطاره فى نطاق تبادل المصالح والمنافع المشتركة ، مع محاذرة الاصطدام بعقبة الحرص على الحدود الاقليمية لكل من هذه الاقطار ، كما قررتهـــا التطورات السياسية التي انتهت اليهـــا فى العصـــر الحاضـــر .

وان كل الدلائل تشير الى ان اخواننا عرب شمال افريقيا مصممون على تنكب الوقوع فى مزالق التناقضات الاقليمية ، هذه المزالق التي تعثر بها عرب غربي آسيا، وادت بهم الى ما نلمســه اليوم من اضطراب زعمائهم فى معالجة قضية الوحدة فيما بينهم ، وهو اضطـــراب خلق بينهم وبين هدفهم المنشود فجوات نفسية واسعة، سوف تقتضي منهم زمنا طويلا قبل ان يتمكنـــوا من تجاوزها والتخلص من عقابيلها المربكة ! . . .

وما دام الرئيس الحبيب بورقيبة ، قد اشار فى معرض حديثه عن وحدة المغرب العربي الى المظاهـــر المباشرة والدوافع القريبة لهذه الوحدة ، فاننا لا نرى بأسا من تتبع هذه المظاهر والدوافع ، عبر مسالكها البعيدة قبل ان تصبح اخيرا ، فى ايامنا ، مثلا قوميا اعلى لكل بلاد الشمال الافريقي ابتداء من الجمهورية الليبية وانتهاء بالمملكة المغربية ، بالنسبة الى الحاكمين والمحكومين فى هذه البلاد على حد سواء ! . .

مبررات وحدة المغرب العربي

ان الدعوة الى وحدة المغرب العربي تنهض فى الواقع على عدة مبررات ، ومن هذه المبررات ما هـــو خارجي ومنها ما هو داخلي ذاتي .

ونبدأ بالمبررات الداخلية الذاتية ، وهـــي فى نظرنا اهم من المبررات الخارجية . لان اى فكرة قومية لا تكون نابعة من صميم المحيط الذي يؤمن بها ويدعو اليها ، تبقى مفتقرة الى الشحنات العاطفية التي تبعث فى القائلين بها الحماسة اللازمة للعمل فى سبيلها بصدق وايمان واخلاص .

وعلى هذا فاننا نقول بانه من الملاحظ ان الملامح التاريخية التي تؤكد وحدة المغرب العربـــي يمكـــن تحديدها بالعناصر الرئيسية التالية :

1 ــ وحـــدة الارض والتـــراب .
2 ــ وحـــدة المناخ والاقليـــم .
3 ــ وحـــدة العنصر البشـــري .
4 ــ وحدة التقاليد والاخلاق والدين .
5 ــ وحـــدة اللغة والتفكيـــر .
6 ــ وحدة المصير والاهداف .

---

1) جريدة « العمل » التونسية يوم 6 حزيران سنة 1969 ص 4

وبكلمة اوضح ، فان المغرب العربي كان دائما ، من حيث التماثل الطبيعي والتكامل الحضاري يشبه بعضه بعضا ، سواء في اوضاعه الجغرافية او طبيعته الاقليمية او تكوينه الانساني او عاداته الشعبية او لغته المحكية ، وما يتبع ذلك من الوان التفكير والحضارة والديـن .

اما الارض الواحدة او ما يدعوه المغاربة « بالتراب المغربي » ، فانه يتميز بالتداخل والتناسق والاستمرار ، اذ انه لا يوجد بين اقاليم المغرب العربي اى فاصل او حاجز مما هو مالوف بين البلدان المتمايزة بالحدود الجغرافية ، كالانهار الكبرى والجبال العالية والبحار المتسعة والصحاري المترامية . ومن الواضح ان مثل هذا التناسق الجيولوجي والاستمرار الجغرافي من شانه ان يفرض على اهليه من البشر بيئة طبيعية متقاربة تلقي ظلالها المنسجمة على الجميع بمقدار متساو من التاثير والانفعال المشترك .

واما المناخ فانه يكاد يكون ظاهرة واحدة من شرقي الشمال الافريقي حتى اقصاه الغربي . وان ابناء هذه المنطقة ، يجدون انفسهم خاضعين لنفس الظروف الجوية التي لا يشعرون معها باى تفاوت او تناقض او اختلاف اذا هم تنقلوا من اى قطر الى آخر، واذا نحن القينا نظرة شاملة على ازيائهم البلدية لوجدناها سواء في ليبيا او تونس او الجزائر او المغرب الاقصى ، تبدو جميعها مصممة تصميما عفويا لتكون قادرة على مواجهة تحديات الطبيعة المناخية لهذه البلاد ، فهي ذات نمط واحد من الاثواب التي يفترض فيها وقاية لابسها من تقلبات الحر والبرد على اساس المناخ المشترك .

وكذلك الخصائص الشكلية ، فانها بالنسبة للانسان في شمال افريقيا ذات طابع واحد . وليس من العسير على رجل ذي فراسة ونباهة اذا وقعت عينه على مجموعة من الناس بينهم واحد او اكثر من الشمال الافريقي ان يعرف ابناء المغرب العربي من سماتهم العضوية دون كبير عناء او تردد . وما يزال المغاربة من ليبيا حتى المغرب الاقصى محافظين على مميزاتهم الشكلية حتى الان ، اذ انهم ، من هذه الناحية لم يتاثروا كثيرا بالاجناس البشرية الاخرى التي دخلت بلادهم واختلطت بمجموعهم خلال العصور المتعاقبة .

والكلام عن التقاليد والاخلاق الشعبية في المغرب العربي ، في الواقع ، لا يخرج بنا عن اطار القاسم المشترك بين سكان هذه البلاد في جميع طبقاتهم ومراتبهم الاجتماعية . واننا لنستطيع الجهر بالقول ، دون ان نتهم بالجنوح الى التطرف او المبالغة ، بان المواطنين المغاربة جميعا ، يكادون يصدرون عن معين واحد في هذا الصدد ، فالطبائع النفسية التي تتحكم فيهم متقاربة ومتشابهة الى الدرجة القصوى ، وهم على مثل نمط واحد في التعبير عن انفعالاتهم النفسية عند الرضى والسخط وفي جميع الاحوال والظروف التي تواجههم في حياتهم ، من خاصة او عامة .

ومثل هذا يقال بصدد اللغة ايضا ، فان هذه الاداة الرئيسية للتفاهم بالنسبة الى جميع شعوب الارض ووسطتها للتعبير عن افكارها والابانة عن شخصيتها وذاتها ، فانها بالنسبة لسكان المغرب العربي ، في جميع العهود التي تقلبت عليهم كانت دائما واحدة ، وبصورة طبيعية لا تكلف فيها ولا صناعة .

ففي العهد الفينيقي الذي استمر في شمال افريقيا طيلة الف ومائة من السنين ، كانت اللغة في هذه البلاد هي الفينيقية ، وبقي الامر كذلك حتى الفتح العربي في اواسط القرن السابع للميلاد، ونظرا لما يجمع بين اللغتين الساميتين ، الفينيقية والعربية ،من اصول واحدة ، فان السنة اهل المغرب العربي سرعان ما تخلت عن الاولى ولانت للثانية ، التي اصبحت بدورها، خلال فترة وجيزة ، اللغة السائدة فيهم وهي ما تزال على مكانتها لديهم حتى الان . وليس من تباين بين المغاربة في اداء هذه اللغة على السنتهم الا بمقدار ما يكون التباين عادة بين ابناء القطر الواحد بحسب اختلاف مدنهم ومناطقهم مما هو مالوف في كل مصر وقطر في جميع انحاء العالم .

واخيرا ، فان بلاد المغرب العربي ، كانت في جميع ادوار حياتها العامة ، تتقاسم المصير الواحد من الناحية السياسية والظروف العسكرية ، ففي مختلف الازمنة ، كان شمال افريقيا يخضع بصورة آلية لظروف متماثلة كلما تعرضت اقطاره للغزو من قبل الجيوش الاجنبية ، وهذا ما حدث فعلا ابان الغزو الروماني ثم الوندالي ثم البيزنطي . وهذا ما حدث كذلك على اثر الفتح العربي الذي دمغ البلاد المغربية بطابعه الديني والحضاري للمرة الاخيرة وبشكل نهائي حاسم .

العوامل الخارجة في تكوين وحدة المغرب العربي

بعد ان اتينا على تفصيل المبررات الداخلية التي اعطت فكرة وحدة المغرب العربي قابلية التنفيذ

واشاعت فى المغاربة حماسة العمل لها ، فاننا نأتي الان على ذكر المبررات الخارجية ، وهي مؤثرات واردة على شمال افريقيا من خارج ترابها وشعوبها لانها تهيات مع الزمن بسبب اقوام غرباء وفدوا على المغرب العربي من اوروبا تارة ومن آسيا تارة ثانية .

فمن المعروف ان امما كثيرة نزلت فى تراب شمال افريقيا غازية مستعمرة عن طريق القهر والحرب او انها نزلت فى هذا التراب عن طريق الهجرة السلمية العادية بقصد التجارة او التدبير بصورة نهائية . ومن خلال مطالعاتنا التاريخية ، نلاحظ ان هذه الامم ، الغازية والمهاجرة كانت تنظر الى الاراضي الممتدة على موازاة الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط على انها قطاع جغرافي واحد وتعاملها فى جميع تصرفاتها على هذا الاساس سواء من حيث الاستراتيجية العسكرية او التشريعات القضائية او التنظيمات الادارية .

هكذا نظرت الشعوب الاجنبية الى المغرب العربي فى جاهليته ايام الرومان والفينيقيين وقبائل البربر من الواندال والبيزنطيين ، وهكذا استمرت النظرة اليه فى العهد الاسلامي بعد ان اختلجت امواه المحيط الاطلنطي ... او كما يسميه العرب ، بحر الظلمات ، تحت حوافر خيول المسلمين حين خاضه فى مقدمتهم سيدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه ورفع عقيرته قائلا: « والله لو علمت ان وراءك ارضا يابسة لخضتك اليها غازيا فى سبيل الله ... »

فالرومان ، اهل ايطاليا الاقدمون ، عندما وثبوا على شمال افريقيا اثناء مدهم العسكري الجارف وجدوا انفسهم فى هذه البلاد ، وكانهم فى قطر واحد وليس فى اقطار متعددة ومختلفة ، اذ لم يكن يفصل هذه الاقطار بعضها عن بعض ، جبل عال او نهر عارم او بحر خضم او صحراء مترامية ، فما كان منهم الا ان وظنوا انفسهم على اعتبار الاراضي التي احتلوها بلدا واحدا ، فعاملوا هذه الارض ومن عليها من السكان على هذا الاساس . واتخذوا المنطقة المترامية ما بين ليبيا والمغرب الاقصى، مرورا بالجزائر وتونس ، اتخذوا هذه المنطقة مزرعة كبيرة يتموّنون بحاصلاتها من الحبوب على اختلافها لحاجاتهم الغذائية ، كما انهم اتخذوا من سكان هذه الارض مصدرا بشريا لامداد جيوشهم المحاربة فى اطراف الدنيا بالجنود المقاتلين .

وبقي الرومان يعاملون شمال افريقيا كذلك ، طوال المدة التي انشبوا فيها استعمارهم وهي مدة استمرت نحوا من اربعة قرون متوالية اى من سنة 29 قبل الميلاد حتى سنة 430 بعد الميلاد ، ففي هذا التاريخ تحركت قبائل البربر من الواندال ، فهاجمت امبراطورية روما التي كانت قد وهنت وتداعت ، وتابعت زحفها المظفر الى اسبانيا فاحتلتها وحكمتها ، ومن اسبانيا وثبت هذه القبائل على المغرب العربي مبتدئة بارض المغرب الاقصى الذي دخلته عبر بوغاز جبل طارق .

وعلى الرغم من ان هؤلاء الواندال البربر كانوا فى نظر المغاربة امة غريبة وغازية الا انهم تكيفوا بعواطفهم معهم وحالفوهم طوال قرن كامل من الزمان لانهم وجدوا فيهم عدوا لعدوهم الروماني ، تطبيقا للمثل القائل عدو العدو صديق ، ولم يستنكفوا عن مشاركة هؤلاء الواندال فى قتال الرومان وانهاكهم للتخلص من اساليبهم الوحشية التي كانوا يطبقونها فى البلاد .

وان الواندال ، شانهم شان الرومان اعتبروا شمال افريقيا كذلك وحدة ترابية مترابطة ، دون ان ياخذوا بعين الاعتبار تعدد الاقطار فى هذه المنطقة .

وبعد الرومان ثم الواندال ، جاء البيزنطيون ليرمموا التصدع الذي اصاب الاستعمار الروماني فى شمال افريقيا الذي كان بالنسبة اليهم ايضا ، امتدادا عفويا لتراب واحد . ودام حكم البيزنطيين فى هذه المنطقة زهاء القرن وكان اخراجهم منها على يد الفاتحين العرب المسلمين كما اسلفنا من قبل .

والجدير بالذكر ، ان الاستعمار الاوربي لبلاد المغرب العربي فى عهده الجاهلي ، لم يستطع القضاء على الشخصية القومية التي يتمتع بها ابناء هذه البلاد، ويحدثنا التاريخ ، ان معالم الوعي القومي ، كانت واضحة فى هذا العهد ، وقد عبر المغاربة عن حرصهم على هذه الشخصية المتميزة اكثر من مرة خلال انتفاضات وطنية تكررت على مسرح بلادهم لا سيما فى ايام « ماسينيا » الذي تولى الحكم فى سنة 206 قبل الميلاد وكذلك فى ايام « يوغورتا » من ملوك المغرب العربي القدماء ، ومن بعدهما فى ايام « بوخوس » ، فهؤلاء الملوك المغاربة الثلاثة . كان تحسسهم بشخصيتهم القومية قويا وبارزا فقاموا بعدة ثورات وطنية عنيفة وبذلوا جهودا صادقة لتركيز وحدة المغرب العربي تحت رايتهم الوطنية وليقيموا فى هذه البلاد وطنا موحدا بصورة عملية لا تفريق فيها بين قطر وآخر .

وفى اواخر القرن السابع للميلاد ، كان العرب قد انطلقوا بجحافلهم وقبائلهم من جزيرتهم حاملين فى

ايديهم رسالتهم الحضارية الجديدة الى العالم تحت راية القرءان الكريم ، فما لبثت بلاد شمال افريقيا ان دخلت فيما دخلت فيه بلاد المشرق العربي وما حولها من اقطار الشرق الاوسط .

وعلى الرغم من ان المغاربة استقبلوا حاملي راية الاسلام بروح التفهم والايجابية لانهم وجدوا فيهم نصيرا فعليا جاء الى بلادهم لانقاذهم من غائلة الاستعمار الاوربي وغطرسته المتعالية ، كما وجدوا في الدين الاسلامي الضياء الذي بدد ظلمة الجاهلية الروحية التي كانت تحول بينهم وبين الانعتاق الذهني والانطلاق في مجالات التقدم والتطور والنمو ، على الرغم من ذلك فان المغاربة استطاعوا ان يكيفوا انفسهم مع طبيعة العهد الجديد دون ان يتناسوا مشاعرهم القومية المحلية .. هذه المشاعر التي عبرت عن نفسها بوضوح عبر التكتلات التي انضوت تحت لواء العديد من الحركات الاسرية الانفصالية سواء في عهد العباسيين او في العهود التي جاءت من بعدهم ، سواء في ايام الفاطميين او الايوبيين واخيرا العثمانيين .

ففي العهد العباسي ، نشأت دولة الادارسة ومثل مؤسسها « الملك ادريس الاول » دور البطل القومي للمغرب العربي واستطاع ان يبسط رواق نفوذه السياسي والعسكري حتى شمل المغرب الاقصى وبلاد الجزائر التي بايعه فيها سلطان تلمسان على السمع والطاعة دونما مقاومة او قتال ، وسار ابنه « ادريس الثاني » على نهجه في تدعيم نفوذ الادارسة ضمن اطار وحدة البلدين المغربيين ، المغرب الاقصى والجزائر ، وما كاد نجم الدولة الادريسية يميل الى الافول حتى بزغ فجر دولة جديدة ، قدم مؤسسها من المشرق العربي الا انهم وطدوا ملكهم في المغرب العربي وهم الفاطميون ، العبيديون ، الذين انتحلوا انتسابهم الى آل البيت النبوي الكريم عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وان هذه الدولة المشرقية الاصول اعتبرت نفسها مغربية الولاء ، وعرف اخلافها في التاريخ فعلا باسم المغاربة ، وان لم يكونوا كذلك فعلا ، ونشر هؤلاء لواءهم فوق ربوع المغرب العربي ثم مدوا ظله حتى شمل مصر نفسها بعد ان افتتحها لهم احد النصارى الذين اعتنقوا الاسلام ، وهو جوهر الصقلي مؤسس مدينة القاهرة المعزية التي اصبحت فيما بعد مقرا لكرسي الخلافة الفاطمية .

وفي اثر الفاطميين ، جاء المرابطون الذين استطاعوا ان يركزوا دعائم وحدة المغرب العربي على اساس متين ، وفي ايام هؤلاء تكاملت وحدة المغرب العربي ولم يبق خارج اطارها الا تونس ، بيد ان هذا القطر ما عتم ان اصبح بدوره جزءا لا يتجزا من هذه الوحدة عندما حلت دولة الموحدين محل دولة المرابطين السابقة . ويمكن القول بان عهد دولة الموحدين المذكورين كان عهد الوحدة المغربية الشاملة التي ضمت المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبيا .

وعلى الرغم ، من ان هذه الوحدة ، عراها شيء من التفكك فيما بعد ، لا سيما بعد ان قامت في الجزائر دولة بني زيان ، الا ان الامر ما لبث ان تحول بعد قليل، وعادت وحدة المغرب العربي لتبرز من جديد كحقيقة واقعة في ايام الدولة المرينية التي اسسها بنو مرين المغاربة . ويذكر المؤرخون ، ان السلطان ابا حسن المريني ، كان اقوى ملوك زمانه في القرن الرابع عشر للميلاد . وفي ايامه ، كان المغرب العربي يعيش ازهى ايام وحدته القومية .

ثم توالت الايام ، وبادرت دول اوروبا للافادة من انهيار الجبهة العربية الاسلامية في الاندلس (اسبانيا) فاخذت ترسل قواتها النظامية تارة وقرصانها تارة ثانية للانقضاض على شمالي افريقيا وتحتل بعض اقطارها لمدد تطول وتقصر بحسب ثبات القوى الاسلامية فيها وصمودها للغزو الخارجي .

وفي هذه الاثناء ، ادى ضعف الوحدة المغربية الى نشوء دويلات محلية في بعض اجزاء من المغرب العربي ، وبقي امر الوحدة بين مد وجزر حتى قامت الاسرة العلوية التي ما يزال ملوكها يحكمون المغرب الاقصى حتى اليوم ، وفي ايام مولاي اسماعيل الذي كان من ابرز ملوك هذه الدولة ، حاول هذا الملك ان يضع خطة مشتركة مع باي تونس لاقامة وحدة تجمع في رواقها الاقطار المغربية كلها وكان ذلك حوالي سنة 1602 ميلادية . الا ان هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح وانتهت الى الفشل بسبب التدخلات الاجنبية التي كانت متربصة بها بانتظار الفرصة المواتية للانقضاض على شمال افريقيا باسره . وبالفعل فان هذه التدخلات بلغت شاوها اخيرا باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 ميلادية ثم تونس 1881 ميلادية ثم نزول القوات الفرنسية بقيادة المريشال اليوطي الى عدوة المغرب الاقصى سنة 1905 واحتلاله هذه البلاد نهائيا سنة 1912 باسم الحماية . واخيرا باحتلال ايطاليا لليبيا بعد حربها مع الدولة العثمانية (سنة 1911 — 1912).

وهكذا ، سقط المغرب العربي تحت وطاة الاحتلال

الاوروبي وبسقوطه ضاعت معالم وحدة المغرب العربي من الناحية القومية ولكنها بقيت بارزة من خلال نظرة المحتلين الى هذه البلاد ، وهي نظرة بقيت تعتبر شمال افريقيا وكأنها بلاد واحدة من حيث الاحتلال العسكري والتنظيم الاداري وغير ذلك من قواعد الادارة والسياسة غير ان الزعماء المغاربة ، لم يتخلوا يوما عن دورهم الوطني فى سبيل وحدة اقطارهم ، اذ ان المرحوم الملك محمد الخامس ملك المملكة المغربية السابق ، ما كاد يحرر بلاده من آخر اثر للحماية الفرنسية حتى استأنف جهود اسرته الكريمة فيما اخذت نفسها به فى الميدان الوطني المغربي ، اذ وضع كل طاقاته الشخصية وامكانات بلاده السياسية والبشرية فى خدمة الحركات الاستقلالية التي قامت بها شعوب المغرب العربي فى الجزائر وتونس وليبيا ، فلما استقلت هذه الاقطار بالفعل ، بادر حكامها الوطنيون من رؤساء جمهوريات وملوك ، الى تنسيق جهودهم بعضهم مع بعض لتحقيق الوحدة التي كانت دائما امنية تاريخية عزيزة على شعوبهم .

وهنا لا يسعنا الا القول ، بأن المرونة السياسية والروح الوطنية الصادقة التي يتحلى بها المسؤولون فى شمال افريقيا اليوم ، سوف تكون ذات اثر فعال فى التغلب على المصاعب التي تعترضهم حاليا ، وهي مصاعب فى اكثرها ترجع الى صنع الدول الاجنبية التي اورثت لابنائها احقاد العداوة التقليدية التي كانت قائمة ايام وجود العرب المسلمين فى الاندلس .

وانه يمكننا الاطمئنان والنظر بعين الامل والتفاؤل ونحن نترقب اليوم الذي تصبح فيه وحدة المغرب العربي حقيقة ماثلة للعيان فى اقرب اوان .. وان غدا لناظره قريب باذن الله .

بيروت : الشيخ طه الولي



تمهيـــد :

كان للنص الوارد في ديباجة الدستور المغربي الجديد والذي ينص صراحة على « ان المملكة المغربية تجعل من بين اهدافها تحقيق الوحدة الافريقية .. (1) » صداه البعيد سواء داخل افريقية او خارجها كما آثار كثيرا من نقط الاستفهام .

وفي الوقت نفسه آثار كثيرا من علامات الاستفهام عند عدد من المعلقين الذين ادركوا في عمق اهداف المشرع المغربي ، البعيدة الاهداف والتي تشير كلها في وضوح وصفاء الى الاختيار المغربي الذي اختاره للمغرب محمد الخامس ... « الافريقي الذي صحح الاوضاع » (2) . وهو يدعو لمؤتمر الدار البيضاء الافريقي.

واذا كانت هناك لقاءات ومؤتمرات تمهيدية مختلفة شهدتها افريقية المستقلة بعد سنة 1955 (3) حتى مؤتمر الدار البيضاء فان موقف المغرب من هذا الاختيار وهذه الوحدة اوضحته حكومته عندما اعلنت سنة 1958 « ان مسألة وحدة افريقية .. ليست مسألة كومنويلث بريطاني او فرنسي ، وان الحدود المصطنعة المزيفة التي نصبها الاستعمار امام الاحرار الاخوة من شعوب افريقية الكبرى ، لا شك ستنهار بقوة ابنائها وابطالها ، لتأخذ دولها شكل ولايات متحدة وتتبوأ المكانة التي تستحقها ، والتي تضمنها لها خيراتها المعدنية ، وطاقاتها البشرية وغيرها .. (4)

ولذا فاذا كان المغرب الافريقي قد قام بأدوار قيادية مختلفة في المجالات التي تتصل بافريقية ، فان الانطلاقة التي فجرها المغرب وهو يدعو سنة 1961 الى مؤتمر الدار البيضاء الافريقي بالخصوص لم يستهدف منها الا تخطيط المستقبل ايمانا من المغرب – كما قال جلالة الحسن الثاني – « **باننا امة واحدة ، واسرة واحدة ، ليس في امكان اي واحد منا ان يفر من هذه القارة** » (5) .

1) الدستور المغربي 1970 طبعة وزارة الانباء صفحة : 3 .
2) جريدة « العلم » (ص : 6 – 18 / 11 / 57).
3) كانت هناك مؤتمرات تمهيدية : مؤتمر طنجة لدول المغرب العربي سنة 1957 ومؤتمر الحركة الوطنية لشرق ووسط افريقية ابا فمبكا سنة 1958 ، ومؤتمر اكرا سنة 1958 ، ومؤتمر اكرا في ابريل 1960 ، ومؤتمر اديس ابابا سنة 1960 ، ومؤتمر منروفيا في مايو 1961 .
4) جريدة (العهد الجديد) (ص : 4 – 2 / 12 / 1958).
5) خطاب جلالة الحسن الثاني في مؤتمر الجزائر الافريقي (سبتمبر 1968) .

وهكذا فاذا كانت كل الخلافات التي وقعت بالامس القريب فى مختلف نقط القارة الافريقية عقب استقلال دولها بين عدد من الجارات نتيجة للتقسيمات التي احدثها المستعمرون ، ورفضا للتخطيطات التي هياها هؤلاء بالامس لحدود عدد من الدول تحت تاثير عوامل تمت بعضها بصلة الى الكنيسة ، وبعضها تستهدف الحفاظ على المخطط الستراتيجي لاستغلال افريقية ضمن اسواق الدول الاستعمارية وغيرها من الحركات التي تستهدف « ابقاء المارد الافريقي » يغط فى نومه ، غافلا عن وضعه ودوره المنتظر وغير آبه بالتطور السريع الذي يشهده العالم اليوم فى كل لحظة ..

لقد كان لهذه الخلافات اثر من جميع الدول الافريقية سواء بصفة مباشرة او بصفة غير مباشرة ، غير ان المغرب سرعان ما وقف فى وجه هذا المشكل باسلوب قيادي هو نفس الاسلوب الذي خاض بهمعركة التحرر ، ومعركة بعث افريقية للانطلاق والخلاص ..

التحديد المغربي .. اختيار

ولذلك فليس بدعا ، وليس من الصدف ان تؤثر كل حركات المغرب فى الحياة العامة لافريقية لان اصالة المغرب فى الاتجاه والتزامه لتخطيط ديبلوماسي قار هو الذي جعل المواقف التي يقفها وهو يخوض معركة الحرية والاستقلال تعمل عملها فى الحياة الافريقية من جهة ، وتفتح الطريق امام دولها للاقتداء بها من باقي الجهات ..

واذا كان الاختيار الديبلوماسي المغربي يقوم فى سياسته الخارجية فى افريقية بالخصوص على اعتبارات تهدف فى عمقها الى :

— تحقيق التفاهم .

— والتعاون فيما بينه وبين الدول القارة ، فان هذا التخطيط يستهدف من وراء ذلك كله الخير لافريقية ، ثم لان المغرب بوضعه الجغرافي جزء من افريقية وصلة وصل بينها وبين العالم الخارجي ، تربطه بها — زيادة على الناحية الجغرافية — علاقات دينية واتنولوجية ، وتاريخية ، وتقاليد ، ومصالح ، واهداف مشتركة ، ولهذا اقام سياسته الافريقية بل واختياره على اساس الرغبة الصادقة فى :

اولا : تحريرها من كل استعمار مكشوف او مقنع

ثانيا : حق تقرير مصيرها .

ثالثا : ابعادها عن الصراع الدولي بين المعسكرين الشرقي والغربي .

رابعا : احترام انظمة كل دولة وسياستها الداخلية ، وصيانة استقلالها ووحدة ترابها .

خامسا : التعاون المثمر الصادق معها فى الميادين المختلفة .

وتجلي هذه الاختيار وهذه المبادىء فى الخطوط العامة لسياسة المغرب فى افريقية بالخصوص وفى كل خطواته التي خطها فى هذا المجال .

ومن هذه الاعتبارات بل والاختيارات نجد ان الضرورة التي دعت الى تاسيس منظمة الوحدة الافريقية (6) هي ضرورة الوحدة التي تؤمن بها شعوب افريقيا كلها ، وهي الضرورة التي تمهد لهم الطريق للاجتماع حول مائدة مستديرة واحدة كلما دعت لذلك ضرورة ، ولذا فالاجتماعات التي عقدتها هذه المنظمة لحد الآن لها عاملان اساسيان هما :

1 — رعاية البعث الافريقي .

2 — والقضاء على المخلفات الاستعمارية .

والذين تتبعوا كل اعمال مؤتمرات القمة الافريقية، وكل لقاءات الافارقة منذ وضعت الخطوط الاولى لاجتماعاتها لا شك انهم لاحظوا الخيوط الجديدة التي نسجتها اعمال هؤلاء الاقطاب فى هذه المؤتمرات منذ اخذت تعقد اجتماعاتها المتواصلة المتتابعة ..

واذا ما انتقلنا للبحث عن هذه الجوانب بين الخيوط الجديدة فى اعمال هؤلاء الاقطاب فاننا نجد ان هذه المؤتمرات قد اوضحت **ثلاث جوانب** :

جانب العاملين : من اجل الوحدة وقيامها على اسس حقيقية واقعية ، اسس ترمي « الى تحرير بقية الاجزاء الافريقية وتعطي لاستقلال افريقية معنى نهائيا .. »

جانب المتوسطين : والذين يدابون على المحافظة على « العلائق » الطيبة ، والبحث عن حل للمشاكل المعلقة اولا وقبل كل شيء .

جانب الذين يهدفون ابقاء الوضع الافريقي على ما هو عليه بل لابقائه :

ا — على وضعه المرتجل كما خلفه المستعمرون

ب — يقفون فى وجه المقترحات الواقعية التي يمكن سواء بالنسبة للوضع الافريقي فى دوله الداخلية، او مع الدول التي يرتبط معها برباط اكدت الظروف

---

6) تاسست فى اديس ابابا سنة 1963 .

ضرورة مراجعتها وتبديله على اسس اخرى ومتطلبات جديدة يتطلبها الوجود الافريقي .. وحاجيات القارة السائرة نحو تركيز ثورتها التحريرية في سيرها الطبيعي .. لخلق الكيان الافريقي ، والشخصية الافريقية بعيدة عن كل انحياز او تبعية ليلعبا معا الدور الذي يصل بنا الى الحل الطبيعي الذي لا بد ان نصل اليه قريبا .. وان تضع حدا لما تعيشه القارة من تناقض وارتباك بحيث يضيع عليها المحافظة على اصول ثورتها . ويضيع عليها كذلك كثيرا من الفرص والمناسبات التي تخدم واقعها ..

ج ـ الذين لم يفهموا بعد ضرورة اتخاذ موقف موحد ازاء عدد من القضايا وهو جانب اذا لم يكن يظهر للبعض بالمظهر الذي يبدو فيه لبعض دول القارة وللدول العربية بالخصوص فهو لا يعدو ان يكون جزاء من جانب اتجاه العملاء الذين يدابون على ابقاء المستعمر معنا وبين صفوفنا .. وهذا الجانب قد فصلناه عن جانب العملاء ، لان هناك عددا من الدول اختارت اسلوبا معاكسا في زحمة الثورة التحريرية كما شاء المستعمر ، وتدعو الظروف لاقناعها بالاتجاه الانساني في هذا المجال لتتخلص من هذا الموقف المعاكس .

انطلاقة المغرب :

واذا كان المغرب عندما استوى قليلا في سيره بعد سنة 1956 بالخصوص واقام بعض الركائز القوية في هيكل استقلاله كان اول ما استهدف هو تفجير انطلاقة افريقية سنة 1961 لم يكن يستهدف مكسبا ولا هدفا شخصيا .. وانما كان يستهدف اداء واجبه التاريخي نحو افريقية ونحو اشقائه من ابنائها بل نحو تخليصها وانطلاقها نحو السير في طريق قوامه : التفاهم المتبادل بين دولها ، والتعاون المشترك بين اممها وافرادها على حد سواء ..

ولذلك فان التخطيط الذي اوضحه المغرب في شخص ملكه المقدس جلالة محمد الخامس كان يقضي بتحقيق هذه الاهداف وجعلها طريق انطلاق والبناء نحو استكمال التحرر ، والخلاص الكامل ايمانا منه بانه الطريق الذي سيظل المغرب يدعو اليه في وضوح ، وسيظل يعمل من اجل افريقية ومن اجل خلاصها وتحريرها .

ويتلخص هذا التخطيط فيما يلي :

اولا : « اذا كانت الاقدار اتاحت للدول الافريقية المجتمعة في هذا المؤتمر السبق الى الاستقلال والحرية، فانه دين عليها ان تمديد المساعدة الى الشعوب الافريقية الاخرى حتى تتمتع بنفس الحرية والاستقلال، وحتم عليها ان تخطط من الآن المناهج الواضحة التي ينبغي لافريقية الجديدة ان تسلكها ، والسياسة التي يحسن ان تتبعها . فلا ينبغي ان تعالج مواضيع هذا المؤتمر على اساس الاعتبارات الخاصة بالدول المشاركة فيه فحسب ، بل على اساس الاعتبارات العامة والمصالح العليا لافريقية ، لان لنا اليقين بان المؤتمر المقبل سيحضره عدد وافر من الدول الافريقية ، واننا لنتطلع بمنتهى الامل الى اليوم الذي يجتمع فيه المسؤولون عن دول افريقية كلها بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها للنظر في شؤون قارتهم وقد اختفت منها اشباح الاستعمار والعنصرية والانقسام ، واشرقت عليها شمس الحرية والوحدة والرخاء والسلام ، واشتدت أواصر تعاونها على ما فيه خير الانسانية مع القارة الاسيوية التي نغتنم هذه الفرصة فنحيي شعوبها الناهضة ، ونعبر لها عن تمنياتنا بتمام التحرير ، ومواصلة السير في سبيل الرقي والازدهار.

وان هذا المؤتمر ـ يقول محمد الخامس ـ لاحسن ما يسنح من الفرص لوضع ذلك الميثاق ، وتقرير العمل الايجابي الذي يجب القيام به لتحقيق الاهداف التالية التي نتطلع اليها :

1 ـ القضاء على النظام الاستعماري وذلك بتحرير الاجزاء التي لا تزال مستعمرة بافريقية تحريرا حقيقيا .

2 ـ القضاء على العنصرية بجميع مظاهرها ونظمها .

3 ـ محاربة الاستعمار الجديد في جميع اشكاله ومختلف الوانه ، وفضح اساليبه التضليلية الجديدة.

4 ـ دعم استقلال الاقطار الافريقية المحررة والدفاع عنه .

5 ـ تشييد الوحدة الافريقية .

6 ـ اقرار سياسة عدم التبعية بالاقطار الافريقية .

7 ـ انهاء كل احتلال عسكري لافريقية ومنع استعمالها ميدانا للتجارب الذرية .

8 ـ معارضة كل تدخل اجنبي في الشؤون الافريقية .

9 ـ العمل على تثبيت دعائم السلم العالمي(7)»

وحددت افريقية بعد ذلك مباشرة فى مؤتمر القاهرة اهداف منظمة الوحدة الافريقية بصراحة فيما يلي :

1 ـ تعزيز وحدة واتحاد الدول الافريقية .

2 ـ تنسيق ومضاعفة التعاون والمجهودات لضمان ظروف عيش احسن للشعوب الافريقية .

3 ـ الدفاع عن سيادة الدول الافريقية واستقلالها ووحدتها الترابية .

4 ـ تطهير افريقية من مختلف انواع الاستعمار

5 ـ تنمية التعاون الدولي باحترام ميثاق الامم المتحدة وميثاق حقوق الانسان .

واذن فليس من الصدف ، وليس بدعا ان تؤثر حركات المغرب هذه فى الحياة العامة لافريقية ولكن الحقيقة ان ذلك راجع الى اصالة المغرب فى الاتجاه والتزامه لتخطيط ديبلوماسي محترم وهو الذي جعل المواقف التي يقفها المغرب وهو يخوض معركة الحرية والاستقلال تعمل عملها فى الحياة الافريقية من جهة ، وتفتح الطريق امام دولها للاقتداء به بكل اقتناع

واذا كان الاختيار الديبلوماسي المغربي ـ كما اسلفنا ـ يقوم فى سياسته الخارجية فى افريقية على عدة اعتبارات تهدف فى عمقها الى :

ـ تحقيق التفاهم .

ـ والتعاون فيما بينه وبين دول القارة ، فان هذا التخطيط هو الذي دفع بالمغرب فى مؤتمر القاهرة لاعلان موقف آخر واضح وتخطيطي بالدرجة الاولى وهذا الموقف هو :

ثانيا : بادرة الوفاء والوضوح التي بادر بها جلالة الحسن الثاني المؤتمر الثاني المنعقد بالقاهرة سنة 1964 وذلك بعدم حضوره كما قال جلالته: «لا يمكنني انا الذي شاركت فى مؤتمر الدار البيضاء بجانب والذي ان اجلس على مائدة واحدة اما للتعاون ، او للتذاكر مع شخص حكمت عليه الدول الافريقية كلها (تشومبي) وحكم عليه الضمير العالمي كله ، ثم اقف عند افتتاح المؤتمر خمس دقائق للترحم على ارواح الشهداء الافارقة ومن جملتهم لومومبا والحالة انه الذي تسبب فى قتل لومومبا وفى انفصال كطانكا عن الكونغو . . » (8)

ثالثا : دعوة الرئيس بورقيبة فى نفس المؤتمر سنة 1964 والذي اكد فى جلاء « ضرورة التحديد والاتفاق حول مفهوم الاستعمار اذاأردنا وحدة افريقية حقيقية (9) » ، لان افريقيا قارة غنية بامكانياتها ولكن المشكلة الرئيسية التي تواجه افريقية تمكن فى وجود دول صغيرة لها سياسات مختلفة ومواقف متغايرة ، ولا يمكن حل هذه المشكلة الا عن طريق تحقيق الوحدة الافريقية .. كما اوضح ذلك ايضا رئيس جمهورية غانا فى وضوح ، لكن بقي علينا ان نتساءل بعد ان :

1) حددنا الاتجاهات الموجودة فى المؤتمر على صعيد الاقطاب ومن غير تأثير بالانتماء او المذهبية . .

2) تحديد الخيوط الجديدة فى هذه المؤتمرات كما استخلصناها من بين اعمال جلسات هذه المؤتمرات واعمال اقطابها الذين عملوا بكل قواهم لتركيز الوحدة، لكن هل ستتمخض المؤتمرات القادمة عن اشياء جديدة ستدفع بالضرورة الى الوصول الى حل ولو مبدئيا تتبخر فيه على الاقل احلام المستعمرين والاستقلاليين وباخذ ايماننا المتاجج طريقه فى قيام الوحدة المنشودة .. لان ما تنتظره الشعوب الافريقية ليس هو الحياة الاستعراضية ، وتعقيد المشاكل بخلق الوسائل وتشعبها ، ولكن بسلوك اسهل الطرق كما عبر عن ذلك اتجاه جلالة الحسن الثاني والرئيس موديبوكيتا وسينغور فى نفس المؤتمر فى دراسة المشاكل والبحث عن حل لها ومما يدعو لاعتبار قراراتها مقدسة كما اكد ذلك الرئيس سيكوتوري فى خطابه فى المؤتمر « لمنع كل تدخل اجنبي وجميع المؤامرات . (10) »

الرباط : زين العابدين الكتاني

7) خطاب افتتاح مؤتمر الدار البيضاء الافريقي فى يناير 1961 .
8) خطاب جلالة الملك الى مؤتمر القمة المنعقد بالقاهرة سنة 1964 .
9) خطاب الرئيس بورقيبة فى نفس المؤتمر .
10) الخطاب فى نفس المؤتمر .

من التراث الأندلسي :

أوصاف الناس في التواريخ والصلات

للوزير لسان الدين ابن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦)

تحقيق ودراسة الدكتور محمد كمال شبانة

- 5 -

ومن ذلك فى وصف :

41 ـ المؤذن ابى الحجاج بن مرزوق

(88 : 1) خير استبق الى داعي الفلاح استباقا، وانتهى الى القوم الذين هم فى الآخرة اطول اعناقا ، وان كان فى الدنيا اضيق ارزاقا . مـــردد اذكـــار ، ومسبح اسحار ، وعامر مئذنة ومنار . كان ببلده رندة ـ حرسهـــا الله ـ مؤذنا بجامعهـــا ، ومؤقتـــا بام صوامعها (1) ، ومعتبرا فيمن كان بهـــا من فضـــلاء السدنة (2) ، وممن يشمله قوله « فكانما قرب بدنه »، وكان له لسان مخيف ، وشعر سخيـــف ، توشـــح بحليته ، وجعله وسيلة كربته .

ومن ذلك فى وصف :

42 ـ ابى الحسن ابن الجيـــاب (3)

صدر الصدور الجلة ، وعلم اعلام هذه الملـــة ، وشيخ الكتابة وبنيها ، وهاصر افنان البدايع وجانيها. اعتمدته الرياسة فنأى بها على ذراعه ، واستعانت به السياسة فدارت افلاكها على شباة يراعه . فتفيـــأ للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول فلم تر به بديلا ؛

---

1) يرمي المؤلف الى ان المترجم له كان مؤذنا بالمسجد الكبير الجامع بالمدينة .

2) اصل السدانة : خدمة الكعبة او بيوت العبادة ،والمراد هنا انه كان احد حجاب وخدمة المسجد .

3) هو رئيس الديوان ، العلامة الاديب ، علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمـــان ابن الحســـن الغرناطي الانصاري ، يكنى ابا الحسن ، ويعرف بابن الجياب . ولد بغرناطة فى جمادى الاولى 673هـ (نوفمبر ـ ديسمبر 1274 م) . درس العلم والادب على فطاحل العلماء وكبار الادباء ممن حفل بهـــم عصره ، فمن مشايخه احمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي ، ومن تلامذته المبرزين المشهورين المؤلف نفســه (ابن الخطيب) . ويعتبر هذا الرئيس فيطليعة الكتاب والشعراء الذين حفل بهم بلاط بنـــي الاحمر ، وخاصة السلطان ابا الحجاج يوسف الاول (733 ـ 755 هـ) . ولم يقصر شعره على المديح شأن بقية شعراء الملوك ، وانما تجاوزه الى فنون الشعر الاخرى ، فاجاد التصـــرف فى مختلـــف المناسبات ، كما اسهم بحظ وافر فى الاحاجـــي الشعرية ، حتى قال عنه تلميذه ابن الخطيب : « ولم ار احدا احكم الالغاز مثل ما احكمه ابن الجياب». وقد نوه بالمترجم له فى الميدان الشعري ـ بعـــد ابن الخطيب ـ ابن حجر العسقلاني فى كتابه : « الدرر الكامنة ، فى شعراء المائة الثامنة » مستشهـــدا ببعض اشعاره ، التي اورد المقري جزءا منها غير يسير فى « نفح الطيب » . هـــذا ، ولابن الجيـــاب جولاته فى صناعة الكتابة ، ويكفي شاهدا له تلك الرسائل التي دبجها قلمه ـ على لسان سلطانـــه ابى الحجاج ـ الى من عاصره من ملوك المسلميـــن والنصارى ، وما كان يسطره من المراسيم الملكية ، =

من ندب (1) ـ على علوه ـ متواضع ، وجد لشدى المعارف راضع ، لا تمر مذاكرة في فن الا وله فيه التبريز، ولا تعرض جواهر الكلام على محكات (88 : ب) الافهام الا وكلامه الابريز (2) . حتى اصبح الدهر راوي احسانه ، وناطقا بلسانه . وغرب ذكره وشرق ، وتجاوز البحر الاخضر والخليج الازرق (3) . الى نفس هذبت الآداب شمائلها ، وجادت الرياض خمائلها، ومراقبة لربه ، واشتياق لروح الله من مهبه . ودين لا يعجم عوده ، ولا تخلف وعوده .

ولكم ظهر علينا ـ معشر بنيه ـ شارة تجلى بها العين، او اشارة كما سبك اللجين ؛ فهي اليه منسوبة، وفي حسناته محسوبة . قائما هي انفس راضها بآدابه، واعاقها باهدابه . وهذب طباعها ؛ كالشمس تلقي على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك في الاجسام الصقيلة انطباعها (4) ؛ وما عسى ان اقول في امام الائمة ، ونور الدياجي المدلهمة !!

وقد اثبت من عيون قصائده ـ الذي علق الاحسان في مصائده ـ كل وثيق المبنى ، كريم المجنى ، جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى .

ومن ذلك في وصف :

43 ـ الكاتب ابي عبد الله اللوشي (5)

شاعر مفلق ، وحسيب معرق . طبق مفاصل الكلام بحسام (89 : 1) لسانه ، وقلد نحور الملوك ما برز بجواهر السلوك من احسانه، ونشا في حجر الدولة

= تلك التي جمع منها ابن الخطيب قدرا في رسالته المسماة « تافه من جم ، ونقطة من يم » ، كما وصفه ابن خلدون بانه « شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية » ، ولكن يبدو ان ابن الجياب كان اقصر باعا في النثر عنه في النظم، مما جعل المقري يسجل عليه مثل هذا بقوله « ويظهر لي ان نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظما ولا نثرا » .

تولى ابن الجياب منصب الكتابة للسلطان ابيالوليد اسماعيل ابن الاحمر، ثم لابنه من بعده السلطان ابي عبد الله محمد الرابع ، ثم لاخيه السلطان ابي الحجاج يوسف الاول ، وخلال هذه الفترة ظل يتقلب في ديوان الانشاء حتى ظفر برياسته ، وكان من زملائه واعوانه في الديوان الوزير عبد الله بن سعيد والد ابن الخطيب ، الذي استشهد في وقعة طريف الكبرى (741 هـ) ، فخلفه في خدمة القصر ولده لسان الدين ، فقلده ابن الجياب منصب امانة السر .

توفي ابن الجياب في محنة الوباء الكبير الذي اجتاح الاندلس ضمن ما اجتاح من دول حوض البحر المتوسط ، وكانت وفاته في 23 شوال 749 هـ (14 يناير 1349 م) في العاصمة غرناطة ، حيث دفن بها رحمه الله .

راجع : المقري في « نفح الطيب » ج 7 ص 352 ـ 384 تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1949 م . وكذا : « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة » للمحقق ، ص 54 ـ 55 نشر لجنة البيان العربي بالقاهرة 1969 م .

1) الندب : بتشديد النون مع الفتح وسكون الدال ،هو السريع الى الفضائل ، كما يطلق على الظريف النجيب ، والجمع منه : ندوب وندباء .

2) الابريز : الذهب الخالص .

3) لعله يقصد بالاول : البحر المتوسط ، وبالثاني : الخليج العربي .

4) اشارة لطيفة ، ولفتة كريمة من المؤلف نحو استاذه ، واعتراف بالفضل في صورة بلاغية رائعة .

5) نسبة الى مدينة « لوشة » وهي بالاسبانية Loja ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وكانت احدى المدن الاندلسية الشهيرة ابان الحكم الاسلامي ، وقد استولى عليها الاسبان خلال حروب الاسترداد عام 891 هـ (1486 م) قبل سقوط غرناطة بست سنوات تقريبا ، وهي الان مدينة اسبانية متوسطة المساحة ، يقع بعض عمرانها باعلا ربوة صخرية ، والبعض الاخر من المباني في منخفض الوادي ، وعلى مقربة منها بسيط فسيح من المزارع والحدائق يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها ، ويخترق (لوشة) نهر شنيل من الشمال ، ويقدر عدد سكانها حاليا بحوالي عشرين الف نسمة ، بينما كان سكانها ـ على عهد ابن الخطيب المولود بها ـ يجاوز هذا العدد بكثير ، كما تقول الرواية الاسلامية .هذا ، ولم يبق الان من الآثار الاسلامية بهذه المدينة سوى اطلال القصبة او القلعة ، وبقايا بناء في باطنها يرجح انها كانت مسجدا ، وهو عبارة عن ثلاثة =

النصرية (1) راضعا لدى نعمائها ، ومستظلا بسمائها، ومفضلا على مداحها ، وحائزا المعلى من قداحها . ولسلفه بخدمتها الاختصاص القديم، والمزية والتقويم، والمتات الى كريم ذمامه ، واستقر في يد الراعي زمامه. ونطق بالشعر قبل ان ينطق بالشعر خده ، فأتى منه ببحر لا يعرف الجزر مده .

واما الطريقة الهزلية فهو فارس مجالها ، وامام رجالها ، ورب رويتها وارتجالها ، وله همة تبذ من يباريها ، واخلاق تفتقر الى من يداريها .

طولب – فيما فرط – بالحضور مع الكتاب ، وملازمة خدمة الباب . فتجنى على عادته ، وتوعد باسقاط مرتبه ، فلم يرغب في اعادته . بل كبر على الخدمة اربعا وسلم ، وما ان تمضي لها ولا تألم . وعكف على اقامة اوده ، بانتجاع غلة بظاهر بلده ، باشرها بنفسه ، وجعلها معنى راحته ومغنى انسه ، واتخذها وقاية لماء وجهه (89 : ب) الى ان يحل في رمسه . وهو من اهل الوفاء وحفظ العهد ، والمشاركة في الرخاء والجهد،والانقباض عن هذا الغرض والزهد. الى حسب تطرزت الدفاتر بآثاره ، وتضوع الحبر مسكا باخبار اخباره . وشعر بلغ في الاجادة الغاية ، ورفع للمحسنين الراية .

ومن ذلك في وصف :

44 – ابى بكـر بن الحكيـــم

ماجد اقام رسم المجد بعد عفائه ، وايقظ طرفه بعد اغفائه . محله محل شيفان ، وقرع جفان . ومنهل وارد ، وقطنة ضال من العلاء وشارد . مثواه لا يخلو من قرى جزيل ، لقاصد او نزيل . الى غير ذلك من التحلي بحلية الآداب ، والمبادرة الى اكتساب المعلومات والانتداب .

برز في علم الحديث وروايته ، واجتنى ثمرة رحلة ابيه وهو في حجر دايته . ودون – الان – الفهارس ، واحيا الاثر الدارس . وارتقى من الكتابة الى المحل النبيه ، واستحق رتبتها من ميراث ابيه ، فأينع روحه وتاطر (2) ، وتأرج (90 : أ) وتعطر .

وله شعر انيق الحلية ، جاز في نمط العلية (3) : وسمير – في اثنائه – ما يدل على قدره ، ويشهد بسعة صـــــدره .

ومن ذلك في وصف :

45 – ابى جعفر بن صفوان المالقـي

فارس البلاغة المعلم ، وحجة الادب التي تسلم . والبطل الذي لا ترد شباة نقده ، ولا تحل مبرمات عقده . من جهبذ راض صعاب البيان وساسها ، وميز انواعها واجناسها ، واحكم ضروب العبارة ونظم قياسها . فاحل الاسود عرينها ، والظباء كناسها . الى ذهن يابى الغوامض فتنبلج ، ويقرع ابواب المعميات فيلج ، وهمة يود فرقد السماء وسهاها ان يبلغ منتهاها . اخذ من العلوم بنصيب ، ورمى في اغـراض

= عقود على صفين ، ولكن لا تشتمل على اية نقوش او كتابات ، ويسمى هذا المكان بالجب Aljeb ، وتقع الكاتدرائية على مقربة من القصبة وفوق المسجد القديم ، استنادا الى التقليد العام للسياسة الاسبانية ، التي كانت تقيم الكنيسة العظمى في كل بلد مفتوح على انقاض المسجد الجامع ، ومن المعروف ان المسجد الجامع كان يقع وسط المدينة دائما ، ويدعم هذا ان الكاتدرائية تحتل اليوم وسط المدينة . وتجدر الاشارة اخيرا الى انه – حتى هذه اللحظة – لم يعثر عالم او مؤرخ على اى اثر يتعلق بحياة الوزير ابن الخطيب في هذه المدينة ، او حتى موقع بيته ؛ لطول العهد، ومرور السنين الطوال. راجع : نفس المصدر السابق ص 58 – 59.

1) آخر دولة اسلامية تقلدت الحكم بالاندلس، وتعرف ايضا بدولة بني الاحمر ، كانت عاصمتها غرناطة ، ومؤسسها هو اول ملوكها الغالب بالله امير المؤمنين ابو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن خميس ابن نصر بن قيس الخزرجي الانصاري ، وذلك عام 1238 م ، وكان آخر ملوك هذه الدولة ابو عبد الله محمد الاخير ، حيث سقطت غرناطة على عهده بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيلا في 2 يناير 1492 م وهكذا انحسر المد الاسلامي عن اوربا منذ ذلك الحين ، بعد ان عمرت الدولة الاسلامية في الاندلس زهاء ثمانية قرون . راجع : المصدر السابق ، ص : 19 – 21 .

2) تاطـر : تثنـى .

3) نمط العلية : هيئة كبار القوم .

التعاليم بسهم مصيب . فركض في مجالها ، ورحل الى لقاء رجالها . ودعي — لاول امره — للكتابة لما اشتهرت براعته ، فاجاب وامتثل ، وراش (1) سهام بيانه ونثل (2) .

ثم كر والدولة قد جفت (90 : ب) منها القواعد، وانجزت بادالتها المواعد . فاصطنعته الدولة الاسماعيلية (3) بجانبها ، وقلد سر كتابها ، والهيجاء تدور رحاها ، والامور لا يتبين منحاها . فلما وضعت الحرب اوزارها ، وخفضت الامور زارها ، آثر الرجوع الى وطنه ، واجر هداه في ذلك فضل رسنه . وضلت الخدمة عنه فما نشدها ، وقصر نفسه على ما يقيم اودها . ولم يثن بعد الكر عنانه ، ولا اعمل في خدمة ملك بنانه . وكل ما صدر عنه — من نظم تروق اسرته، وتشوق اليه تيجان الملك واسرته — فالتصوف مجاله، وفي غرض رويته وارتجاله .

ومن ذلك في وصف :

46 — ابي اسحاق ابن زكرياء (4)

حامل لواء الخط،والمنفرد باحكام المشق والقط، ومن تفتقر الى بنانه المخاطبات السلطانية افتقار المشروط الى الشرط . شديد التحفظ ، مقدر للكلام خير التلفظ عظيم البشاشة والبر ، امين على السر . (91 : ا) الى نفس جبلت على الخير ، واخلاق حسنة السيرة رفيعة السير ، وحياء كثف جلبابه ، وسد في وجه الدنية بابه . وكلف بالعلم واوضاعه ، والتطلع على رقاعه . ويكفيه — فضلا لا تخبو ناره ، ولا يخفى مناره — ما خلد من كلام شيخ الجماعة ، وعلم الصناعة ؛ فقد اودعه بطون الاوراق ، وجمعه بعد الافتراق ، واطلع نوره بادي الاشراق ، والبس الايام به حللا ابهى من حلل صنعاء العراق .

والشعر — وان كان قليلا ما يعني بايجاد صناعته، ومعاناة بضاعته — فحظه منه لطيف الهبوب ، حسن الاسلوب .

ومن ذلك في وصف :

47 — ابي اسحاق بن الحاج

طلع شهابا ثاقبا ، واصبح بشعره للشعرى مصاقبا (5) . فنجم وبرع ، وتمم المعاني واخترع . وكلف بالادب وهو غلام يافع ، وله من الحسن — لكل قلب — شافع . فاترع كاسه ، ونضد ريحانه وآسه ، ونبه للصبوح — من بعد الكر — اناسه . ولم يزل دوحه يتارج ، وعقائل سائلة تتابرج ، (91 : ب) حتى دعى للكتابة ، وترشح لتلك المثابة ، يطرز المعارف بمرقوم اقلامه ، ويشنف المسامع بدرر كلامه .

وازمع الرحيل لما خاف على بضائعه الضياع ، فركب الفلك وشرع الشراع ؛ فحج وزار ، وشد للطواف الازار . ثم هنا الى المغرب وحوم ، وقفل قفول النسيج عن الروض بعد ما تلوم ، فاستقر بعد (في) ظلال الدولة الموحدية ، فحط بها على نار القرى، وصمد عندها صباح السرى . ثم لم يلبث ان تنقل ،

---

1) راش السهم : الصق به الريش

2) نثل الكنانة : استخرج نبالها فنثرها .

3) نسبة الى السلطان ابي الوليد اسماعيل الاول بن فرج ابن نصر ابن الاحمر ، تولى السلطة في غرناطة في شوال 713 هـ (ابريل 1313 م) وفي عهده قويت حركة الجهاد بالاندلس ، اثر متابعة القشتاليين غزواتهم ضد مملكته ، حتى حقق نصرا ساحقا عليهم ، ولكن لم يمض على هذا الانتصار سوى فترة وجيزة ، حتى قتل السلطان عقب عودته الى غرناطة بيد ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة، قتله غدرا لاسباب شخصية في 26 رجب 725 هـ (7 ديسمبر 1324 م) .
راجع : ابن الخطيب في « الاحاطة » ج 1 ص 397 ، واللمحة البدرية ص 71 — 74 ، ثم ابن خلدون في « العبر » ج 4 ص 172 ، ج 7 ص 250 . ط القاهرة 1284 هـ .

4) هو الشيخ ابو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن زكرياء ، من مشاهير قضاة الاندلس ، عرف عنه فعل الخير والانقباض عن الناس . قرا على ابيه ، ثم على الاستاذ ابي جعفر بن الزبير ، واخذ بسبته عن ابي اسحاق الغافقي ، كما لازم ابا عبد الله التونسي صوفي العصر ونظيره في هذا المذهب كابي جعفر ابن الزيات وابي الطاهر بن صفوان وغيرهما ، وقد اشتغل بالكتابة في الدار السلطانية فترة من الزمن، كانت ولادته في الثالث والعشرين من شهر شعبان من عام 751 هـ .

5) الشعرى : الكوكب الذي يظهر في الجوزاء ، ويبدو واضحا في شدة الحر . والمصاقب : الملاصق المجاور.

ووجد الجميع فعاقه ونبقل . وهو الان فى جملة كتاب المغرب ، حساما فى البلاغة دامى المضرب .

ومن ذلك فى وصف :

48 ـ ابى القاسم بن قطبة

سابق ركض فجلى ، وشارق طلع فتجلى ، وفاضل تحلى من الخلال البارعة بما تحلى . اتى من ادواته بالعجائب ، واصبح صدرا فى الكتاب وشمسا فى الكتائب . وكان ابوه ـ رحمه الله ـ بهذه البلاد (1) قطب افلاكها ، وواسطة اسلاكها ، (92 : ا) وموتم املاكها ، وصدر رجالها ، وولى ربات حجالها ؛ لصدق يقينه ، ومحافظته على اركان دينه . قد نثل بنيه سهما سهما ، فخبر براعة وفهما ، والفاه بينهم ماضيا شهما ... (2) منه نجيبا ، ودعاه الى الجهاد فالقى منه سميعا مجيبا . فصحب السرايا المغيرة ، وحضر من الوقائع الكبيرة والصغيرة ، وباشر الحرب وبأسها ، ونازع ذلك الشرب كاسها ، على مصاحبة البعوث ، وجوب السهول والوعوث ؛ فما رفض اليراعة للباتر ، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر .

ولم يزل يبهر بادواته ، وينتج البدائع بين قلمه ودواته ؛ فان خط فاخر ببراعته للخط . الى خلق سلس القيادة ، ونفس للمكارم منقادة . وادب بديع المقاصد ، قاعد بالمعاني للمراصد . واستأثرت به الكتابة السلطانية فشعشع اكواسها وعاطاها ، وكان من تلك القلادة الرفيعة وسطاها . وله همة يحسدها فرقد الافق وثرياه ، وكتابة تنازع الروض طيب رياه .

(92 : ب) ومن ذلك فى وصف :

49 ـ ابى بكر القرشي

فريع مجد وحسب ، متقدم ـ على تاخر زمانه ـ بذات ومنتسب ، من دوحة الشرف التي لا يـذوى نضيرها ، ونبعة الديانة التي لا يغيض غيرها . اذا ذكر الصالحون .. (3) بعمرو ووالده ، واكرم بطريفة وتالدة . اصبح لعبة الطرف ناسما ، فلا تراه الا ضاحكا باسما . الى حلاوة الضرائب والشمائل ، والادب والمزرى بأزهار الخمائل . فما شئت من مداعبة تمتزج بالنفوس ، ومجاورة تزري بالكؤوس ، وادب عذب مذاقه ، اعترف به فرسان الكلام وحذاقه ، ومعان جاءت من السهولة بما تقتضيه اخلاقه ، وعفاف ضفت اذياله ، وظرف ضفت جرياله .

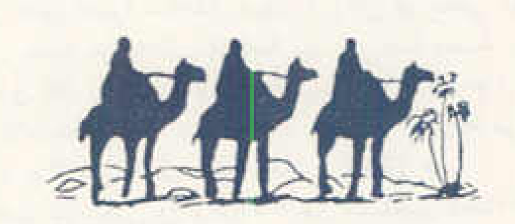
« يتبع »

مكناس : حققه دكتور محمد كمال شبانه

---

1) الاشارة الى « الاندلس » .

3،2) محو فى الاصل .



أبو المكارم ابن عمرو الأنصاري الأوسي محمد بن التهامي

أديب الرباط ولغويها المشارك المحقق

للأستاذ مصطفى الغزي

ان من رجالات رباط الفتح الفذة التي تسنمت بهمتها الوثابة — ذروة المجد العلمي . والتحليق السامي الادبي ، وتحلت — بفضل اريحيتها السمحة — اجمل الصفات . وافضل المناقب . وتطلعت — بسجيتها الوقادة — الى اسمى المراتب، وامثل الغايات واعلى المطالب ، ذات المجالات العديدة فى ميادين العلم المختلفة الحافلة الزاخرة بأنواع الفنون ، وذات النظرات الفاحصة اليقظة العميقة المدى فى التملي بحقول الادب اليانعة المزدهرة شعرا ونثرا . والتعرف على مضامينها بروح واعية وفكر نير ، وحدس صادق فى الاستنتاج ، وتفهم هادف لاعوص المسائل وأشكل النصوص . واعقد النقول ، بتدقيق وتحرير وتحقيق ، دل على كفاية ناضجة ، وجودة قريحة ، وادراك غواص — بمهارة — فى استنباط المدلول ، ودراية واسعة فى استخراج المروم المامول . المكنوز فى رصيد وافر غني بمختار المعقول والمنقول — ابا عبد اللهمحمد ابن محمد التهامي بن محمد ابن عمرو بن قاسم الاوسي الانصاري الاندلسي النجار ، الرباطي النشاة والدار ، مكة المكرمة المقر الاسنى والمدفن ، الاصولي النوازلي المسند الرحال ، الفهامة اللغوي المتمكن الاديب النقادة معارض الشمقمقية ومحاذيها فى لفظ وحشي ، ونهج وعر ، ورجز فى قافية ، ذلكم الرجل النفاعة المفيد الذي حمل لواء العلم والادب — فى عهد سابق قريب بالعدوتين — امام صنوف الاقران ، يحميه درع متين الجوانب من اللغة ، يقويه فقه دقيق لدلالة مفرداتها ، رائده وقائده وحاديه ملكة رحبة الاركان ، راسخة الدعائم ، سامقة فى المحيط ، سباقة فى السمو للمعالي فتربع على كرسي التدريس باستحقاق ، مؤيد بالقبول ومشمول بالتوفيق ، معزز بالاعجاب والتقدير من جلة علماء البلدين وطلبته الكثر ، ولقد اشار المؤرخ الشهير محمد بن على الدكالي الثبت الحجة المفضال — معبرا عن المكانة السامية التي احتل بها المترجم الكبير قلوب الجميع احتراما واكبارا — فى المنظومة الرجزية الكبرى المسماة « اتحاف اشرف الملا ببعض اخبار الرباط وسلا » لدى ترجمته قال فى الطليعة :

ومنهم اديبنا ابن عمرو
اعجوبة الدهر بغير نكر

نادرة الزمان الذي لم يظفر
له بثان فى جميل الاثر

ابو الايادي فى علوم الادب
وذو اتساع لمعالي قد حبى

شارك فى المعقول والمنقول
وفاق اهل العصر من فحول

كان عجيب الحال علما ودها
واوحد الدهر ذكاء نزها

هذا ولقد اخذ المترجم الكبير على جلة كبار من علماء المغرب ، كالقاضي ابي العباس احمد الحكم والد ابى عبد الله محمد صالح ، وأبى حفص عمر بن

المكي الشرقي ، وعبد الواحد بن محمد بن احمد بن محمد بن ابي السعود عبد القادر الفاسي ، ومحمد ابن احمد بن محمد بن يوسف الرهوني الوزاني ، الذي قرظ له الحاشية بقصيدة رائية على الزرقاني ، وابي عبد الله محمد بن محمد الجندي التطواني ، ومحمد ابن احمد بن عبد الله الغربي ، وابي زيد عبد الرحمان السرايري . ومحمد بن احمد بن سودة التاودي ، وعبد القادر بن شقرون ، ومحمد بنيس ، ومحمد بن علي الورزازي ، ومحمد بن عبد السلام الناصري ، وعبد الله الجكني ، وزاد مفيدي المرحوم محمد بن علي دينية في كتابه « مجالس الانبساط » ان من مشايخه — ايضا — محمد بن ابي القاسم السجلماسي الرباطي قال : « فقد رايت له فتوى نقل فيها عن السجلماسي المذكور وحلاه بشيخنا » ، ولقد تبادل المشيخة مع رجالات تونس الشقيقة ، فاخذوا عنه واخذ عنهم كابي اسحاق ابراهيم الرياحي مفتي الديار، ومحمد بيرم ، ومحمد المحجوب ، ومصطفى بيرم ، ومحمد بيرم الصغير ، ومحمد بن الخوجة ، واحمد الابي ، ومحمد الشاذلي ، وغيرهم ممن اثبتة في الرحلة والفهرسة ، وكان العمدة لديه في اكمال التحصيل ، وبلوغ الرتبة للاذن في مزاولة التدريس، والترخيص للاتصال بالمشايخ للاجازة فيها برويه عنهم — هو شيخ الرباط الكبير ابو العباس احمد الحكمي الذي استفاد منه كثيرا ، وكان له نعم القرين الصادق في المودة ، والصافي السريرة في التوجيه الصالح لما فيه افادة العموم ، يماثله في كثير من الخصال الحميدة وغزارة العلم وملكة الادب الموسومة بالذوق السليم، ويحاكيه في المناهج والمفاهيم ، ويجاريه في نبل المقصد والمبدا القويم ، ولقد نوه مؤرخ العدوتين بذكر هذا الشيخ الجليل في « الاتحاف » ، واعطى مقارنة موجزة كافية الدلالة عنه وعن تلميذه ، مغنية عن الاطالة في الابانة بكلمة واحدة عن قدرهما بالبلد ، فقال :

اديب عصره بلا خلاف
نادرة الوقت اخو تصافي

لقرنه محمد بن عمرو
كلاهما اعجوبة بمصر

حقا لقد كان هذا الشيخ الجليل يرعى تلميذه — دوما — ويتتبع خطواته المنطلقة في الدراسة ويعتبر نجابته المتفتحة . ويقدر ذكاءه المتدفع ، وتفوقه الظاهر على غيره من الطلبة ، فكان لهذا المستوى المرتفع ، يخلفه ايام ولايته للقضاء ، وينيبه عنه في الأحكام ، واحيانا يعقد لأجله مجلسا يحضره جماعة من الاعلام من تلامذته وبعض المشايخ ، ويكون حضورهم كاعضاء لجنة تنظر في مزاولته للاعمال نظرة امتحان واختبار ، فيستحسن الكل مآثرته موافقين على ذلك الاختيار والايثار ، من جانب الأستاذ الكبير الى هذا الطالب النجيب المشهود له بالكفاءة والاقتدار، واثناء ذلك تعرض قضايا فيكلف بالنظر فيها ، واخذ الحكم عنها ، فيتصدى لها ، ويعضدها بنصوص الأيمة فيها تحت اشرافه وصوب مشاهدتهم . ولما توفي شيخه خوطب بتولية خطة القضاء فأبى أشد الاباء لقبول ذلك ، والاضطلاع بتكاليفه المتعددة المترتبة عن اغضاب الناس بعدم الارضاء في دعاويهم ، وتحمل مسؤولياته الكثيرة الداعية للعناء بمواجهة الخصوم واصحاب القضايا الموتورين ، غير المتفقة مع طبيعته الهادئة المرحة المؤثرة للخمول الساكن المريح على الشهرة المندفعة المتبعة ، واختار العمل فيه بالنيابة ، وبصفة خاصة في عهد القاضي محمد بن جلون ، فكان مستشارا على الخصوص — في احكام النقض والابرام للدربة المكينة في كثرة تداوله لمجموعة من القضايا المختلفة النوازل — ايام تولية استاذه لهذه الخطة — التي اكسبته طول الباع ، ودقة البحث ، وسلاسة البيان في انشاء الوثيقة ، مع استيفاء الموضوع وخلاصة القول ان مترجمنا كان الابن الروحي لهذا الاستاذ الكبير بحق ، الذي استطاع بمؤهلاته واستعداده الكامن عن قوة ذكاء جاذبة . لأن يتقمص خصائصه العلمية مذهبا ومشربا ومدركا ، مع الاحتفاظ بمميزاته الشخصية ، وارجو في اقرب وقت ممكن — ان ساعدت الظروف — اخراج ترجمة هذا الاستاذ الكبير ونشرها — ان شاء الله — لافادة قارئي العزيز ، كتكملة لحياة المترجم الكريم ، تتصف بعرض ارتسامات على قدر ما تجود به المراجع — لكنه هذا المنبع الثر الدافق الذي استقى من عرفانه بحظ وافر .

نعم لقد حمل المترجم راية العلم والادب في عصره — باهلية مقبولة، ومتفق عليها وتصدر للتدريس متربعا على كرسيه بكفاية كاملة نمت عن وسع في المدارك ، وحدة ذهن مع رحابة متناسقة في الاستيعاب اتسعت للتصرف بسليقية في معلومات متباينة اقتضاها موضوع الدرس ، ولقد اشتهرت حلقاته الدراسية العامرة ، وامتازت بحسن القول ، وطرافة

الفائدة ، وجزالة الحكمة الغالية ، وكان صـــدرا فى الأوساط العلمية المحاطة به فى العدوتين ، تتجه اليه الأنظار ، وتشرئب اليه الاعناق ، وتلتف حوله نجباء الطلبة والعامة من المستفيدين ، ويبحث عنه الزائرون على اختلاف الطبقات — مع وجود شخصيات عالية من الاقران . كما يتوارد عليه من ربوع المغـــرب الراغبون فى الاستفادة . وقصد الاخذ عنه . وطلـب الاجازة فى طرق اسناده ، وكان — ايضا — المرجـع المرموق فى تحقيق طلبات الافتاء ، والموئل المرغوب فى جل معضلات الأحكام ، والملاذ المنقذ فيما استعصـى من مبهمات اقوالها الفقهية ، تشد اليه الرحلة مـن النواحي لهذه الغاية وامثالها — لما عهد فيه لــدى الجميع — من دقة التحرير فى مخارج النصـــوص ، والقدرة على الاستحضار للنظائر وقت الحاجـــة ، والاستشهاد بها لتصفية الحكم فى القضايا المعروضة عليه ، والادلاء بها معززة بما يؤيد ويؤكد من الكتاب والسنة . اعانه على ذلك كثرة الاطلاع باستدامة فى كتب الفقه والنوازل والأحكام . وغير ما مرة كانت ترد عليه بعض القضايا حاملة اشتباكات فى نوازلهـا ، تزداد تعقيدا بتباين الردود عليها ، فيتمكن من الحلول — رغم استعصاء تضارب الاقوال — لطول الخبرة وشدة الممارسة وروح الاناة ، وما رزقه من التروي والتثبت ، والنباهة الزائدة المندفعة بملكة مليئة متناسبة فى تنحية الزائفة لاقامة الصحيح من الأحكام ، ومن هذه القضايا قضية لفتت الانظار وشغلت الاذهان ، وكانت حديث المجالس لما لابسها من تردد فى انهاء الحكم عنها ، واكتسبت اهمية فى الاوساط والتعليق عليها لحملة هيئة محترمة علمية على نقض ما ابرم حولها من تحقيق ، فروجع النظر فيها ثانيا ثم رفع ملفها الى عاهل البلاد — آنذاك — المولى سليمـان للاطلاع على فحواه . واخذ الراي السديد الصويب عن محتواه ، ذكرها من مترجميه : محمد بن عبد الله ابن الحسن المراكشي فى « كناشته » ومحمد ابوجندار فى كتابه « الاغتباط بتراجم اعلام الرباط » وعباس بن ابراهيم فى كتابه « الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام » فى الجزء الخامس ، وتكلموا عن الواقعة وما جرى بسببها ، وما قيل من اجلها ، واليكم النص حرفيا : « فمن ذلك ما وقع ذات يوم فى حكم مـــن الأحكام صدر بالرباط ، وكان — رحمه الله — هـــو المباشر لكتبه وتعضيده بنصوص الأيمة ؛ ثم ان الخصم لصاحب هذا الحكم أخذ نسخة وتوجه بها لفاس ولما اطلع عليها قاضيها — وقتذاك — وقع على ذلك الحكم بالفساد ، فأخذ منها صاحبه نسخة ، ورجع بها الى كاتب الحكم الفقيه ابن عمرو التهامي المذكور ، فأعاد الكتابة عليه مرة ثانية ، وجلب النصوص بما لا مزيد عليه فى بيان المسالة وتحقيقها ، وترافع الخصمان معا للحضرة العالية بالله مولانا سليمان رحم الله الجميع بمنه ، فلما تصفح المسالة واعطاها حقها من التامل احضر العلماء بمراكش ، وفاوضهم فى ذلك . وكتب بخطه : الحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، الحق احق ان يقال ، والحق هو ما كتبـه فى المسالة اهل الرباط . بهذا اقول ولو أفتى به سحنون . هم رجال ونحن رجال ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ؛ فنأمر الواقف عليه مــــن عمالنا ان يعمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام ، وكتبه سليمان بن محمد بن عبد الله كان الله له » .

وهذا العمل المستديم المضني المتوالي فى مراجعة الأحكام الشرعية ، وتفحص اقوال رجال المذهب فيها، منهمكا بانكباب على مجموع مظانها — يوميا — مـن الشروح والحواشي المتبعة فى الاطلاع لادراك المضمون بوضوح — دون تأمل كبير — لعباراتها الركيكـــة واسلوبها المتشعب الملتوي ، وفروضها المتاولـــة ، ومدلولها الغامض ، مما يؤدي لتفهم مراميها ومـــا يقصد صاحبها من معنى — الى زمن طويل لتحضير النصوص منها المطلوبة فى الابانة عن وجهة القضية واخراجها وفق مسالك التحقيق . نعم لم يكن كل هذا ليشغله — ابدا — عن الالتفات بوعي هادف ، وانتباه مستمر — لما يكمل الجوانب الأخر من حياته العلمية الحديثية والأدبية واللغوية ، واعطائها حظها اللازم من وقته الثمين ، فلقد كان مسندا كبيرا يهتم أكبر الاهتمام بالاتصال فى الاسناد ، ويعتني فى ربطه برواة رجال الحديث اشد الاعتناء ، فيشد طلبا للاحراز على ذلك الرجال ، وان عاقته عوائق البعد ، وكثرة اعمالـــه القضائية عن الأسفار ، اضطر للمكاتبة رغبـــة فى اجازاتهم لما نأت عنه الديار . ويتفقد — كل حين — من يزور منهم البلاد ، وله فهرسة قيمة ثمينة فى موضوعها اتصل سنده فيها بكبار رجالات الحديث فى الشرق والمغرب العربي ، جاوزت شهرتها الحدود . وبلغ الى الاقطار النائية ، صداها المحمود ، قد ذكرها الشيخ الكتاني فى كتابه « فهرس الفهارس » — لدى ترجمته — منوها بذكرها ، ومقدرا مكانتها فى عالم الاسناد ، فقال : « وقفت عليها فى كراريس مبعثرةمفرقة ايادي سباء ولو تممت — كتعبيره — لكانت معجزة للرباط والرباطيين ، فان الرجل كان يتيمة عقدهم ونـــادرة صقعهم ولكنهم ضيعوه ..! والأمر لله من قبل ومـــن بعـــد » .

اجل فلقد قصدت تقديم هذا العرض — اولا — من الجانب العلمي ، الذي كان المجلى السابق في ساحات ميادينه ، والمتفكر في معرفة مقاصد مراسمه، والمتقن لتصاميم مفترق معالمه — قبل الجانب الادبي الذي اشتهر به ، وزاده شهرة معارضته لقافية ابن الونان ، حتى صرت لا تسمع من اوساط الطلبة في الحديث عنه وعن اثره الا ابن عمرو معارض الشمقمقية ! فحسب ، الأمر الذي كاد أن ينسينا — جميعا — الاهتمام بهذا الجانب المهم من حياته الذي امتاز فيه عن غيره من الاقران ، بكفاية مكتنزه بدقة البحث وعمق الفكرة وسموها المرمى ووضوح التعبير، وبراعة التحصيل في العثور على المراد من المظان في اقرب زمان ، والاحاطة الشاملة في المقصود مع الاثبات في منتهى التدقيق . — كما اتفق على ذكر ذلك مترجموه — واود أن اكون ابديت في هذا القسم الاول من المقال، ما يوضح بعض الصور عنه ببيان يؤدي شيئا ما من الافادة تكون محل الرضى والقبول ، حقا فلقد خشيت ان يزهد قارئي العزيز لو قدمت الجانب الادبي المعروف المتداول من حياته في اول الامر ، فيظن ان ذلك قد يغنيه عن التعرف على المترجم في تتبع الترجمة الى النهاية ، فيكتفي عن الاتمام ، ويضيع في سلة المهملات أو يضل في رفوف مكتبته الخاصة — قدرا كبيرا من مقومات شخصيته الكريمة ، يعز فقدانه ، ويؤسى ضياعه ، وتنقص بسببه الفائدة المرجوة ، ذلك القدر العظيم المدى في تكامل هذه الشخصية ، وتبيان اشراقها المنسجم ، الدال في معناه من جهة اخرى على سمو مستواه الأدبي القيم المنبثق من اسلوبه فيما ينتجه بصفة عامة فقها وادبا عليه طابع الذاتية، ولهذه الاهمية الملحوظة في ازدواج الجانبين المبين عن ذهنية مبدعة تنبو عن تقييد بمحفوظ ، وتقليد في معلوم . كان الداعي الأساسي والباعث المشجع المستحث على اختيار نشر هذه الترجمة — قبل غيرها — غير منتظر استيفاء المراجع، او اتاحة وقت للتفرغ، او فرصة سانحة لخلو البال أو ترقب استرجاع صحة جيدة ، كي تساعد هاته الأسباب على الاستمرار في البحث والانكباب ، والتنقيب على الطريف من الانتقال ، من هنا وهناك ، تزيد تبيانا وتلقي اضواء اكثر اشعاعا في ايضاح جوانب غامضة من هذه الشخصية العظيمة النادرة المثال في اوساطها العلمية بين معاصريها ، واني اقتصر في ابراز اغلب هذا الجانب التالي الأدبي اعتمادا على ما كتبه ودبجه يراع الاستاذ الجليل النحرير الأوحد والمشارك النفاعة احد كبار مربي الجيل السابق في الرباط وغيره ، ذي الكفايات المتفتحة الممتازة بالتحرير ، وسلامة المعنى من التعقيد واشراق الديباجة مع حسن التبليغ ابي عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمان السائح المتوفى سنة 1347 هـ — 1948 م) في كتابه القيم : «المنتخبات العبقرية» المليء بالفوائد الجمة، والالتفاتات التاريخية الايجابية . حول رجالات مغربية واندلسية . يكون لمعرفتها اثر طيب في التوجيه والتكوين المروم ، وتملي النشىء باسلوبها العذب ، وترداد مقتبسات منها يخلق فيه الميل الادبي المنطلق الانتاج في قالب عربي متين المبنى حي المعنى ، طبع ونشر قديما سنة 1920 م لصالح المدارس الثانوية ، ولقد عرف المؤلف — قدس الله روحه — كيف يستغل مجال الكتاب لخدمة ابناء وطنه ، وفيما يفيد — ايضا — اجياله المقبلة ، وعكس بمحتواه الثمين الدال على روح وطنية حق صميمة — امل مدير المدرسة في تطبيق رغبة قادة الاحتلال — وتنفاذك — بكتابة هذا الموضوع قصد التضليل والتغطية ودفع ما يقال انها تريد طمس معالمه بكثرة ما تنشره للطلبة عن رجالات الغرب والاعلان عن مآثرهم في الكتب الدراسية ، ولقد وضعه في حجم متوسط تتسم عباراته بالوضوح والاشراف ، واكتناز الفائدة مع سلاسة الاسلوب في عرض التراجم ، وسبكها بانشاء تسير في نهج سهل، لا تعثر في جمله ولا غموض في بيانه ، ولا جمود ولا تحرر في وضعه ، كان بين ذلك قواما — وليست بطويلة مملة ، ولا مختصرة مخلة ، ولهذا فلم يترك لقلمه مجالا اوفى قولا وافيد معنى وادق وصفا مما قال واليكم نص ذلك ص 96 — 97 ، « وتبغ (المترجم) في فنون الأدب وصناعتي النظم والنثر حتى اصبح نسيج وحده ، وصدر ادباء مصره وعصره ، ورزق جودة القريحة وصفائها . وتدفق الفكرة وانبثاقها ما بهر به وظهر ، وترامى صيته واشتهر ، واشعت اشعة فكره الى معاني الشعر ومغازيه ، فتناولها من عقر مواقعها واكنها بجنانه . واستخدمها بين يديه ، فاصبحت تتبارى في السبق لاشارة بنانه ، وبالجملة فما احراه بقول البديع في وصف زهير ، يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه ، وناهيك برجل انبرى لمعارضة ابن الونان ، لما القى قافيته البديعة للميدان وقال :

من كان يرجو من هواي مثلها
رجا من التربة رشح العرق

فانبرى لمعارضته قرن يفخر ويصول ، ولا

كالحباب بن المنذر يوم يقول : انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، فتجاولا في اللغة والغريب ، وتسابقا في المدح والنسيب ، واقتفى كل منهما قافية القاف ، وبان ان كلا عن صاحبه قاف (اي مستغني) بيد ان الناظم — رحمه الله — حاز السبق المبين بمدح خير العالمين صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، وان قصرت به خطا البراعة عما ابدع ابن الونان من روائع الحكم ونوابغ الامثال وصبها على قوالب جيد الصناعة ، واما قافيته فقد اكثر فيها من الغريب ، وتوخي الوقوع على حافر ابن الونان . والطبع على غراره في عده اساليب وفنون . ومن ذلك انه شبب في مستهلها بذكر الفلوات الموحشة المترامية الارجاء ، والاوصاف البديعة للابنق . وان الحادي ابى الا ان يذرعها عبثا ويقذف بها في تلك الأينق من غير ابقاء عليها ولا رافة ، واسهب في التنوع في تانيبه والتلطف في عتبه ، ثم انتقل الى التغزل بذكر اوصاف الحسن في النساء وغيرهن ، ثم الى فن الحماسة والصرامة والافتخار ووصف ادوات الحرب والخيل ، ثم تخلص الى المقصود الاعظم من مدح محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فمدحه ومدح الصحابة الكرام ، واستشفع به عليه السلام ، وشكا اليه ما مسه من الوصب والضنى والفاقة ، وما لقي من اهل زمانه مما ليس لحمله طاقة ، ومن دقائقها التي ترقص وتطرب انه لما تخلص من وعر تلك الالفاظ الحوشية الموحشة الى الفاظ ناصعة تذوبه لطفا وعذوبة ، فكان انشقاق فجر الاوصاف المحمدية افاض عليها من انواره ، وكساها من حلل جماله فتلالات انوارها وابتسمت ثغورها ، وهذا مما ينبيء عن حصافته وحسن ذوقه واصالة ادبه » انتهى المقصود منه ، وطليعة القافية ابتداها بقوله :

مسحت في الادلاج كل خيفق
براء سبسب يباب سملق

وجبت كل طاسم سمهدر
مثل دموس واسع المخترق

يغتال غيلان الفلا من سند
شناظه مستمسك بالأفق

ومن قسمها الأخير الذي مدح فيه الرسول عليه الصلاة والسلام :

يا اكرم الخلق على الله ويا
شمس الضحى في مغربومشرق

يا خاتم الرسل وسيد الورى
يا بهجة الكون ونور الحدق

ويا زعيما بالشفاعة اذا
نبذها كل رسول مشفق

وآخرها :

ختامها الصلاة ابدا
من خاطري وقلمي ومنطق

عليك مع ازكى السلام عدما
في الكون من حصى وعد الورق

والآل والصحب وكل تابع
ومقتف نهج السداد بنتقى

وهي تحتوي مائة وثيفا وسبعيا بيتا وقد قرظها عدد من جلة العلماء منهم شارح قافية ابن الونان ابو عبد الله محمد بن احمد الجريري السلوي المعروف بابن الفقيه ، وقد اطال فيه نثرا وشعرا واجاد في الاستحسان والتقدير والاعجاب ، فمما قال في طليعة الشعر :

صلت بين اولي القوافي بقاف
انت فيه لنهج وتان قاف

طرت في افقه فحلقت جوا
بقدامي موفورة وخواف

فاقتنصت القافات اي اقتناص
ملحقا باديا بما هو خاف

والعلامة ابو حفص عمر بن المكي بن المعطي بن الصالح الشرقي ، منها :

هذي فتوح هيئت في ازل
ثم بدت في علية من رونق

اكرم بها من حلة في نسق
ابهى واسنى من حلي العنق

قد صاغها الأرضى السري الألمعي
ذو الادب الغض الشهي المورق

ومفتي الديار التونسية ابو اسحاق ابراهيم الرياحي شعرا ونثرا ، ذكر نص التقريظ حفيده عمر ابن محمد في كتابه « تعطير النواحي » فقال في بداية الشعر :

ماذا حوت من بهجة ورونـــق
اعيذها هيفا بــرب الفلـــق

قد قلعت قلب حسود حقـــق
اذ وسقت ما ينتقي في وســق

من رائق المعنى وفــي ريــق
كم تنصت من شارد في ولـــق

وجامع ديوانه ، وهو ــ على ما قيل ــ الأديب ابو حفص عمر بن اخيه الهاشمي ، فقد ذكر اجـازة العلماء لها من العدوتين وفاس وسجلماسة ودرعـة ومراكش وابي الجعد وازمور ودكالة والشـاويـة ووزان والجبل وتطوان وطنجة وزرهون ومكناســة الزيتون ، وقد اعتنى بشرحها والتعليق عليها والتعريف بصاحبها نخبة من علمائنا كان عبـد الله محمـد بن السائح المتقدم سماه « سوق المهر الى قافية ابـن عمرو) طبعه ونشره بالمطبعة الاقتصادية سنة 1938م وابي المحاسن العمدة الحجة الحافظ المدني بن الحسني المسمى « الفتح القدسي والمنح الأوسي في شرح قافية ابن عمرو الاوسي » والفقيه الحيسوبي الفرضي الأديب محمد بن محمد بن عبد السلام بناني المسمى « تجلي الغريب من معارضة الشمقمقية لابي عمرو بمـدح النبي الحبيب » قد وقفت عليه في مجموع له بخط يده، واثبت مترجموه قطعا متناثرة من شعره فلا بأس من ايراد بعضها فيمكن ان يعطي صورة من نفســه الشعري فمنها قوله ــ لما راى منجانة بديعة الشكل معربة عن الشهور والأيام والساعات في منزل ابـن شيخه ابي العباس احمد ابي محمد صالح .

يا صالحا طاب في الأخيار منبتـه
وسالكا كل نهج للهـدى سلكــوا

ما زلت تسمو الى العلياء مجتهـدا
حتى تدلى بــزور بيتـك الفلـــك

ومنها في اعتزازه بالعلم على الغير :

نحن قوم اعزنــا الله بالعلـــم
فلا نبتغي مــن المـال عـــزا

واذا رامنـــا حســود بكيـــد
كاده الله جــل شانا وعـــزا

واذا ما اعتدى علينـــا جهـــول
وضــع الله قــدره فتعـــزى

ولنا شغـــل بخدمـــة علـــم
لسنا ندعو به مــع الله عـــزا

ولنا اســوة بخيـــر البرايـــا
اننا صبر اذا الخصـم عـــزا

وذكر ابو عبد الله محمد بـن علـي دنيـة في « مجالس الانبساط » انه وجد مكتوبا بخط يده قوله :

كم فهت بالشعر مفتونا بأعذبـــه
وكم تعرضــت للدنيـــا باكذبـــة

وحين وقفت من رايي لأصوبـــه
(خدمته بمديح استقـل بـــه)

(ذنوب عمر مضى في الشعـر والخـدم)

ومما وقف عليه ــ ايضا ــ بخط المترجم مطارحة شعرية مع صالح ابن شيخه ابي العباس الحكمي قال صالـــح :

اضاءت وقد طال انتظار عميدهـــا
تجلى سناها في دياجي النوائـــب

فأجاب المترجم :

تجر الصبح غـــرة وجههـــا
تزاحم فجرا لاح فوق الذوائـــب

واصدر صالـــح :
ومنت وما امتنت ونفسي فـدا لهـــا

واعجــز المترجـــم :
وان مزجت صرف الهوى بالشوائـــب

فاصدر صالـــح :
وابقت على الصب الكئيـــب تكرمـــا

فاعجــز المترجـــم :
بقية شــرب في كــؤوس الكواعـــب

فاصدر صالـــح :
فتاة ســواد العالمـــين لوجههـــا

فاعجــز المترجـــم :
كنقطة خال تحت ماضــي القواضـــب

ومن لطائفه الطريفة الدالة على سجيته الشعرية المنفعلة المنسقة نظم وثيقة نكاح صالح الحكمي المذكور وكان احد شهيديه في خمسة واربعين بيتا ، ومما قاله فيهـــا :

قد عقدا النكـــاح بالسعـــادة
والیمن والالفـــة والزيـــادة

والخير والبر ونيل الســـول
ممتثلين قولـــة الرســـول

تناكحوا تناسلوا فانـــي
مكاثـر بكـم فخـذه عنـــي

وناهجـين نهجـه القديمـــا
وحضـــه لفعلـــه تعليمـــا

ومن شعره في الرثاء مرثية طويلة رثى بها شيخه ابا عبد الله محمد بن احمد الغربي اوردها بكاملها ابـو جندار في كتابه « الاغتباط » لدى ترجمة هذا الشيخ طليعتها :

بما شئت حدث عن فظاعة الخطـب
وسلسل نثير الدمع كاللؤلؤ الرطـب

وثابر على التابين توف حقوق مـن
يراعى له حق الصداقة والحـب

وروبي اقطار الاباطـح والربـى
بقطر دموع راسيات على السحـب

الى ان قال :

اخو العلم والعرفان والحلم والتقى
وذو الفضل والافضال والدر والجلب

لقد اغمدت منه المنـــون مهنـــدا
صقيلا حساما في الشدائد والكـرب

واكتفي بهذا القدر من قطع شعره التي اراها لا تؤدي بحق ما يشفي الغليل عن مشربه ما دمنا لم نطلع على ديوانه — الذي جمع الكثير من جيد شعره — يوجد — كما قيل — لله بعض قرابته ، ولاشك ان الاديـب الكبير والوزير الشهير النابغة اللوذعي ابا عبد الله محمد ابن محمد بن ادريس العمراوي قد عرف قدرا كبيرا منه حيث استطاع ان يتعرف على شاعرية المترجم لما خاطبه بقولـــه :

نظمت من الاشعار ما اعجز الورى
فقلدها الراوون مثـل التمائـــم

فمن مصقع من شاوهـا متقاعـس
ومن حافظ من حسن مغناك حائم

ملكت عنان القول غير معـــارض
وفزت بابكار المعاني الكرائـــم

كانك اعطتك البحار فريدهـــا
وبابل سحر اللفظ عند العزائـــم

واعطيت ابواب السما فتناولـــت
يداك الثريا قاعدا غير قائـــم

هذا ولقد كان مترجمنا الكريم ذا مكانة مرموقة في اوساط البلد العلمية ، وله مقام محترم بين عامة الناس على اختلاف الطبقات ، ومحل اعتبار خـاص وتقدير لما اتصف به من اخلاق نزيهة طيبة محمـــودة اتسمت بالمكارم والمحاسن وسمو النزعة واريحيـــة زائدة خالطها تواضع تلقائي غير متكلف ، وميل عفوي دافع لاعمال الخير ، مصحوب بطبيعة مرحة متفائلة زينتها دعابة تحمل سلوا وخفة روح . واستبشـارا بالحياة ، جعلته ممن آلف ويؤلف ، فلا تراه الا ووجهه تعلوه البشاشة يضحك للقياك قبل ان يفاتحك بالكلام، ويشعرك — وجوده امامك — بجو الارتيـــاح . والائتناس ، والانسياق اليه لتبادل الاحترام . دائما تتجلى طلعته البهية السماحة والطلاقة المنشرحـــة والابتسامة الحلوة ، يواسي المحتاج خفية وجهارا بما قل او كثر ، ويتعهد بنفسه احواله في الضراء وايـام المسغبة ، كثير الصنائع والمعروف في هذا البـــاب الخيري ، مع سلامة الطوية وطهارة السريرة ، ووسع الصدر في تحمل اذاية الغير البعيد والقريب . وكان لا يضمر مكروها لاحد ، ولا يحمل قلبه ضغينة ولا حقدا ولا حسدا لمسيء ، كان — رحمه الله — كريم المائدة — كما كان ميمون العائدة كثير الفائدة — يطعـم في اليسر والعسر والضيق والسعة بطرق منزله ليلا ونهارا فلا يؤخر القربى عن الضيف يقدمها كيفمـــا تيسرت . وان تعسرت فيشتريها من السوق في الحين فما يبهت الضيوف . فيشكرون سعيه المبرور ، يحث الناس على اعمال الخير . ويحسن قليله ويعظمـــه ككثيره ، يقصدونه ذوو الحاجات من الفقراء ، فيبذل الميسور مما لديه من طعام او دراهم . وينظر لمآرب العجزة من الرجال والنساء بعين العطف والشفقة ومزيد الاحسان ، ويعمل ما يساعد على تسليـــة المحزون ، موسعا على من المت به الخصاصة بما تيسر من موجود . ولا يتكلف — للتنفيس عليه — في انتظار مجيء مفقود . ويعتني بمطالب ذوي الحقوق من الارامل واليتامى ، متعهدا ما ينقصهم منها ، وان عاقه عائق فيكلف من هو اهل لقضائها وان اقتضى الحال فيتعلق بأصحاب النفوذ من اولى الامر ، وباب منزلـه تراه — دائما — مفتوحا في وجه طلبة العلم مـــن المدونتين ومدن المغرب وربوعه كفاس ومراكـــش

ومكناس وسجلماسة وعلماء شنقيط ورجالات سوس من اقصى الجنوب واطراف السودان ، وكذلك الواردون عليه من علماء المشرق فلا يسالون الا عنه ، ولا ينزلون الا فى بيته ، فلقد كان جوادا مفضالا مثلا فى صنائع المعروف واغاثة الملهوف ، فلا يؤثر — فى عمله المحمود — شريفا على مشروف ، الكل لديه فى الاحتياج سواء ، يحض الناس فى التعاون على اعمال البر والتحلي بلباس التقوى ونشر الفضيلة بينهم ، بلى ، فما اثبته فى هذا العرض بتتابع من خصال حميدة واوصاف كريمة ، قد اتصف بها مترجمنا — المعربة بسموها عن دور عظيم فى خدمات ايجابية كان يؤديها لمجتمعه بفطرة نقية ، وخلاص نية ، وسلامة قلب وطواعية منقادة فى سبيل المبرات — ذكر معانيها فى اتصافه بها — المحمدون من مترجميه — ابن علي الدكالي ، ابن علي دنية ، ابن مصطفى بوجندار ، وكذلك عباس بن ابراهيم ، واكد ثباتها شاهد عيان عاش معه ، واقتفى اثر معظم مراحل حياته عن كثب ، وهو ابن اخيه التهامي ابن الهاشمي .

هذا وللسمعة الطيبة التي اكتسبها المترجم فى مختلف الاوساط — بالصدق فى المعاملة والمروءة فى العشرة والاخلاص فى العمل ، والمقدرة المنتجة ذات الصلاحية فى النفع العام، مع البعد عن المظاهر الزائفة وتجنب الشهرة المحاطة بالمهالات المزورة ، والتسامي عن دواعي الكبرياء المقيت والفخفخة الهزيلة بالرياء والنفاق — جعلته محل الثقة وموطن الركون لنخبة علماء البلد يلجاون اليه فى الملمات ، ويقصدونه عند تعذر الحاجات ، فلا يبرمون امرا او ينقضونه الا بعد مشاورته ، واخذ نظره فيه ، وقلما يعملون عملا يحمل اهمية ، فلا يقتنعون بنجاحه ، الا تحت اشرافه وضمن اتخاذ ملاحظاته ، واحيانا لمساعدة نتاج فكره وتدبيج يراعه ، ومن ذلك تكليفهم اياه — كما اشار الى ذلك مترجموه — بوضع نص لائق ببيعة اهل الرباط للمولى عبد الرحمان ، فلبى امرهم فى الحين غير متعاظم عليهم ولا متعالم ولا متكابر ، وانشاها فى حلة تشبية ازدانت ببيان سلس مرسل ينطلق الكلام بانسياب فى جملها بدون تقعر او تعقيد او اشكال فى التعبير ، تتخللها الفاظ مختارة بليغة الوقع دالة على نفسية واضعها السمحة المتمكنة ، ذكر نصها ابو زيد عبد الرحمان بن زيدان مؤرخ الدولة العلوية ومكناسة الاسماعيلية، فى كتابه « اتحاف اعلام الناس » فى اول الجزء الخامس مردفة بصورة عن اصلها المكتوب بخط رشيق جميل على يد ابي العباس احمد بن محمد الرفاعي الاديب الخطاط الشهير صاحب الارجوزة فى صناعة الخط ، وقد وقع للمؤلف التباس فى نسبة انشائها للكاتب ، ولم يلاحظ ان التالي فى توقيعها هو صاحب الترجمة بعد توقيع ابي العباس بصفته كاتبها ، وعلى فرض اتباع هذا القول بانه منشئها ، فغالب الظن ان قارئي العزيز يستبعد تقديمه لهذه المهمة مع وجود المترجم ،وهو المعبر نفسه عن مكانته السامية المتالقة فى الأوساط العلمية ، معترفا بمجده المحروس بعين العز بخدمة السعد المشمول بحفظ الله الكافي من الجافي — بقوله فيه .

لما ركبت من العلياء ذروتها
والمجد قنته هام الورى فيكا

وصرت تخطو السها والشمس فى شرف
فازداد غيظا لما اوليت جافيكا

لا زال مجدك عين العز تحرسه
والسعد يخدمه والله كافيكا

حقيقة لم تكن علاقة المترجم بنخبة العلماء وربط الصلات معهم — كل حين بمثل هذه المناسبة والتكليف للقيام بمهامها فحسب . بل كانت تربطهم علاقات آخر اكثر جدوى واهم مفعولا ، واوجب خدمة لكونهم حملة الشرع ومرشدي الامة فى تبليغها مضمونة للعمل بمقتضاه من نهي وامر . فكان لهذه الغاية الشريفة المفروض عليهم فيها التعاضد والتعاون لانجاح مراميها يعقد اجتماعات متوالية مع جلة كبار من مشايخ العدوتين فى محضر بمنزله او غيره يعد كندوة علمية تضم شملهم ، وتؤكد وجودهم ، وتعلي شانهم . وتعزز وحدتهم فى النطاق العلمي والديني والاصلاح لما فيه خير الجميع ونفع العباد ، كما تكمل نقص بعضهم من البعض الاخر ، ولما وصل القلم لهذه الجملة انسابت للخاطر قطعة شعرية من المحفوظ القديم — كان قائلها بوصفه الطريف كان حاضرا مع جماعة مترجمنا فى « روضتهم » العلمية المجللة بالتقى يتملى احاديثهم المتنوعة بالأخذ والرد ، ويحكيها فى قوله :

تعاطوا كؤوس العلم فى روضة التقى
فكلهم من ذلك الري لا يظما

نفوس على لفظ الجدال قد انطوت
فتبصرها حربا وتعقلها سلما

واعضاؤها هم ما يلي : من سلا : الفقيه السيد احمد بن خضراء .. والفقيه الاديب شارح قافية ابن الونان محمد بن احمد بن الفقيه الجريري ، والفقيه النوازلي عبد السلام بن عبد الله حركات . والعلامة

الخطيب محمد بن محمد بن بنعيسى مرافقه في الحج ومشاركه في الاخذ عن مشايخه الحجازيين والمصريين، ومن الرباط القاضي الفقيه محمد بن جلون ، وابن عمه الفقيه الحاج محمد بن عمرو ، والفقيه العربي بن شيخه محمد الغربي ، والقاضي صالح ابن شيخه احمد الحكمي ، والكاتب الأديب احمد الرفاعي والحيسوبي مولاي الطيب الزياني ، والعلامة المكي بناني ، والفقيه الطيب بسير ، والعلامة سيدي الحفيان الشرقي ، وأحيانا يزورهم بعض العوام المسنين من ذوي الفضل والانتساب المبني على التمسك بأهذاب السنة المحمدية اتوا من الزاوية الناصرية بتامكروت ذات المجد العلمي العظيم الشأن التليد الخالد . ومن بعض الآفاق النائية ايضا ــ تصد الاجتماع بالمترجم الكريم للاستفادة من مآثره الحميدة، ومجالسه العلمية النافعة الدافعة بفضلها لأعمال الصلاح الموجهة لمساعي الخير والمرشدة لطرق الفلاح قال مؤرخو حياته الحافلة بالمكرمات « وقد كان ــ رحمه الله ــ مع هؤلاء الجمع من الأفاضل ــ دائما ــ في عيش رغيد ومصافات ، وحسن الطوية ..

اجل فلقد كان نشاطه العلمي المتزايد المتوالي بدون فتور أوتوان غير مقتصر اثره المفيد ــ الغني بالأمجاد في مسلكي العلم والفضل ــ على اوساط العلماء ومجتمعاتهم ــ الرائج فيها سوق الكلام المتنوع البحوث المثيرة للركض في حلبة السبق في ميدان المذاكرة بدوافع الأخذ والرد المتسمي بالجدال والنقاش في تحقيق المسائل العويصة الحلول ــ فقط . بل مخالطته لمجموع الناس مجتمعا بهم في المحافل الخاصة والعامة ، يظهر فيها اكثر تفتحا وانبساطا وحيوية وانطلاق سجية ــ رغم تفاوت المراتب واختلاف المشارب ومفارقات الطبقات ، يحس برواج المعلومات في مجتمعاتهم مع كثرة الاتفاق ، بدون تحفظ أو مداراة تدعو للنفاق ، مرتاحا لما يسود جواءهم من روح الانصاف والاعتراف بالجميل والرغبة في قبول الفائدة بامتنان وطيبوبة زائدة ، فيجالسهم مجالسة القرين ، كما يحادثهم محادثة الصديق الحميم ، يخاطبهم بقدر ما يفهمون وعلى مستوى ما تحتمل مداركهم . يرشدهم لما يعود عليهم من خير في دنياهم وأخراهم ، ويلبي من دعاه منهم ، ولا يتعالى في الحضور ، وان كان مانع فلا يترفع عن الاعتذار والجميع يرغب في اكمال جمال الحفل ، واكمال السرور ــ في رحابه المزدانة ــ بتلبية دعوته ، يباسط جالسيه بمفاكهات بريئة ، ويداعبهم بمستملحات عفوية تقتضي المقام المصون بالاحترام كمجلس الوعظ والدرس ، ولا يطيل الجلوس ــ الا لاقتضاء الحال ــ فيودعونه بالاكبار والاجلال ، تاركا في وسطهم اثرا طيبا مستحلنة بالغ الأثر في النفوس لما ترك ــ وراءه ــ لديهم مما يرمى لجلائل الاعمال المحفوفة بمكارم الاخلاق ، تكون حديث المجلس واهتمامات أفراده بقية انعقاده ، اما خطبه الجمعية فكانت مضرب الامثال تتناقل اخبارها الركبان ، وتلتذ بذكرها الأسماع ، فتشتد اليها من نواحي البلد الرحال ، وتكتظ أركان المسجد الجامع وزواياه لأجل استماعها بالمصلين ، لوقعها البين في نفوسهم ، ومفعولها الصائب في غزو القلوب قبل الاستيلاء على العقول ، والتي امتازت بوعي في التبليغ وجلال الالقاء المؤثر والمتأثر مع جمال الوضوح وحسن اختيار في اكتمال ، لما يتخللها من آيات قرآنية واحاديث نبوية صحيحة ، تنصب على موضوع الخطبة ــ بدقة ــ انصبابا يسبغ على فحواها خاصة في زيادة التاثير على مستمعيها ، وهي ــ كما قال ــ في وصفها مؤرخو حياته : « لا تسمع افصح منها ولا احسن عبارة ولا انشاء » .

هذا ولما احس ــ رحمه الله ــ في نفسه الكريمة من تغير محسوس تم باثره الظاهر على انقلاب طرا على جسده بدا يأخذ من حيويته ونشاطه ، مما اشعره بتوديع طور الكهولة لاقتبال طور الشيخوخة ، فاشتاق اشتياقا لا مزيد عليه بعزم صادق ونية خالصة لاداء فريضة الحج ومجاورة الحرمين وزيارة مصر لطلب العلم وملاقاة اعلامه والأخذ عنهم ، وكتب ساعة خروجه من الرباط في ابتداء السفر للحج مكتوبا ضمنه مقصد رحلته الميمونة ، وهو يعد كمقدمة لها عبر فيه عن الداعي والغاية . فقال : « اني لما آذنت الشبية بالتولي ، واقتصر المشيب التعلق بالفضائل والتحلي ، لم ازل منكبا على غي الصبا ، ولاقتناص شوارد البطالة منتصبا ، وسمعت واعظ الله يدعو ففروا الى الله . لبيت دعوته وازمعت الرحلة الى بيت الله الحرام، قاصدا اداء فريضة الحج وطلب العلم حيث كنت ، فأخذت بمعونة الله ، في تهييء الأسباب حتى تكاملت الأدوات ، ولله الحمد وهو القوي ، فخرجت من بلدي رباط الفتح وسلا حرسهما الله تعالى بمنه ضحى يوم الثلاثاء عاشر ربيع النبوي الأنور على مشرفه أزكى الصلاة والسلام من عام ثلاثة وأربعين ومائتين والف، أحسن الله ختامها ، ومعي ولدي الطالب السيد محمد وقريبي الطالب التهامي ابن شقيقي السيد الهاشمي » الى أن قال : « وكان مشهد التوديع حافلا حضره من

لا يأخذهم عد ، ولا يجمعهم ضبط من سادتنا الفقهاء والاعلام والطلبة والمتعلمين ، واهل الخير فى غمار المسلمين ... وركب معنا الزورق الى ان وصلنا الى السفينة — القاضي ابو محمد صالح ابن شيخنا العلامة ابى العباس الحكمي ، فودع بقلب مصدع ، ودمع هامل ، ووجد كامل ، وانشدني اذ ذاك — حفظه الله — بديهة :

تركتني مفردا غريبا   فلا تضع واجب ادكاري

وجامع اشتات هذه الرحلة — كما ذكروا — هو ابن اخيه التهامي المرافق معه الى الديار المقدسة . توجد منها شذرات منقولة من خط جامعها اطلعت فيها على حكاية غريبة — اريد مشاركة قارئي العزيز فى الافادة بها — تشير بمضمونها الى ملاحظاته الواعية النابهة ، وتعطي صورة مؤسية مزرية عن مدى تغلغل امتيازات الدول الاجنبية ، وتصرف اصحابها تصرفا غير مشروع فى شؤون ثغر طنجة الجميل آنذاك — لحد منع المواطن المغربي من الدخول اليها الا بعد الاستشارة فى طلب الاذن من قناصلهم للسماح بذلك، واليكم الحكاية — كما قصها بقلمه — قال : « فارست السفينة بمرسى طنجة البلدة المباركة المشهورة فنزلنا اليها من الغد ، ولما جاء بنا الزورق الى فضائها الفسيح ، وصار الفؤاد متشوقا للاستراحة بتلك الساحة ... نودينا ان قفوا حتى نعلم كبير الموضع فى دخولكم ، فوقفنا تتهددنا الشجون ، ويعجب المعجب لوقوفنا الذي هو من جملة المجون ، فجاء هذا الكبير فقال قفوا هنالك ، حتى يستيقظ النصارى القناصل فاعلمهم بذلك ... ! »

ولقد ترك — جدد الله عليه الرحمات — من انتاجه — بناء على ما ذكر مترجموه — « الفهرسة » « الرحلة » ، « الديوان » ، « الكناشة » وعدة فتاوي قضائية بتحقيقات كثير من الاحكام المتعلقة بعدد كبير من نوازل متباينة الحالات والوقائع ، لقد خلفها اشتاتا غير مجتمعات ، والشيخ الكتاني فى « فهرس الفهارس » — كما تقدم — قال انه وقف على ذلك ؛ اما الكناشة فلم اعثر على شيء يدل على نوع من مختاراته فى التقييد عدا ما نقله ابن زيدان فى « اتحافه » بالجزء الرابع لدى ترجمة محمد بن ابي مدين ابن الحسين بن ابراهيم السوسي المنبهي من قضاة مكناس المبرزين ، واحد خطباء المولى اسماعيل فى الجمع والأعياد الموفقين، قال فمن نظمه قوله مداعبا لرجل يدعى « سيفو » من اهل تطوان، كما « بكناشة» العلامة الاقعد اديب الثغر الرباطي السيد محمد بن التهامي ابن عمرو :

« تبارك الملك » تحمينا و « ياسين »
من شر ما نتقيه منك يا (سين)
بالامس يشكوك اسحاق وجيرته
واليوم ها هي تشكوك المواسين
تالف اسمك من ضدين وانتقضا
نعم ، لا ، وهو بمعنى قولنا يا (سي) (نو)

قد ارتأيت ايراد هذه الانشادة المنقولة منه — استطرادا فى الاخير — لزيادة التعرف على المترجم من ناحية اخرى فى حياته العادية الخالية من القيود المصطنعة ، بمعتكفه العلمي من الكتب المختلفة الفنون فى جلسات خلوية ممتعة ، نائية عن مظاهر التكلف والتلبس فى استمرار بالحياة الجدية الخانقة باستدامتها فى التزمت الكئيب ، والانقباض الموحش ، ومعاشرة الانقال الفقهية ذات الفروض السقيمة المتعارضة على مفهوم معلوم استكن فى معناه الواضح ، فينساق بعامل التفتح وداعي المرح ضمن نكاته البريئة وفكاهاته السليمة المغزى — تاركا يراعه فى سجية عفوية وسماح الى الاصطياد وتقييد الجميل من القول الموسوم بالطرافة والدعابة المسلية الباعثة على الارتياح والائتناس بسماعها. وهذا المنقول المذكور الواحد من « الكناشة » هو دليل من نوع اختياره . وترويحا على النفس المكدودة بعناء الاعمال الجدية المصروف فيها جل اوقاته ، رغبة فى الهروب لجو الانشراح والطلاقة المسعدة المريحة الحافزة لاستئناف تحرك طاقته العملية بمعنوية اقوى . وامتن صلابة ، واعمق فهما ، وازيد دراية لاعادة هاته الحياة الجدية ، واقتبال العمل فى مزيد من الاستبشار بروح اكثر فتوة ، واشد نشاطا ، واسرع خطوات .

وفى الختام ، لم اقف على ذكر لتاريخ ولادة مترجمنا الكريم ولعل سنوات عمره العريضة ، تربو على الستين ان لم تطل على السبعين على ما تفيده بعض القرائن كسفره لمراكش سنة 1224 وهو حامل لواء العلم ، ومخاطبته بتولية القضاء بعد وفاة شيخه ابي العباس الحكمي 1226 ، وهو كفؤ له فى التبريز والجدارة، اما الوفاة ففيها اختلاف، فالرياحي والسائح عام 1243 ودينية بزيادة رواية 1245 هـ والكتاني وابو جندار وابن ابراهيم 1244 . والدكالي فى الارجوزة : وظل فى مصر مع الحجاز اربعة الاعوام فى اعتزاز ؛ المفهوم ان الوفاة 1247 هـ — 1831 م مات بمكة المكرمة ودفن بالمعلاة بين ام الرسول آمنة وزوجه خديجة عليه الصلاة والسلام .

الرباط : مصطفى الغربي

جوانب من شخصية العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور

للأستاذ خليفة محفوظي

لا اريد ان اضع دراسة شاملة عن الاستاذ الفقيد الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، وانما الذي اريده رسم بعض الملامح لشخصية الفقيد واعماله .

واذا لم يكن فى الامكان الان وضع هذه الدراسة المتكاملة ، فلا اقل من محاولة وضع اطار متقارب لابراز اعمال الشيخ الاستاذ ، ولو كان ذلك فى شكل لمسات خفيفة ، لاعطاء فكرة عن ابعاد هذه الاعمال وثمارها المباركة .

وكتابة دراسة بالمعنى المتعارف فى ميدان البحث عن رجل من وزن الاستاذ ابن عاشور ، ليست بالشيء السهل ، فى ظرف وجيز قد لا يسمح بعمل كهذا .

وقد تسمح ظروفي فيما بعد بذلك ، او ظروف احد اخواني من تلامذة الشيخ فى تونس ، او الجزائر ، او المغرب ، او فى غير هذه من الاقطار العربية ، حيث ينتشر ابناؤه عاملين فى مختلف حقول المعرفة هؤلاء الابناء الذين كانوا خير ما يهدى للثقافة الاسلامية والادب العربي ، من عمل رجل اوقف حياته لخدمة الثقافة والعلم .

واحاول التعرض الى بعض الجوانب من حياة الاستاذ ، وهي : الجانب الوطني ، والادبي ، والتربوي والعلمي ، ولعل هذه الجوانب قد تقرب اطار هذه الشخصية الفذة ، التي ملأت الدنيا حركة وعملا ، واسهمت بالحظ الوافر فى كل ميادين النهضة الادبية والفكرية فى تونس والعالم الاسلامي .

الجانب الوطني فى حياته

ولد الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، فى شهر اكتوبر من سنة تسع وتسعمائة والف ، وتربى فى احضان والده الامام العلامة الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور .

ووالده اطال الله حياته ، من اكبر رجال الاصلاح فى العالم الاسلامي ، ومن دعاة التجديد والمتحمسين له فى اساليب التعليم ومناهجه . وفى عهد ولايتيه الاثنتين على المشيخة العظمى للجامعة الزيتونية ، عرفت هذه الجامعة تطورها الكبير ، لا فى ارتفاع عدد طلابها الذي بلغ عشرات الآلاف ، ولكن فى عدد المعاهد التي كونها هذا الرجل فى مختلف جهات الجمهورية التونسية ، واصبحت روافد للجامعة تمدها بوفود المتخرجين فى التعليم الثانوي ، والملتحقين منها بعد ذلك الى تونس العاصمة حيث التخصص فى فروع التعليم العالي الزيتوني .

ولم تقف خدمة هذا الوالد وجهوده على تونس وحدها ، ولم تقف اهدافه العالية على تكوين حملة الفكر والثقافة ، فى هذه البلاد التي كانت يومها ، وهي فى اطوار معركة الاستقلال حافلة بالاقبال الشديد على

التعليم ، بل تشوف الى النفع العام ايضا فى الجزائر على عهد حركة الاصلاح المباركة الممثلة فى جمعية العلماء بها .

فقد اسست هذه ، تحت قيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وقيادة الشيخ محمد البشير الابراهيمي بعده ـ رحمهما الله ـ عددا كبيرا من المدارس فى القطر الجزائري ، وكانت افواج التعليم الابتدائي بها ، تتوجه الى قسنطينة ، حيث تتلقى تعليمها الثانوي « بمعهد عبد الحميد بن باديس » ولم يكن لهذا المعهد الوطني بطبيعة الحال ، اعتراف قانوني بشهاداته ، من طغاة الاستعمار الفرنسي .

فما كان من شيخ الجامعة الزيتونية ، الا ان خطا خطوة شجاعة هي فى الحقيقة اول خطوة فى توحيد التعليم بالعالم العربي ، فأمد « معهد عبد الحميد بن باديس » بالاعتراف ، واعتبرته مشيخة الزيتونة فرعا من فروعها ، وبذلك كان الحل لمشكلة كانت تقف امام جهود جمعية العلماء بالجزائر ، واصبح المتخرجون من التعليم الثانوي بقسنطينة ، يلتحقون بتونس لاستكمال دراستهم ، على النحو الذي اشرت اليه بالنسبة الى تلامذة فروع الزيتونة بتونس .

وموقفه فى تشجيع جهود جمعية العلماء بالجزائر فى ميدان التعليم ، هو موقفه ايضا مع جهات كانت اسست معهدا آخر بقسنطينة ، هو « المعهد الكتاني » فكان لحل مشكلته ما كان لحل مشكلة « معهد عبد الحميد بن باديس » .

فتحت رعاية هذا الرجل العظيم ، تربى ونشأ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، وهو الذي وجهه ، وخطط لمستقبله الحافل بالاعمال الكبيرة ، التي كان مجالها العالم الاسلامي .

ودرس الاستاذ الراحل ، تعليما ابتدائيا مزدوجا باللغة العربية والفرنسية ، ثم التحق بعد هذه المرحلة بالتعليم الزيتوني ، الى ان تخرج فيه ، واصبح استاذا يشارك رجال هذا التعليم وشيوخه فى جهود نشر المعرفة وتكوين الرجال للمستقبل المنتظر .

كانت تونس فى شباب الاستاذ محمد الفاضل ، ما تزال متشوفة الى عهد الاستقلال الزائل بتنصيب الحماية عليها ، وكانت اعمال خير الدين وآماله ، وجهاد ابني باش حامبة ، وثورة ابن غداهم ، والانتفاضة الاصلاحية على يد البشير صفر ، كان ذلك ملء السمع والبصر ، وملء الجوانب والحنايا فى شباب تونس يومها ، وكان الشباب يترسم خطا الرجال الذين اشرت اليهم ، وغيرهم ممن لم اشر اليه ، وكانت آمال هذا الجيل مركزة على ضرورة البعث التونسي ومقاومة الاستعمار بمختلف الوسائل ، وفى سائر الميادين .

ولا عجب اذا كانت هذه هي مطامح هذا الجيل،أن نرى فيه روادا للحرية، ودعاة للوعي الثقافي والاصلاح، من امثال : الرئيس بورقيبة ، وعبد العزيز الثعالبي ، ومحمد الفاضل ابن عاشور .

اندفع الاستاذ مع ذوي المطامح النبيلة من جيله ، يعمل من غير توان فى اداء رسالة جيله ، فلمع بعلمه وعمله فى جمعيات الشباب ونشر المقالات الادبية والسياسية فى مجلات وجرائد كثيرة ، سواء منها الصادرة بتونس أو غيرها ، مما كان يصدر يومئذ بمصر .

وتبلورت اعمال الشباب الباكر ، فى أعمال مرحلة النضج الكامل فى شبابه ، فساهم بالحظ الوافر فى تكوين الحركة الوطنية بتونس ، وفى تكوين الحركات الموازية لهذه الحركة ، ولم يحل بينه وبين اداء واجبه الوطني ، اي اعتبار للمركز الاجتماعي او للوظيف الذي اصبح مقيدا به .

ومن الحقيقة ان اسجل ان اخواننا التونسيين فى ادائهم للواجب الوطني ، كانوا لا يبالون بهذه الفروق والاعتبارات فقد عرفت تونس وهي فى عهد الكفاح الوطني ، وعرفت فى الحركة الوطنية رجالا من مختلف المستويات الاجتماعية والثقافية .

ووطنية الاستاذ محمد الفاضل ، كانت وطنية شمولية عالية ، واسعة باتساع افق تفكيره ، وكان لها مجالات احدهما مرحلي عربي ، وهو مركز الانطلاق ، وثانيهما غائي وهو نهاية ابعاد الدائرة الكبرى فى نهضة العالم الاسلامي وتوحيده .

وضمن هذه الشمولية فى وطنيته ، كان لابناء المغرب العربي المنتسبين لجامعة الزيتونة خير معين ومرشد ، وكان كذلك لاخوان لنا كانوا يدرسون معنا فى تلك الايام ، ينتمون لاقطار من افريقيا الغربية ، وخصوصا من « مالي » و « السينغال » .

وبرزت الوحدة العربية : ممثلة فى « جامعة الدول العربية » فتحمس لها التونسيون وفسحت صدرها لدعوتها وبيان مزاياها الصحف التونسية ، وطفت على ما تنشره من اخبار وتعليقات فكانت « الزهرة »و « النهضة » و « الاسبوع » و « الصريح»

و « المرآة » وغيرها من الصحف التونسية ميدانـــا لهذه المنظمة العربية ، وكانت الاقلام التونسية تعبر عن صدق فيما تكتبه عن الجامعة ، بما تجيش به هذه النفوس الصادقة من انبل المشاعر والامال ، ولذلك كانت صدمة التونسيين فى الجامعة فيما بعد صدمة عنيفـــــة .

وقلم الاستاذ الفاضل ، ولسانه ، وقلبه ، وعقله، وكل طاقة فيه ، كانت للجامعة العربية ومعها .. وكان من ابرز المشاركين فى الحفل الخالد الذي اقيم بتونس فى جوار حديقة « البلفدير » تحية وذكرى لتأسيس الجامعة العربية . وعلم طلابه فى الخلدونية بعد ذلك ، دواعي ولادة الجامعة العربية ، والامال المستندة عليها، وذلك فى سلسلة من محاضرات موسم كامل درس فيه مقومات المجتمع العربي واصول تكوينه ، وامكانياتـه البشرية والاقتصادية ، وما يؤمل له فى غده على يـــد جامعة الدول العربية .

وتشوف فيما بعد الى الابعاد القائية فى تفكيره السياسي ، فكتب وحاضر عن الجامعة الاسلاميـــة ومقوماتها وامكانياتها الهائلة ، وخصص محاضـــرات موسم كامل ، للاحاطة بظروف العالم الاسلامي فى عهد الخلافة العثمانية وبعد سقوطها .

ولاحظ الطلاب فى معهد الدراسات بالخلدونية ، التطور الناشيء فى برامج الدراسة التي كان من ورائها الاستاذ الفاضل ، فبينما اهتمت محاضراته بالجانب المشار اليه ، اعتنت محاضرات الاستاذ الدكتـــور محمد الحبيب ابن الخوجـــة ــ اطال الله عمــره ــ بالجوانب الجغرافية والاقتصادية فى العالم الاسلامي ، وتركزت محاضرات الاستاذ عثمان الكعاك ــ حفظـــه الله ــ حول الحضارة الاسلامية بتونس وبلدان المغرب العربـــي .

وهذا مجرد مثل عن التفكير السياسي وتوجيه الاجيال عند الاستاذ ، اوردته فى محاضرات بعـــض الاساتذة الافاضل الذين كانوا من اعمـــدة واركـــان الجمعية الخلدونية ، وغني عن البيان أن هذا المثـــل هو بعض من كل .

وظهرت قضية فلسطين فى شكلها الجديد ، فى اعقاب تكوين جامعة الدول العربية ، بعد الحرب العالمية الثانية، فاندفعت تونس بقيادة حزب الدستور ورجاله، من رفاق الرئيس بورقيبـــة ، الى احتضان قضيـــة فلسطين ، وتوجه المتطوعون الى ميدان المعركـــة ، وجمعت اعانات ووسائل الدعم الكريم ، فى وقت كانت فيه تونس فى معركتها الحاسمة مع الاستعمار .

وخص الاستاذ الفاضل ، قضية فلسطين بعنايته الشمولية ، فكتب عنها ، وخطب فى موضوعها ، والقى عنها سلسلة محاضرات بالخلدونية ، لخصها المرحوم الاستاذ علي الجندوبي وطبعت بتونـــس فى كتابيـــن صغيريـــن .

واني اسجل كواحد من جيل مأساة فلسطين ، اني ما سمعت كلاما ولا قرات كتابـــة عن فلسطين ، ككلام وكتابة الاستاذ الفاضل عن هذه القضية ، وكان موضوع هذه السلسلة من المحاضرات هو : « فلسطين الوطن القومي للعرب » .

ومن شمولية هذه الوطنية فى الجانب الوطنـــي عند الاستاذ ، قضية المغرب العربي ، فقد عزز روابطه ومنذ عهد بعيد ، برجال الثقافة والعلـــم فى اقطاره ، وسار فى ذلك على نهج والده ــ ابقاه الله ــ اذ كان على اوثق الروابط بعلماء من المغرب والجزائر وليبيا .

وكان يشعر باعتزاز كبير كلما راى ابراز مظهر من مظاهر الوحدة بين هذه الاقطار ، واعطى المثل فى تجاوب عمله مع شعوره هذا ، فعرفته منابر المحاضرات والدروس فى هذه الاقطار ، فزارها زيارات كانت خيرا وبركة ، وحرص على دعوة علماء هـــذه الاقطـــار الى تونس ، ليسمع منهم جيلها الناهض المثقف ، وليطلع على ما عند حملة الفكر فيها فيتم التكامل المنشود .

ونحن فى المغرب لا ننسى ابدا ، ونحن الحافظين للعهود استجابة تلك الدعوات ، التي كانت تسعدنا بما كنا نسمعه من الاستاذ الراحل ، سواء فيما كان يلقيه بين يدي جلالة الملك ، او ما كان يلقيه من محاضرات فى المدن المغربية ، او فى الاوقات السعيدة التي كنا نقضيها مع الاستاذ وهو فى اقامته بيننا .

وعرف رجال العلم عندنا مكانة الاستاذ ، فكانت افواج الزائرين لفندق « منارة حسان » حيـــث كان ينزل لا تنقطع عن زيارته ، وكان هو نفســه يحرص على رد بعض هذه الزيارات لزائريه فى مقر سكناهم ، وكل ذلك لتمتين الروابط مع هذا البلد الذي كان يحبـــه ويقدره ، ويخلص له الوداد .

هكذا كانت وطنية الاستاذ ابن عاشور متفتحـــة واسعة ، مركز انطلاقها العالم العربي ، وابعد حدودها العالم الاسلامي ، وكم كان سروره عظيما بأعمال مؤتمر

رابطة العالم الاسلامي، بمكة سنة 1965، ثم بمشاهدته وحضوره لاول جلسة تاريخية يعقدها اقطاب العالم الاسلامي بمدينة الرباط فى اخريات سنة 1969 .

الجانب الادبي فى حياته

من العسير جدا الالمام فى عجالة كهذه ، بهذا الجانب الذي هو من اهم الجوانب فى حياة الشيخ ابن عاشور . وربما سيساعد التقييد بالايجاز الذي سبقت اليه الاشارة فى رسم مخطط تقريبي لهذا الجانب ، ولغيره من الجوانب الباقية من هذا المقال .

كان الاستاذ خطيبا لا يجارى ، وكاتبا فذا يعز نظيره ، وناقدا مطبوعا اكملت المعرفة فيه جوانب الموهبة . وقد ساعدته ظروف قد لا تهيىء لغيره الا قليلا ، فقد كانت جامعة الزيتونة فى عهد طلبه وقبله بقليل ، تشتمل على عدد من اعلام الفكر والادب ، وازدانت لذلك الاوساط الادبية فى تونس يومئذ ، بشخصيات من هؤلاء الاعلام ، من امثال : الشيخ سالم بوحاجب ، والشيخ مناشو ، والشيخ معاوية التميمي ، وغيرهم ممن كانوا المعين الثر ، لتخريج ادباء من طراز استاذ ، كالكبادي ، وبوشربيه ، وعبد الرحمن بن يوسف ، رحمهم الله ، وغيرهم ممن ادركتهم بتونس وهم على قيد الحياة ، والى جانب الزيتونة وغيرها ، وكان هنالك بيت الاستاذ وهو بمثابة ناد للفكر او جامعة خاصة، فوالده عالم ولغوي واديب، ومكتبة العائلة « المكتبة العاشورية » قد لا توجد نظائرها فى غيرها . وتعاونت كل هذه الامكانيات لتكوين الجانب الادبي فى الاستاذ الخطيب الكاتب الناقد .

وكان لعلاقته المبكرة مع الجمعيات الادبية ، وتعاطيه للكتابة فى البداية فى اكبر المجالات بالعالم العربي ، ميدان للحنكة والتكوين . فقد ذكر لي ـ رحمه الله ـ ان اول مقال كتبه ، كان فى مجلة تصدر بمصر ، وكانت تعتبر يومئذ من اكبر المجلات ، ولعلها مجلة « المقطم » ان لم تخني الذاكرة .

ووجد بعد هذه المرحلة فى مجال التدريس بالزيتونة والخلدونية ، والمعهد الصادقي وفى القاء المحاضرات بمختلف النوادي الادبية والثقافية بتونس ما نمى فيه الجانب الادبي وقواه .

وكانت العلوم الادبية مرفقا هاما له ، حتى فى محاضراته العلمية ، وابحاثه فى موضوعات الفقه والاصول ، وعقد المقارنات بين الاراء والمذاهب والاتجاهات ، وارتفاقه لذلك ، هو الذي كان يزيل جفاف الاسلوب العلمي عن هذه الموضوعات ، ويجعلها وهو يحلق فى ابعد الاجواء، سهلة الفهم، قريبة المأخذ، معبرة عن المقصود من اقرب الطرق .

وكانت له مقدرة خارقة فى استعمال المعلومات ، وجعلها متلاحمة فى الميدان الواحد الذي قد تكون فيه العلاقة نسبية بين هذه العلوم ، فما كان يصنعه مع الفنون الادبية وهو فى موضوع علمي ، كان يقوم به مع الفنون العلمية وهو فى موضوع ادبي .

فقد كان فى كل موضوع ، العالم الاديب ، والاديب العالم ، وكانت الصفتان متلاحمتين فى شخصيته الادبية والعلمية ، وستكون اعماله الادبية لو جمعت اهم موجه ومثال ، فى وقت اصبحت فيه الكلمة ، والمقالة ، والبحث ، على نحو ما نقرا فى هذه الايام .

الجانب التربوي فى حياته

لا اريد بالجانب التربوي هنا ، معناه الاصطلاحي الواسع فى التربية وعلم النفس ، وانما اريد به معنى ضيقا ، احدد به وجهة نظر الاستاذ فى برامج التعليم التي اعدها لتكوين الشباب فى التعليم الثانوي التابع للخلدونية ، ثم التي وضعها لمعهد ابن خلدون للدراسات الاسلامية ، ثم التي وضعها لمعهد الحقوق التابع للخلدونية نفسها .

كانت للاستاذ ـ رحمه الله ـ مشاركة فعالة ، فى مساعدة والده الامام ، مع المجلس العلمي ، فى توجيه برامج الدراسة بالجامعة الزيتونية ، ولكن هذه المشاركة لم تكن فيها آراؤه وحدها ، هي التي تخطط للمناهج التعليمية بالزيتونة وفروعها .

اما فى الخلدونية ، فقد كانت لها جمعية تضم اعلام الفكر واقطاب المعرفة فى تونس ، ولكنها فى بعثها الجديد ، كانت رئاستها بيد الاستاذ ، فقد كان هو الرئيس العميد للجمعية الخلدونية ، وكان لمعاهدها مدير يساعده ، خصوصا فى التعليم الثانوي ، وقد كان هذا المدير على عهدي بالخلدونية ، هو الاستاذ محمد

النابلي . المتخصص فى الرياضيات وكان هو نفسه يدرس بها ، وبجامعة الزيتونة مواد الرياضيات .

وفى الخلدونية ، فى معاهدها ، ظهرت الاتجاهات التربوية عند الاستاذ الفاضل ، فقد كانت هذه الاتجاهات تتركز على التعريب ، والاستغناء عن اللغات الاجنبية كمواد فى تدريس العلوم والرياضيات ، وكانت ايضا تبقى على وجود هذه اللغات ، ودراسة آدابها ، والاستفادة مما تزخر به من افكار وتجارب وفلسفات.

وكان الطابع الاسلامي العربي طاغيا على برامج مواد الدراسة بالخلدونية ، ولكنه طغيان متفتح يستهدف الفائدة حيث كانت ، ولا يستنكف عن الاخذ والاستفادة من الثقافة الغربية ، ولا ينكر عليها اصالتها

على ان تفكير الاستاذ التربوي لم يقف عند الخلدونية ، وانما كانت الخلدونية منطلقا لتخطيط مناهج الدراسة بكلية الزيتونة للشريعة واصول الدين فيما بعد .

فقد توخى – رحمه الله – فى تخطيط برامجها ، ان يكون خريجها مثالا حيا للخريج المتضلع ، فى ثقافته الادبية والاسلامية ، وفى استيعابه لمحتويات الشريعة الغراء ، واصول الدين الحنيف .

وكان ينتظر لهذه الكلية ان تكون امتدادا لجامعة الزيتونة ، فتبقى تونس العالمة ، مركزا من مراكز الاشعاع الفكري فى العالم الاسلامي ، الا ان رفاق الاستاذ وتلاميذه بتونس، لا شك انهم سيحافظون على نفس النهج وتبقى الكلية سائرة فى الطريق الذي رسمه عميدها الراحل .

الجانب العلمي فى حياته

من جامعة الزيتونة ، كانت بداية هذا الجانب فى حياة الاستاذ ، وهي وحدها التي انجبته عالما مبرزا، يفهم من اسرار العلوم وغاياتها ما يدق عن الفهم ، ويشارك فى مجالات المعرفة ، كدارس متخصص ، ويجد فى مداركه العقلية الواسعة ، وفى فصاحة لسانه، ما يجعل القلوب والعقول عالقة به ، ومتعطشة الى ما يحلل أو يقرر من المسائل والموضوعات .

فبعد تخرجه من الزيتونة ، تربع للتدريس بها ، وكانت الزيتونة يومئذ حافلة بالعلماء ، من امثال والده والشيوخ : عبد العزيز جعيط ، ومحمد الزغواني ، والبشير النيفر ، ومحمد اللقاني ، والحطاب بوشناق، والهادي العلاني ، والمختار بن محمود ، والماجري ، وبن ميلاد ، والشطي ، والتليلي ، وابني القاضي (الشيخ الشاذلي ، والشيخ الهادي) وغيرهم من كبار العلماء والادباء .

وبين هؤلاء وامثالهم ، احتل الاستاذ مكانته المرموقة ، وكان محل اجلال واكبار من تلامذته وزملائه على السواء .

وكان يلقي دروسه العلمية ومحاضراته على طلابه بالزيتونة ، وبمعهد ابن خلدون للدراسات الاسلامية ، وبالمعهد الصادقي .

ثم اتسعت هذه الدائرة فى نشاطه العلمي ، فتجاوزت الافاق التونسية ، الى مشاركته فى ندوات علمية كثيرة فى بلدان المغرب العربي ، وفى مؤتمرات المستشرقين ، وفى زياراته محاضرا لعدد من الجامعات

ونشاط الاستاذ العلمي والادبي واللغوي فى الحقيقة ، كان لا ينحصر فى ميدان ، فلم يقتصر على الدروس ولا على المحاضرات ، ولا على النشر فى الصحافة والمذياع ، وانما عمل عالما نشيطا فى كل هذه الميادين ، ولم تحل وظائفه واعباؤه الكبيرة ، بينه وبين عمله فى الحقل العلمي ، وكانت له قدرة خارقة فى الجمع بين ما هو اداري ، وما هو علمي من هذه الاعمال الكثيرة ، التي انيطت به رحمه الله .

فالى جانب التدريس ، شغل خطة القضاء ، ثم الافتاء ، ثم منصب مفتي الجمهورية .

اما مناصبه التي بقي بها الى ان توفاه الله يوم 20 ابريل سنة 1970 ، فهو : مفتي الجمهورية التونسية ، وعميد الكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين ، وعضوية المجمع اللغوي بالقاهرة ، وعضوية رابطة العالم الاسلامي بمكة ، والعضوية فى كثير من المؤسسات الثقافية والاسلامية .

بقي ان الم بما عرف من مؤلفاته المطبوعة ، والمعدة للطبع ، على انه قبل هذا ينبغي ان الاحظ ان وقت الاستاذ كان لا يسمح بالاقامة للتاليف ، ولذلك

لم تكن مؤلفاته كثيرة ، هذا اذا لم يدخل فى اعتبار جميع ما كتبه هنا وهناك ، فى الصحف والمجلات وكتابة المسجل من محاضراته الكثيرة ، ووضع ذلك كله بعد فرزه وتنسيقه فى مؤلفات . فاذا تم هذا ودخل فى الاعتبار فان آثاره ستكون كثيرة ولا شك . وهذه هي مؤلفاته :

1 ـ الحركة الادبية والفكرية فى تونس فى العصر الحاضر .

2 ـ اركان الحياة العلمية بتونس .

3 ـ اركان النهضة الادبية بتونس .

4 ـ اعلام الفكر الاسلامي فى تاريخ المغرب العربي .

5 ـ تحقيق فى معجز احمد (اعد ولم يصدر)

6 ـ التفسير ورجاله .

7 ـ تفسير القرآن بالاحاديث النبوية (اعد ولم يصدر) .

هذه لمحة عن الاستاذ الفقيد محمد الفاضل ابن عاشور ، وهي فى الحقيقة كما اسلفت ، لا تعدو ان تكون رسما لتقريب اطار هذه العبقرية الخالدة . فسيدي الفاضل ـ رحمه الله ـ يأبى الا ان يكون معجزا فى مماته ، كما كان معجزا فى حياته ، وانى لمثلى ان يحبط بجوانب شخصية هذا الرجل العظيم .

الرباط : خليفة محفوظي





تاريخ الشعر العربي

للدكتور نجيب البهبيتي
تقديم وتعليق الأستاذ محمد بن تاويت

دراسة حافلة ونظريات سامية صدرت عن هذا الاستاذ الكبير الذي يعتبر احد الدعائم العتيقة لكليتنا الفتية ، فحيا الله مصر وحيا رجالها (من الدقة القديمة) .

لقد رايت الاستاذ البهبيتي ، لاول مرة سنة اربعين ، ونحن طلبة بجامعة فؤاد ، متوجهين فى رحلة الى جامعة الاسكندرية ، فكان يشرف علينا المرحوم الدكتور زكي حسن معه الاستاذ البهبيتي (واضعا على راسه « بريه » ثم انضم اليهما المرحوم محمد مندور الذي كان آنذاك يشيد بالادب المهجري متحدثا الى طلاب الجامعتين بكلية الآداب فى الاسكندرية .

وبعد سنة التقينا مرة اخرى بالاستاذ البهبيتي ، وهو معيد يحضر الى جانب استاذنا الدكتور طه حسين ؛ فينصت الى المحاضرات التي كان يلقيها علينا فى « الادب الاموي » .

وذات يوم عهد اليه استاذنا ـ حفظه الله ـ بتحضير درس عن الشاعر « لبيد » فى معلقته ، فالقى درسه صبيحة اليوم الثالث عشر (ابريل) لسنة 1942 ، مقارنا بين الصور الواردة فى المعلقة وبين غيرها مما ورد فى ذي الرمة الذي كنا قد درسنا بائيته ، وكان استاذنا قد كلفني بتحضير درس عن « الوصف عند ذي الرمة » فالقيته صبيحة اليوم السادس عشر من شهر مارس للسنة الآنفة الذكر ، فعلق استاذنا على الموضوعين تعاليق احتفظ بها لاهميتها ، كما احتفظ بأخرى ، حول « شعر أبي دهبل الجمحي » وكنت القيت درسا فيه ، بتكليف من الاستاذ ، صبيحة اليوم الحادي عشر ، من شهر فبراير للسنة المذكورة .

هذه ذكريات احتفظ بها فى اعتزاز ، واتصل الان بالكتاب القيم الذي قراته اخيرا ، بعد ما سمعت عنه كثيرا ، وهو بحق اهل للاشادة به والاطراء .

لقد جعل المؤلف كتابه ثلاثة : الاول فى العصر الفني ، والثاني فى العصر العاطفي ، والثالث فى العصر العقلي وجعل لكل ابوابا تفرعت عنها فصول ... وجميع هذه الاقسام لا تعدو المحيط الذي يبتدي بالجاهلية وينتهي بنهاية القرن الثالث الهجري .

وبهذا كان لا محالة ان يكون كتاب الاغاني اهم ما يعتمد عليه المؤلف . وانه لكذلك اهم مصادره على الاطلاق ؛ وليس بعده الا بعض الدواوين القليلة وكتب التراجم أو النقد كذلك ، ومنها كتابه « أبو تمام الطائي» وهو وحده المصدر الحديث ، ولا شيء للمحدثين أو المعاصرين ، يلتفت اليه المؤلف ، الا بالنقد من بعيد لما فيه من آراء أو نظريات ، اذا استثنينا المراجع الاجنبية القليلة ؛ وهي كذلك لا تخلو من وقفات له حولها ، مناقشا أو معترضا ، فى بعض الاحيان ...

ومن القضايا التي تعرض لها المؤلف ، قضية الشعر الجاهلي وقيمته الاجتماعية ، وذلك فى آخر الباب الثاني من الكتاب الاول ، ثم شفع هذا بمقارنة

هامة اجراها في قصيدة لامرىء القيس تمثيلا للتشويش والتخليط الذي وقع في الشعر القديم الذي تنزل لدراسته في الباب الثالث ، فجعل ذلك هو السر في عدم الوحدة التي تعوز جل القصيد الجاهلي فقال : « ولو جئت الى اي ملحمة من ملاحم الشعر القصصي الغربي القديم ، فأزلت منها الروابط ... لوقع لها ما وقع للقصيدة الجاهلية » . وعلى هذا فالوحدة كانت ثم فقد بعضها بفعل الرواة ، كما قال بذلك استاذنا الدكتور طه حسين ، في محاضراته التي تلقيناها عنه سنة 1940 عن الشعر الجاهلي ، بكلية الاداب المصرية وقد تعرض في الفصل الثالث من هذا الباب لخصائص الشعر القديم ، فكان من اهمها ظاهرة الاعتدال ، حتى في الغزل والوصف ، كما كان منها مظاهر اخرى جوفظ عليها كعناصر فنية لذلك العصر ، وهي محافظة عرفها غير العربية في آدابها ، مثل الادب الفرنسي في القرن السابع عشر ، الذي كان يلتزم نفس الاوضاع التي سار عليها شعراء اليونان ، في صياغة شعرهم التمثيلي خاصة .

وفي الفصل الرابع منه تناول مسائل ، منها مسالة الشعر والغناء ، فجعلهما مقارنين ، في مرحلة من مراحلهما ، كما ذكر اوزان الشعر العربي ما هي الا نتيجة لتطور الغناء في القديم ، وهي قولة لها خطرها وحقيقتها الراسخة ، التي عبر عنها الخليل وانتهج لها منهاجها وانتهى الكتاب الاول بخاتمة مقارنة ...

وفي الفصل الرابع من الباب الاول للكتاب الثاني تعرض للقصة العاطفية التي ظهرت في العصر الاسلامي فذكر انه من اركان الفن القصصي عندهم الاستناد على الحقيقة ، فاتبع فيه الاستشهاد على الحادثة بالدليل كما هو الشان في رواية اللغة ونحوها من الاحكام العلمية ، فلما تعذر الاتيان بذلك ـ ولو انتحالا ـ الكمشت القصة . وهذه ملاحظة قيمة وتعليل معقول وختم هذا الكتاب بالباب الثاني الذي خصصه للفرق ما بين شعر العصر الفني وشعر العصر العاطفي ، فذكر ان الاول كان وثنيا يتناول مظاهر الاشياء ، وان الثاني كان يتناول العواطف الكبرى . وهذا الفرق ولا شك ليس حاتما بين العصرين فقد وجد عندهم في الفن وصف العواطف كما وجد العكس .

وفي الفصل الاول من الباب الاول للكتاب الثالث، تعرض لطلائع العصر العقلي ، فانكر فيه « الخرافة السائدة من ان جريرا والفرزدق والاخطل والراعي وذا الرمة ، او الرجاز ومن لف لفهم ، كانوا جماعة من شعراء البادية نزلوا الحضر ببضاعة لهم مزجاة من الشعر في عصر الجمع وتلمس الشاهد » فقال انه ليس منهم الا من اطلع على الشعر القديم اطلاعا واسعا وهو صاحب ثقافة كذلك داب على تحصيلها وقصد الى جمعها ...

وفي الباب الثاني، ذكر ان رواية الشعر في العراق كانت تعتمد على اصول مكتوبة ولم تكن تعتمد على الشفوي أعتمادها على تلك ، وهذه دعوى جديدة عضدها بشواهد لا تقبل الشك ، وان كانت لا تعمم القضية التي قررها ، بل الرواية الشفوية كانت هي الاصل ، حتى في الحديث. ومسالة المعلقات المكتوبة في الجاهلية، انفرد بذكرها من الاقدمين صاحب العقد ، ولا يدري مدى ذلك من الصحة ، وان تحققت في الواقع ، فهي جانب ضئيل من جوانب تسجيل الآثار الشعرية ، التي عرفت رواتها ، كما عرف لكل شاعر راويه الذي يتلقنه شفويا ويلقنه كذلك .. فليست المسالة مجرد حديث خرافة ، بل لها جذورها واسبابها في الجاهلية وعند نزول القرءان الكريم ، الذي كان وحده يكتب ، كما كان يلقن لجمهور المسلمين ، الذين لم يكونوا يكتبون ، على حرص الاسلام على الكتابة واجتهاد النبي في نشرها ومحو الامية بها . وقدم الكتابة العربية شيء يكاد يكون مفروغا منه ، وتعميم كتابة الشعر بها شيء آخر يحتاج الى الدليل من التاريخ الصحيح ...

وكون النضر بن الحارث ، تعلم احاديث الفرس، وقد قدم الحيرة ، لا يدل على انه كان عارفا بالفارسية وكتابتها ضرورة كما ان ورقة بن نوفل الذي كان يكتب الكتاب العبراني ، وفاطمة بنت مر التي كانت قرات الكتب ، لا يجعلنا نستسخف ان يقال عن الشعراء الجاهليين « انهم كانوا اميين » بالرغم من كونهم في طبقة ومنزلة ممتازة عند امتهم . وهل يشك في ان النبي ، ما كان قبل النبوة يدري « ما الكتاب » وانه كان اميا لا يعرف القراءة ، مع انه ما كان يقل قبل الاسلام ، منزلة ودرجة عن اولئك الشعراء الجاهليين.

وفي الفصل الثالث منه يستدل على ان الفرس لم يكن لهم من اثر حضاري في العراق ، بان الناس قلبوا ارضه ظهرا لبطن ، فوجدوا من الآثار ما يمكننا من تتبع تاريخ الدول التي مرت به منذ خمسة الاف سنة ، وليس من بين تلك الآثار ما ينتمي الى الفرس ، الذين لم يكن لهم ماض ثقافي البتة ، قبل الاسلام . وحتى ترجمة كليلة ودمنة ، لم تترجم من الفارسية الى العربية ، بل العكس هو الذي فعله ابن المقفع ،

بعد ما نقل الكتاب عن الهندية والسريانة الى العربية، يقول ابن النديم عن كليلة ودمنة « ونقل الى الفارسية بالعربية » ، فيقرر الا فضل للفارسية على العربية .

وهذا الذي قاله نجد المقدسي يقرره منذ الف سنة في كتابه الجغرافي ، وكنا قد نشرنا في السنة الماضية بالملحق الثقافي للعلم شيئا من هذا ، اتفقنا فيه مع ما بالكتاب ، الذي لم تكن قد قراناه . وعليه فبدء التاريخ الحضاري لفارس - كما يقول المؤلف - كان في ظل الاسلام « فلم تكن هناك اذن ثقافة فارسية ياخذها العرب عن الفرس ، ولم يكن هناك ادب فارسي او شعر فارسي ، حتى يؤثر بعض ذلك في الشعر العربي » هكذا يخرج بهذه النتيجة الناصعة ، ويبطل بها ما قيل من التاثير الفارسي في الادب العربي، ثم يتعرض الى التاثير اليوناني فيه فيذكر ان اليونانية كانت معروفة للعرب او لقاطني العراق قبل الاسلام ، وكان العرب والسريان هم اصحاب الارض ، فترجم الكثير من اليونانية الى السريانية قبل الاسلام وهي اخت العربية فكان العرب لذلك العهد على علم بطريقة النظم اليونانية ولكنهم لم يجدوا شعرهم في حاجة الى الاخذ منها فالعربية « لغتها اوسع ولفظها ادل ، واقسام تاليف كلامها اكثر ، والامثال التي ضربت اجود وايسر » كما يقول الجاحظ الذي كان على علم باليونانية - كما يقول المؤلف - والا لما امكنه ان يفهم ان اللفظ عندهم في الشعر يمط او يقبض او يبسط حتى تدخل (الالفاظ) في وزن اللحن ، فتضع موزونا على غير موزون ، » كما في البيان والتبيين . « فهذه الفروق مستخلصة ايضا من ادراك سليم للبنية الوزنية » ...

ومع اذعاننا الى سلامة هذا الاستنتاج ، الا يكون الجاحظ اخبر بهذا المط والقبض والبسط ، من عالم باليونانية ، دون علمه هو بها ؟ بالرغم من معرفته بثقافتها وتحدثه عن بعض المصطلحات المنطقية لها وعن الفيلسوف ارسطو الذي وصفه بالعي ، وهو مؤلف في البلاغة والخطابة والشعر ، ثم يرد على من قال ان العرب لم يستعيروا الملحمة والتمثيل ، من اليونان ، لكونهما « مليثان باسماء الآلهة » بكون كتاب الشاهنامة مؤلفا في ظل الاسلام بل ان « الامة العربية كانت قوية الشخصية ، شديدة الاعتزاز بادبها ... اعتزازا حال بينها وبين ان تاخذها تلك الصور التي تبدو لنا اليوم براقة خلابة ، لانها نراها تحت ضوء الدعاية الغربية لها ، في عهد تسلطها وقوتها » .

وانه لتعليل قوي لهذا التقليد الجارف ، فالعرب « يرون في القصص موضوعا اذا عولج في الشعر ، لم يف بالشرائط الجمالية الخاصة التي وضعوها لاسلوبه ولطريقته ، ولمعانيه ولالفاظه ... وليس حكمهم هذا من قبيل الاحتقار للقصة » في ذاتها بل لان شعرهم لا يهضمها ويحتضنها نثرهم ، بدليل كونها في القرءان من دعائم الاعجاز كما يذكر ذلك الباقلاني في كتابه « اعجاز القرءان »

واما التمثيلية ، فقد نشات في الادب اليوناني ، متجهة الى التبسيط والتقريب ، لشعوب كانت « لا تزال عند بداية الفهم » « فهي عند رجال المسيحية موسعة من صور الوثنية، يراد بها الى تجسيد الوقائع» اما المسلمون فكانوا « مجردين الى اقصى حدود التجريد » فادبهم امثل وارقى .

وبعد ما يسفه الآراء التي تغلو في رجوع الحضارة الاسلامية الى اليونانية ، يقول « ان تاريخ الحضارة الاسلامية التي تعتبر الحضارة اليونانية قطب الرحى فيه عند البعض ، يجب ان يكتب من جديد ، لانه تاريخ زائف » ثم بعد هذا ببضع صفحات يقول : « فاذا كانت الحضارة الفكرية العربية بفرعيها الكبيرين ، التفكير الاعتقادي والتفكير الشعري ، قد استطاعت ان تغلب على هذه البيئة المفتوحة تلك الغلبة الملحوظة، وان تفرض على سكانها ما كان عندها ، على الرغم من سبق هؤلاء السكان الى حضارات عريقة ، فتلك هي الظاهرة الفذة التي تستدعي ان نتدبرها طويلا ، وان نقف عندها المؤرخ موقفا مقبولا » .

وفي الفصل الاول من الباب الثالث ، يذكر ان المعجم العربي هو وحده اليوم « العمدة في حل طلاسم الآثار البابلية والاشورية » لان العربية هي « اقرب اللغات السامية الى اللغة الام » ان لم تكن هي الام نفسها .

وفيه يذكر ان الكثرة من سكان ارض الفراتين كانوا سريانا او عربا تطوروا بطول الاستقرار في البيئة، ولهذا سهل عليهم الاندماج في الفاتحين ، ولقفوا عنهم تقاليدهم في الشعر واحتفظوا بها تراثا عزيزا عليهم .

وفي الفصل الرابع منه ، يذكر ان ذا الرمة كان من اسباب تاخره عن الفحول « مذهبه الى التنقل والتقليد » وهو راى له اعتباره ، الا ان ذا الرمة لم يكن بذلك التقليد المحض ، بحيث ان بائيته العتيدة ما كانت الا ترديدا لمعلقة لبيد ، كما قال المؤلف ، بل

فيها الوان جديدة وصور لا وجود لهـا فى المعلقـة المذكورة ، وقد افرغ الشاعر جهده فيها ، فما زال مكبا عليها حتى ادركه حمامه ، كما يقول الرواة ... ولعل الظروف تسمح بنشر مؤلف لنا جعلناه حول هذا الشاعر ، فنرى ان بائيته ، قد جمعت كل عناصر فنه الشعرية .

ومن العجيب كون المؤلف ، يذكر الشاعر فى الصفحة التالية بانه « من طلائع الاتجاه الجديد » وهذا يعني انه لم يكن بتلك الصفة من التقليد والنقل فنقص الاصالة بذلك فى شعره .

وفى الباب الرابع ، الذي جعله لانتصار الشعبية فى الشعر ، تناول شعراء كانوا طلائع التجديد فيه ، فكان الوليد بن يزيد اهم الشعراء دراسة واوفرهم حظا من المؤلف المجيد ، يتلوه فى ذلك بشار ، بتشبيهه الايهامي ، الذي اوما اليه نفسه ، وقد بكى من هجائه بالقرد الاعمى ، كما هو معلوم .

وفى الباب الخامس المختص بالعصر العباسي ، كان ابو نواس الشاعر الذي تركزت حوله الدراسة اكثر من غيره ، كابي العتاهية او العباس بن الاحنف من الاوائل ، ثم كان من الاواخر ابو تمام الذي كان المؤلف قد خصصه بالدرس فيما مضى ، فنال من ذلك عناية اوفى مما ناله البحتري او ابن المعتز فابن الرومي .

واخيرا ياتي المؤلف بتلخيص لما مضى ولكنه ليس مجرد تلخيص ، بل فيه زيادة احيانا وتوضيح احيانا اخرى ، فهو من هذه الناحية لا يستغنى عنه ، فى تكميل الفكرة واستيعابها .

ونعود فنقول انه لكتاب حافل ، ودراسة جامعة، قلما نظفر بها فى هذه الايام ، فما اشبهه لنا بواحة تكتنفها المجاهل والقفار الواسعة الارجاء ...

ولا يفوتنا ان ننبه الى اخطاء وقعت فى النسخة التي بايدينا (نشر الخامجي سنة 1961) وجلها ينتمي الى الطبع وهي على كل حال ما ياتي :

فى الصفحة 173 كتب البيت هكذا :

وخبر تماني ان تيماء منزل لليلى
اذا ما الصيف القى المراسيا

فجعلت « لليلى » فى المصراع الاول ، مع انها بداية الثاني .

وفى الصفحة 181 سقطت (بهم) من البيت :

اين حي حلوك اذ انت محفو
ف (بهم) آهل اراك جميلا

وفى الصفحة 229 بالسطر الاخير ، وقعت العبارة « ترجم ... عن العربية او الفارسية » وصوابها « عن العربية الى الفارسية » .

وفى الصفحة 296 ينقل عن ابن الاثير ترجيل ام عمر بن عبد العزيز له ، مع ان المذكور فى ابن الاثير وغيره هو « مرجلته » لا امه ..

وفى الصفحة 332 سقطت « من » فى البيت :

دونكموها يا بني هاشم
فجددوا (من) عهدها الدارسا

وفى صفحة 409 كتب البيت هكذا :

احرم منكم بما اقول
وقد نال به العاشقون من عشقوا

فجعلت « وقد » بداية المصراع الثاني ، مع انها نهاية للاول .

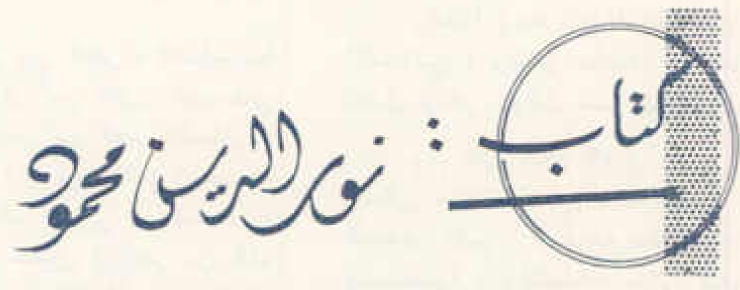
ثم كتب البيت هكذا :

حملت الهوى حتى اذا قمت بالهـ
وى خررت على وجهي واثقلني حملي

مع ان المصراع الاول ينتهي تماما بالهوى ، وليس البيت مدورا .

وفى الصفحة 410 ذكرت ابيات اربعة فيها بعض الاختلاف عما ذكرت به فى الصفحة 379 ، وربما كان هذا من اختلاف الرواية فيها وعلى كل ، فهي اشياء طفيفة فى كتاب تزيد صفحاته على خمس مالة صفحة ، يضاف اليها بعض الاستعمالات ، مثل « شتى » مضافة الى غيرها ، ومثل « لا زال » فى غير الدعاء ، بدل « ما زال » ، ومثل « هي الاخرى » مما هو مستعمل فى العامية المصرية ، ومثل الاعتماد فى قضايا التاريخ ، على بعض المصادر غير التاريخية ، كما يسفر عنه تعليقات بالصفحة 230 والصفحة 237 .

تطوان : محمد بن تاويت



تأليف الدكتور حسين مؤنس
تعليق ونقد : الدكتور أسعد محمود

نشر الدكتور حسين مؤنس كتابا تاريخيا قيما عن مجاهد عظيم من مجاهدي الاسلام ، كانت له اطول باع فى تحقيق الظروف الملائمة فى العالم الاسلامي ، لوقف امتداد خطر الصليبيين ثم للتغلب عليهم واقتلاع جذورهم ، فى عهد من خلفوه ، من ارضنا المقدسة .

والدكتور حسين مؤنس ليس بحاجة الى تعريف فله كثير من المؤلفات القيمة التي تبحث فى تاريخ العرب فى الاندلس ، وتراثهم وحضارتهم ، وله ايضا، عدد من الكتب المترجمة من الاسبانية الى العربية تتعلق بالموضوع ذاته .

وقد لفت نظري فى هذا الكتاب القيم ، وقوع اخطاء ، لاشك عندي ، فى ان بعضها يعود لاسباب الطباعة . ولكن المؤلف لم يلحق بالكتاب جدولا بالخطا وتصويبه ، لذلك اصبح من غير الميسور على القارىء غير المتعمق فى دراسة تاريخ الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين ، ان يلم بها ويكشفها ، وقد ورد بعضها مرة خطا ومرة صوابا ، وهذا يوقع القارىء فى بلبلة ، لانه لا يستطيع ان يعرف اي الوجهين هو الصحيح .

على ان بعض الاخطاء هذه ، اذا كان من اخطاء الطباعة ، فان هناك اخطاء اخرى ، فى الحوادث والوقائع ، والمواقع ، لا يمكن عزوها الى الطباعة ، وليس من السهل على القارىء ان يكشفها ، فيأخذها على انها الحقيقة ، ولا نظن ذلك مما يخدم الثقافة العربية .

واننا لا نجد سببا مبررا للاخطاء التي وردت فى الكتاب ، الا ان المؤلف ، كان فى عجلة من امره لاصدار الكتاب ، فلم يعمد الى المراجع والنصوص فى بعض المواضع ، واعتمد على ذاكرته ، كسبا للوقت ، فسبقته هذه الاخطاء .

والواقع هو اننا اذا رجعنا الى تاريخ نشر الكتاب لوجدناه عام 1959 ، وهو العام الثاني لقيام الوحدة بين مصر وسوريا ، ومعنى ذلك ان المؤلف فكر فى الموضوع ووضع الكتاب، بوحي من قيام الوحدة ولقد كان قيام هذه الوحدة الطوعية ، حدثا فريدا لا مثيل له فى التاريخ العربي كله . وقد قدر جميع المخلصين الاوفياء لتاريخ امتهم ، وأمجادها ، ان هذه الوحدة المباركة ، ستستقطب الاقطار العربية الواحد تلو الآخر ، حتى تجمعها جميعا فى مستقبل غير بعيد.

ويبدو ان هذه الفرحة العارمة ، التي عمت العرب لقيام الوحدة ، وجدت طريقها الى نفس الدكتور مؤنس ، فعطف نظره الى صفحات التاريخ ، ليجد مثالا لما وقع ، وكان له أثر حاسم على تطور الاحداث فى المنطقة ، فلم يجد مثلا افضل من الوحدة التي حققها نور الدين محمود بن زنكي ، بين مصر وسوريا ، فى النصف الثاني من القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ، اذ كان من نتيجة تلك الوحدة، ان احاطت بدويلات الغزاة الصليبيين فى الساحل السوري وفلسطين ، دولة قوية موحدة ، استطاعت احتواء مدهم المهدد وكسر شوكتهم ، ثم انتزاع زمام

المبادهة من ايديهم ، والزامهم باتخاذ خطة الدفاع ، بدل الهجوم والاستطالة على من حولهم من المسلمين ، حتى اذا جاء صلاح الدين الايوبي ، بعد قليل ، افاد من جهود نور الدين وجهاده ليضرب الصليبيين الضربة القاصمة في حطين .

والواقع ان الشبه كثير بين الحركة الصليبية (التي غزت العالم الاسلامي في آخر القرن الحادي عشر الميلادي ، واغرقته في بحر من الدم والنار ، وهددته بشر مستطير ماحق) ، وبين الحركة الصهيونية ، التي غزت العالم العربي في القرن العشرين ، وهي تغرقه منذ سنتين في بحر من الدم والنار ، وسيستمر اغراقها له في ذلك البحر ، ما دام شعبه مجزأ ، وارضه مقسمة ، وحكوماته متنافرة ، تحاول كل منها الحفاظ على ما تحت يدها ، لكيلا تحرم من التمتع بخيراته .

ونحن نشهد ، منذ اثنتين وعشرين سنة ، حفنة من المغامرين المنبوذين من مجتمعاتهم التي ترعرعوا فيها ، يتطاولون كل يوم على من حولهم من العرب ، يصولون ويجولون ، ويضربون حيث شاءوا ويخربون، حتى بلغت بهم الجراة حد تهديد العواصم العربية التاريخية ، كالقاهرة ودمشق وبغداد ، بالخراب والدمار .

واننا لا نشك في ان العرب لن يتمكنوا من احتواء المد الصهيوني المدمر ، ولن يتمكنوا من كسر حدة هذا الخطر ، ما لم يقيموا دولة واحدة ، موطدة الجوانب ، قوية البنيان ، اقتصادها سليم ، وصناعاتها مزدهرة ، ومثقفوها كثر ، يقوم كل منهم في محله الطبيعي المناسب له، يفكر ويعمل، وينتج بطوعه وحريته ، بلا خوف من تعسف ، ولا حذر من حساب وعقاب ، في غير الحدود التي ينص عليها القانون .

لقد حقق الصليبيون نجاحهم الذي اذهل العالم الاسلامي ، لانهم اتوا يسعون وراء تحقيق هدف معين، حددته لهم الكنيسة ، ودفعتهم اليه ، واثارت في نفوسهم حماسا لتحقيقه . ووجدت هذه الالوف الكثيرة الموحدة المقصد امامها عالما اسلاميا متفككا ، متنافرا ومتخاصما ، استهلكت الخلافات الداخلية طاقاته الحربية ، وقدراته الاقتصادية والعلمية ، وقد اخفت طغيان الفئات الحاكمة المتغلبة ، اصوات الحق والعدل والمنطق ، وخنق الاصوات المطالبة بالعودة الى التضامن والاخاء الاسلامي . وبلغ الامر ببعض الحكام حد التعاون مع الغزاة ، وتحقيق السلام معهم ، ظنا منهم ان ذلك ينقذهم ، ويحفظ كيانهم ، ويحل البلاء على خصومهم ومنافسيهم من الحكام المسلمين الاخرين، فكانت النتيجة على عكس ما املوه ، اكل الغزاة اخوانهم ، ثم انقضوا عليهم يثنون بهم .

وهكذا وجد الغزاة الصليبيون في تمزق العالم الاسلامي ، وتنافر حكامه ، وعدم اهتمام شعوبه ، افضل واكبر عوامل نصرهم المذهل .

ولم تكن حالة العالم العربي ، في مطلع القرن الحالي ، بافضل من حالة العالم الاسلامي في القرن الحادي عشر : شعوبه متخلفة ، وارضه مجزاة ومستعمرة ، واقتصاده بدائي متدن ، ومثقفوه قلة قليلة ، لا تشكل رقما في ميزان ، وعلماؤه ، اقل من القلة . وامة هذا حالها لا تستطيع أن تقيم جيشا قادرا على حرب حديثة ، سلاحها الاول العلم ، ولا ان تصمد امام قوى غاشمة ، ذكية ومثقفة ، تعرف ما تريد ، وتسعى وراء تحقيقه بدون كلل ولا ملل . وقد تمكنت بخبثها ودهائها وتضامنها ، في المجتمعات التي تعيش فيها ، من السيطرة على مقدرات شعوب ودول متقدمة ، وما زالت تلعب حتى اليوم ، ادوارا هامة في الميدان العالمي ، وتسخر اكبر القوى الدولية ، في خدمة مصالحها ومآربها .



اننا نظن ان جميع تلك الصور ، والافكار ، قد قامت في ذهن الدكتور مؤنس ، حينما تحققت الوحدة بين مصر وسوريا في شباط (فبراير) 1958 ، فقدر أن العرب بداوا يستفيقون من سباتهم ، ويستردون وعيهم من اثر الضربة الهائلة التيانزلها بهم الاستعمار والصهيونية ، بانتزاع قرار تقسيم فلسطين من الامم المتحدة في عام 1947 ، وتنفيذ هذا القرار فعلا في عام 1948 . وقدر ايضا ان عهد الذل والآلام والنكبات ، بدا ينحسر عن وجه العرب الى غير رجعة ، فاراد الاسراع في وضع كتابه ، ينقل مشاعره واحاسيسه الى اخوانه العرب ، واراد ان يستشهد باحداثالتاريخ ليدعم وجهة نظره ، وليبرر سبب استبشاره وتفاؤله ، ويتضح ذلك من الفقرة التالية التي اوردها في الصفحة 109 من الكتاب ، والتي جاء فيها :

« وكما ارتبط نصر عربالامس بظهور نور الدين محمود وسعيه بتوحيد المسلمين ، وجمع صفوفهم ، فلما وحد الموصل والجزيرة الفراتية والشام ، بدت طلائع النصر ، وبدا ان مصير امارات الصليبيين في

الشام ، الى زوال ، فكذلك ارتبط نصر عرب اليوم بظهور جمال عبد الناصر ، ورجاله المؤمنين بالعروبة ووحدتها وسعيهم الى توحيد العرب ، وجمع سقوفهم ... الخ »

وعلى كل حال فان كتاب الدكتور مؤنس ، عن بطل الاسلام نور الدين محمود — دفين دمشق — ، كتاب قيم لخص الحروب الصليبية ، واستعرض الكثير من احداثها ، وعرض الى عدد من الاسباب التي كانت تساعد الصليبيين في صراعهم مع المسلمين .

واشار بصورة خاصة الى ما كان للمنشقين عن الاجماع ، والمنتفعين من الكيانات المصطنعة الخاصة القائمة في بعض المناطق وخصوصا في دمشق وحلب، من اثر سيء ، على سير حركة الجهاد الاسلامي ضد الغزاة الصليبيين .

واننا نثبت ملاحظاتنا حول ما وقعنا عليه من اخطاء في الكتاب ، لكيلا تبقى مشوهة جماله وقيمته .

— ◆ —

اولا — جاء في الصفحة 70 من الكتاب الفقرة التالية :

« وخرج الجيش الرابع من جنوبي ايطاليا ، وجله من النورمانديين ، الذين غزوا هذه الناحية من البيزنطيين ، وانتزعوا صقلية من المسلمين ، وكان يقوده بوهمند امير طارنط (تارانتو) ، وابن اخيه تانكريد .. » ونورد على ما جاء في هذه الفقرة الملاحظتين التاليتين » ؟ :

1 — ان جميع الذين كتبوا عن الحروب الصليبية ، لفتوا النظر الى موضوع تشكيل الجيش الذي سار من جنوبي ايطاليا بقيادة الاميرين النورمنديين ، بوهمند وتانكريد ، وقالوا ان غالبية الجيش كانت من اهالي صقلية وجنوبي ايطاليا وان النورمنديين كانوا يشكلون الاطار القيادي للجيش .

واشاروا الى ان جماعة من المغامرين النورمنديين ، كانوا قد وصلوا في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، الى جنوبي ايطاليا (اي قبل الحماية الصليبية بمائة عام تقريبا) — وكانت هذه المنطقة تتنازعها سلطتان : البابوية والامبراطورية البيزنطية ، فسادت الفوضى هذه المنطقة ، وشجعهم البابا في عملهم هذا ، نكاية بالدولة البيزنطية ، وكان يرأس هؤلاء المغامرين ابناء نبيل نورمندي ، يدعى تنكريد (كونت هوت فيل) . وكانوا كلما احتلوا ارضا او مدينة استخدموا ما يحصلون عليه فيها من المغانم ، في استئجار متطوعة من المناطق المجاورة ، وبذلك تزايد عددهم حتى اصبحوا يؤلفون جيشا مهما ، مكونا في غالبيته من سكان جنوبي ايطاليا .

ولما زادت اهمية جيش هؤلاء النورمنديين ، اخذوا يهاجمون المسلمين في صقلية ، وانتزعوها من ايديهم ، وكونوا لانفسهم دولة فيها ، كان النورمنديون فيها القادة فقط ، وامتدت سلطتهم الى جنوبي ايطاليا . ولما جاءت الدعوة الصليبية ، نظم بوهمند جيشا من المتطوعة الذين ارادوا تلبية نداء الكنيسة ، وهم في غالبيتهم العظمى من السكان الاصليين لصقلية وجنوبي ايطاليا . ولذلك لا يمكن القول بان جيش بوهمند كان جله من النورمنديين.

2 — ان تنكريد هو ابن اخت بوهمند وليس ابن اخيه .

ثانيا — وفي معرض حديث المؤلف عن بوهمند امير انطاكية اورد في الصفحة 78 الفقرة التالية:

« وطمعت الدولة البيزنطية في انطاكية ، فاقبلت تشدد الحصار عليها ، وطال حصار البيزنطيين للبلد حتى اشرف على التسليم ، فجزع بوهمند ، وترك البلد ومن فيه ، وعاد الى اوربا لجمع الجند ، تاركا ابن اخيه تنكريد يحارب البزنطيين وحده ، ولم يسعه الا الاستسلام ، والدخول في طاعتهم ، وحكم البلد باسمهم ... »

وهذه الفقرة تستدعي الملاحظات التالية :

1 — ان البيزنطيين لم يحاصروا انطاكية في عهد بوهمند ، وانما حاصروا مدينة اللاذقية ، التابعة لامارة انطاكية .

وقد سارت الاحداث التاريخية على الشكل التالي :

في عام 1104 م هزم المسلمون — بقيادة سقمان بن ارتق امير ماردين ، وجكرمش امير الموصل — الفرنج هزيمة منكرة في معركة حران ، واسروا بودوان دو بورج ، امير الرها (اورفة) ، وجوسلين امير تل باشر . ونجا بوهمند وتنكريد، منهزمين من المعركة ، فشجع ذلك الدولة البيزنطية على محاولة اثبات حقها في السيادة على مدن كيليكيا ، وامارة انطاكية . فتحرك جيش بيزنطي واحتل المدن الرئيسية في كيليكيا ، وهي المصيصة وطرطوس وآذنه ، وتوجه اسطول بيزنطي الى اللاذقية لاحتلالها . وهاجمت قوات الاسطول

البيزنطي مدينة اللاذقية واحتلتها ، ولجأ الصليبيون المدافعون عن المدينة الى قلعتها ، يتابعون المقاومة. فضرب البيزنطيون الحصار حول القلعة ، وعزلوها عن البحر بجدار ، لمنع وصول النجدات والمؤن الى الحامية .

وادرك بوهمند الخطر الذي يحدق بامارته من جهة المسلمين ومن جهة البيزنطيين على السواء ، وقدر انه لن يستطيع انقاذها مما يحيق بها من اخطار ، الا بعون حملة صليبية جديدة ، فعهد بالامارة الى ابن اخته تنكريد ، وسافر الى اوربا .

وانشغل تنكريد بمحاربة جيرانه المسلمين عن انجاد حامية اللاذقية ، فاستسلمت للبيزنطيين .

ولكن لما تفرغ تنكريد من تثبيت اقدامه شرقي نهر العاصي ، التفت للرد على البيزنطيين . واسعفه الحظ بوصول اسطول (بيزاني) ، الى السواحل السورية ، فاتفق قادته على التعاون مع تنكريد ، ضد البيزنطيين لقاء منافع ضمنها تنكريد لهم في اللاذقية وانطاكية ، وتمكن تنكريد من استرجاع اللاذقية . ثم انتصر على القوات البيزنطية ، التي كان يقودها القائد الارمني (اوشين) ، قرب المصيصة عام 1108 ، واسترجع مدن كيليكيا التي احتلها البيزنطيون .

2 ــ لم يخضع تنكريد لحكم البيزنطيين ، ولم يعلن الطاعة لهم ، وانما حاربهم ، وانتزع منهم اللاذقية وكيليكيا ، كما تبين من سير الاحداث الذي اوردناه . ولم يقل احد من المؤرخين ان تنكريد خضع للبيزنطيين .

3 ــ ان تنكريد هو ابن اخت بوهمند ، وليس ابن اخيه .

ثالثا : وحينما عرض المؤلف لحصار الصليبيين مدينة نيقية ، عاصمة السلطان السلجوقي قلج ارسلان عام 1097 م (490 هـ) أورد الفقرات التالية :

في الصفحة 88 :

وعندما دخلت الحملة الصليبية الاولى اراضيه، (يعني قليج ارسلان) ، واقبلت تحاصر عاصمته في رجب 490 هـ (مايو 1097 م) ، كان في استطاعته ان يدحرها ، لو ان نفسه كانت مشربة بشيء من الايمان الذي كان يملأ قلب رجل مؤمن مثل ملكشاه ، عندما نازل مثل هذه القوة في ملاذ كرد .

وفي الصفحة 89 :

وقد ابلى اهل نيقية بلاء حسنا، حتى قتلوا نفرا من كبار القادة ، مثل بلدوين كونت (غنت) ، ولم يسلم قائد بيزنطي من سهام المسلمين . وكان امل المحاصرين عظيما في قليج ارسلان ، ولكن هذا الرجل لم يكد يقترب من المدينة ، ويرى الصليبيين ، ويشتبك معهم في مناوشة قصيرة ، حتى آثر السلامة ، وانسحب تاركا البلد لمصيره ، وفيه زوجته وعياله ..

وفي الصفحة 90 :

وقد لقي قليج ارسلان جزاء جبنه، فظل بقية ايامه شريدا ، فيما بقي له من ملكه . ومن الغريب ان همته لم تسم به الى النهوض للصليبيين بعد ذلك ، بل مضى يحارب اخوانه المسلمين ، محاولا ان يفوز بشيء من اراضيهم يعوض ما ضاع ، وقد كانت خاتمته شر ما تختم به حياة رجل ، عدا على الموصل ودخلها ، فنهض له صاحبها ، واوقع به هزيمة ساحقة عام 500 هـ، وقد قطعت ذراعه اثناء المعركة ، ورأى نفسه، سيصير الى اسر اعدائه ، فالقى نفسه في خندق غرق فيه ، فلقي بهذا جزاء وفاقا على ما كان منه من خور وخيانة لامانة الحكم والاسلام ..

وهذه الفقرات تستدعي بعض الملاحظات حول موقف قليج ارسلان ، من الحملات الصليبية :

1 ــ ان الذين كتبوا تاريخ الحروب الصليبية في الغرب ، وخصوصا الذين رافقوا الحملة الصليبية الاولى ، شهدوا لقليج ارسلان بغير ما ذكره المؤلف حتى انهم لقبوه (بالاسد الاحمر) ، وقالوا عنه انه قاتل في معركة ضوريليوم (اسكيشهر) ، بنفسه متقدما رجاله ، وكأنه واياهم ذاهبون الى وليمة (رونسمان ج 1 ص 178)

2 ــ اسمى المؤلف المعركة التي خاضها الجيش التركي بقيادة قليج ارسلان يوم 21 ايار (مايو) 1097 م / امام مدينة نيقية ، بأنها مناوشة صغيرة والواقع انها كانت معركة رهيبة دامت نهار ذلك اليوم بطوله ، حتى قال مؤرخو الغرب عنها ان

خسائر الصليبيين فيها كانت كبيرة جدا ، واعتبروا ان جميع الذين خرجوا سالمين من المعركة ، كانوا جرحى (رونسمان ج 1 ص 172 الطبعة الاسبانية) ومن الطبيعي ان تكون خسائر المسلمين في هذه المعركة كبيرة ايضا .

3 — خاض المعركة من الجانب الصليبي قرابة نصف الجيش ، بينما بقيت القوات الاخرى امام ابواب المدينة ، حيث هي ، تمنع الدخول الى المدينة والخروج منها ، ولذلك فان الجيش الصليبي كان له احتياطي ضخم يمكنه من أن يباشر الحرب، ضد الاتراك . الذين زجوا بجميع قواتهم في المعركة ، بأمل زحزحة القوات الصليبية ، المرابطة امام الابواب الجنوبية . ولما لم يستطع السلطان ان يحقق نجاحا ، وجد انه لابد له من الانسحاب ، لجمع قوات اخرى ، لمواجهة هذا السيل الزاحف اليه .

4 — وبالفعل ، ارتد السلطان الى الشرق وسوى خلافاته مع خصومه الدانشمنديين، واستقدم قوات جديدة من اتباعه ، ثم توجه مع قوات الدانشمنديين يتمركز في ضوريليوم (اسكيشهر) ، ليقطع الطريق على الصليبيين .

وفي اول تموز (يوليو) 1097 م ، وصل الجيش الصليبي الاول ، بقيادة الكونت بوهمند ، الى ضوريليوم (وكان الصليبيون قد قسموا قواتهم الى جيشين ، يسيران على مسافة يوم واحد من بعضهما ، ليسهل على الناس تامين المؤن والماء) — فانقض قليج ارسلان ورجاله على الفرنج ، انقضاض الصواعق ، وجرت معركة بين الجانبين، من اكثر المعارك عنفا في التاريخ ، وكاد المسلمون يقضون على الجيش الصليبي برمته ، لو لم يسرع الجيش الاخر لانجاده ، وكان المسلمون قد قذفوا بجميع قواتهم في المعركة ، ليحققوا نصرا سريعا بحسم الموقف، فلما وصلت القوات الصليبية الاخرى واشتركت في المعركة ، وجد قليج ارسلان ان قواته قد تعبت من ثقل المعركة طوال النهار ، وانها اصبحت اقل عددا من الصليبيين ، ففضل الانسحاب .

5 — كانت القوات الصليبية التي زحفت على نيقية عام 1097 م ، تقارب النصف مليون رجل او تزيد قليلا ، وقد قال المؤرخون الغربيون الذين رافقوا الحملة الاولى ، ان عدد الصليبيين الذين احاطوا بمدينة نيقية ، يقدر بثلثي مليون رجل ، وانهم كانوا يغطون مساحة من الارض تقدر بين ست مراحل مربعة وثماني .

وقدر مؤرخون رافقوا الحملة ان جيش غودفروا كان بحدود الثمانين الف مقاتل ، عدا الحجاج والنساء ، وان الجيوش الثلاثة الاخرى ، كانت قريبا من هذا العدد . اي ان الجيوش الصليبية كانت قرابة 320 الف رجل وقدر المؤرخ العربي ابن العديم ، الجيوش الصليبية بما يقارب الثلاثمائة وعشرين الف رجل .

6 — اما الاتراك في الاناضول ، فانهم لم تكن بيدهم غير الصحراء ، وقليل من المدن ، وكانت اكثرية اهل المدن من اليونانيين النصارى ، ولذلك فان الاتراك كانوا مضطرين الى الاحتفاظ بقوات ضخمة في المدن التي يحتلونها ، لمنع انتفاضة اليونانيين عليهم .

وهذا يفسر لنا الاسباب التي لم تمكن السلطان من حشد قوات كبيرة توازي او تقارب القوات الصليبية .

7 — لقد اذهلت الحملة الصليبية الاولى العالم الاسلامي كله ، اذ لم يكن احد فيه يتوقع ان يكون الزحف الصليبي بهذه الضخامة المرعبة ، وربما كان قليج ارسلان يتوقع حملة تقارب في عددها حملة بطرس الراهب ، التي ابادها قليج قبل قليل ، اي بحدود خمسة وعشرين الف رجل ، او اكثر قليلا . ومن الطبيعي ان تكون مفاجاة مسلمي آسيا الصغرى كبيرة ، اذ كانوا اول من تلقى ثقل الهجوم الصليبي وعنفه . وعلى هذا فان انسحاب قليج ارسلان نحو الشرق ، ليعيد تشكيل قواته ، وليستعين بالدانشمنديين ، وليجمع ما يستطيع جمعه من المحاربين .. كل ذلك يمكن ان يكون مفهوما في ضوء ما سردناه .

8 — ان السلطان السلجوقي الذي انتصر على البيزنطيين في معركة ملاذ كرد هو الب ارسلان ، وليس ملكشاه . كما ذكره المؤلف .

ثم ان الامبراطورية البيزنطية كانت يوممعركة ملاذ كرد ، فى طور الانحطاط والتفسخ ، وجيشها فى غالبيته من المرتزقة . ولكل معركة ظروفها التاريخية والعسكرية ، فلا يمكن ان يلام قائد على هزيمته فى ظرف ما ، لان قائدا آخر انتصر فى ظروف اخرى ، وفى معركة اخرى .

ولوم السلطان قليج ارسلان على هزيمته فى معركة نيقية (والاصح القول عدم نجاحه فيها) امام الصليبيين ، الذين استقتلوا فى المعارك ، وكان يقودهم قادة مدربون اكفاء ، لان السلطان الب ارسلان ، انتصر على البيزنطيين المتفسخين ، أمر لا يمكن فهمه ابدا .

9 — لقد مات قليج ارسلان ميتة بطولية ، اذ انه لما راى عسكره انكشففىالمعركة ، آثر الموت غرقا فى نهر الخابور، على الوقوع بيد اعدائه اسيرا، وليس هذا شان الجبناء .

وقد ذكر ابن الاثير نبا موت قليج ارسلان فى حوادث عام 500 هـ ، ومما جاء فيه :

« وعجل جاولي بالالتحام بقليج ، قبل ان تصله امداداته ، والتقوا فى 20 ذي القعدة ، وحمل قليج بنفسه ، وضرب جاولي فقطع الكزاغند ، ولم يصل الى جسمه . وحمل اصحاب جاولي على اصحابه فابانوهم ، ولما راى قليج انهزام عسكره، ادرك انه لم تعد له نجاة ، فالقى بنفسه فى الخابور وحمى نفسه بالنشاب من اصحاب جاولى ، فانحدر فرسه الى موضع عميق فغرق » .

وهذا النص يظهر :

ا — ان موت قليج ارسلان كان غرقا فى نهر الخابور ، وليس فى خندق .

ب — ان يده لم تقطع ، لان من تقطع يده او ذراعه ، لا يستطيع ان يحمي نفسه بالنشاب .

ج — ان قليج ارسلان رجل جرىء وشجاع ، يفضل الموت على الاستسلام لاعدائه .

10 — ان قليج ارسلان لم يقض بقية حياته شريدا طريدا ، لانه اتخذ قونية عاصمة له ، واستقر فيها .

11 — ليس صحيحا ان قليج ارسلان انسحب من حروب الصليبيين ، فقد خاض معهم معركة ضوريليوم (اسكيشهر) وقاتلهم قتالا شديدا .

كما كان لقليج ارسلان الفضل فى القضاء على الحملة الصليبية التي جاءت الى الشرق عام 1101م والمعروفة بحملة اللومبارديين ، بالتعاون مع الغازي بن الدانشمند . ويقدر المؤرخون الغربيون تعداد من ابيد من الصليبيين الذين اشتركوا فى هذه الحملة باكثر من مئة وستين الفا . وليس هذا شان الجبان الشريد .

12 — اما قتال قليج ارسلان لاخوانه وجيرانه المسلمين ، فلم يكن ذلك شيئا انفرد به قليج ارسلان ، بل كان مرضا مزمنا ، ابتلى به العالمان الاسلامي والعربي ، منذ الفتح الاسلامي ، واستمر قرونا طويلة ، وما زلنا نجد له آثارا فى عالم اليوم .

رابعا — وفيما يتعلق بتتمة الحرب ، اورد المؤلف الفقرة التالية فى الصفحة 90 :

« ووجد اديمار — اسقف ليون مندوب البابا — والرئيس الروحي للحملة ، ان الفشل محيق لا محالة، فزعم ان طائفا اتاه فى نومه ، وقال له ان الحربة التي طعن بها السيد المسيح ، مدفونة فى مكان ما خارج السور ، فلما حفر الناس ووجدوها ، اشتدت حماستهم ، اذ راوا فى ذلك بشرى من الله بالنصر ، فعادوا يستبسلون فى القتال ، والياس يملأ قلوبهم ، واتضح للصليبيين بعد ذلك ، انه دفن الحربة المزعومة بيديه ، قبل ذلك .

ولو كان ياغيسان من الصابرين المؤمنين ، لما عسر عليه القضاء عليهم ، ولكنه جبن عندما راى بعضهم على السور وولى هاربا ، واراد الله ان يخزيه، وان يميته شر ميتة ، فقد خارت قواه ، وادركه الهلع وهو هارب ، حتى لم يعد يتمالك على حصانه ، فتركه من معه ومضوا ... »

وهذا النص يستدعي الملاحظات التالية :

1 — قال المؤلف فى هذا النص وفيما قبله ، ان قصة الحربة كانت قبل سقوط انطاكية بايدي الصليبيين، واخترعها مندوب البابا لرفع معنويات الجند ، ليحملهم على المضي فى الحصار ، لقهر المدينة

واحتلالها ، لذلك دفن الحربة خارج الاسوار ... مع ان الروايات التاريخية تجعل قصة الحربة بعد ان احتل الفرنج انطاكية ، واحدق بهم جيش اسلامي كبير يقوده امير الموصل (كربوقا) ، وحصرهم في المدينة حتى اشرفوا على الهلاك ، فاراد بوهمند ، وقد تسلم قيادة القوات الصليبية ، أن يرفع معنويات جنده ، ليخوض بهم معركة يائسة ضد المسلمين ، قدر انها السبيل الوحيد لنجاتهم مما هم فيه ، فاخترع قصة الحربة ، واتى بفلاح بسيط دفعه للقول ، بانه راى القديس اندريه ، فدله على مكان الحربة ... الخ فبحثوا عنها في ساحة الكنيسة حتى وجدوها .

وهذا يدل على ان قصة الحربة اخترعت والصليبيون داخل انطاكية ، وليس قبل احتلالها .

واشار ابن الاثير الى قصة الحربة، وقال انها وقعت ابان قيام كربوقا بمحاصرة انطاكية .

2 — ان جميع الذين عالجوا تاريخ الحروب الصليبية ، اشاروا باعجاب كبير الى جهود باغيسيان ، والى جودة رايه ، وحسن بلائه في ادارة اعمال الدفاع عن المدينة طوال عشرة اشهر، وذكروا ان الخيانة هي التي مكنت الصليبيين من الاستيلاء على انطاكية .

ولما تسلق الصليبيون السور ليلا ، وضربوا بوقهم ، استيقظ المسلمون فزعين، وفيهم باغيسيان فظن ان الفرنج قد احتلوا القلعة ، وان الموقف قد افلت من يديه ، فآثر السلامة ، وخرج من المدينة هاربا . فلما زال عنه الروع والانفعال، تأثر لخروجه من المدينة ، واسلامها للعدو ، دون أن يثبت مع اهلها ويقودهم في دفاعهم المجيد فاثر ذلك في نفسه، وادى الى اصابته بما يشبه النوبة القلبية ، او النزيف الدماغي ، شل فعاليته، واسقطه عن جواده فظن اصحابه انه مات فتركوه ، ومر به انسان ارمني ، فعرفه واحتز راسه ..

خامسا — وفي معرض تعليق المؤلف على ما اورده اسامة بن منقذ ، في كتاب الاعتبار ، عن تبرير مسالة اهل شيزر للصليبيين ، اورد المؤلف في الصفحة 100 الفقرة التالية :

وقد احتج اسامة بن منقذ في تاريخه بان اباه انما فعل ذلك اذ لم يكن له قبل بقوات الصليبيين ، وتلك الحجة لا ينتحلها الا مغالط مكابر ، اذ ان بني شيزر لو صمدوا لكسروا الصليبيين ، ويكفي ان نذكر هنا ما فعله امير صغير هو ابو محمد ، عبيد الله منصور صاحب جباله ، فقد هاجمها الصليبيون ، وحاصروا بلده فاحتال عليهم واشاع ان السلطان بركياروق ، في الطريق لانقاذ البلد ، فخاف الصليبيون ورفعوا الحصار ، ثم عادوا يحاصرونه ، فاشاع ان الفاطميين في الطريق لعونه .. » .

وهذا النص يستدعي الملاحظتين التاليتين :

1 — ان شيزر قرية صغيرة ، كما تشير الى ذلك كتب التاريخ ، وكما تشير اليه اثارها الباقية حتى اليوم ، ولا نظن ان سكانها قد تجاوزوا الخمسة الاف نسمة على احسن تقدير ، في ايام اسامة بن منقذ ، ولذلك فاننا لا نظن ان قرية في مثل حجم شيزر ، تستطيع التغلب على الصليبيين في سيولهم الجارفة ، او الثبات في وجوههم طويلا ، لا سيما وان آل منقذ قد علموا بلا شك ، ما ارتكبه الصليبيون من فظائع رهيبة حينما احتلوا المعرة وانطاكية والبارة .. كما علموا بلا شك بان الصليبيين قد تغلبوا على جيوش السلاجقة الكبيرة، التي وقفت في وجوههم .

واننا لا نعتقد مع المؤلف ، ان ثبات اهل شيزر كان يمكن ان يؤدي الى قهر الصليبيين ، او الى تغيير الاحداث ، ولكننا نرى من جهة اخرى ان العالم الاسلامي بتفككه وتناحره ، يسر سبيل النجاح للصليبيين ، وانه لو كان هذا العالم موحد الكلمة ، خاضعا لسلطة واحدة لما جرؤ الصليبيون على تحديه ، ولما تمكنوا من ضربه بشكل متفرق كما وقع فعلا .

2 — ان الجيش الصليبي الرئيسي سار الى المعرة فافتتحها وذبح اهلها ، وسار منها الى شيزر فطرابلس ، اما الذين ساروا من انطاكية الى جبلة فكانوا افرادا قلائل ، تخلفوا في انطاكية ، ثم اراد الالتحاق بالجيش الصليبي ، وهو مقيم على طرابلس . وقد حاولوا ان يجربوا حظهم في حصار جبلة فلم يوفقوا .

ولذلك لا يمكن قياس موقف حاكم جبلة ، من قلة من الافراد كانت تحاصره ، وهي في عجلة من امرها لتلحق بالجيش الصليبي ، على موقف آل منقذ من جيش ضخم ، يسير ليدمر ويخرب ويفتح

سادســـا — وجاء في الصفحة 123 الفقـــرة التاليـــة :

« استقر شرف الدولة مودود في الموصل ، وقد ملأت نفسه فكرة الجهاد فطلب الى اخيه السلطان ، ان يأمر الامراء بالخروج معه ، فاجتمع اليه سقمان الارتقي ، صاحب تبريز وبعض ديار بكر ، وايليك وعماد الدين زنكي ابنا ابي سنقر البرسقي ، امير همدان وماجاورها وارسل ايلغازي صاحبماردين ابنه وخرج معهم مسعود ابن السلطان محمد ، ووريثه في السلطنة وغيرهم ... الخ » .

وهذه الفقرة تستدعي الملاحظات التالية :

1 — كرر المؤلف في هذه الفقرة ما اورده في مكان آخر من الكتاب ، من ان شرف الدولة مودودا هو اخ للسلطان محمد ، وابن للسلطان ملكشاه ، مع ان ابن الاثير يشير في تاريخه — وهو اكثر مـــن اهتم بتفصيل تاريخ السلاجقة الى ان مودودا هو ابن التونتكين ، فقد ذكر في حوادث عام 507 هـ ، الفقرة التالية :

« في هذه السنة في المحرم اجتمع المسلمون، وفيهم الامير مودود بن التونتكين ، صاحـــب الموصل.. » وذكر ابن الاثير في حوادث عام 504 هـ، ان وفدا من اهالي حلب ، وصل الى بغداد يستنفر الخليفة والسلطان على الفرنج ، حتى انهم كسروا منبر المسجد الجامع « وبطلت الجمعة ايضـــا ، فارسل الخليفة الى السلطان في المعنى يأمـــره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه ، فتقدم حينئـــذ راي السلطان الى من معه من الامراء بالمسير الـــى بلادهم ، والتجهيز للجهاد ، وسير ولده مسعودا مع الامير مودود صاحب الموصل ... » .

2 — ان امير همدان فيذلك الحين هو برسق بنبرسق، وليس اقسنقر البرسقي ، وقد اورد الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، في كتابه الحركة الصليبيـــة (ج 1 ص 461) اسماء الامراء الذين اشتركوا في الحملة تحت قيادة مودود على الشكل التالي :

« وكان ان اجتمع تحت قيادة مودود ، حاكم الموصل ، جميع حكام الاقاليم ، في دولة السلاجقة: سكمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر ، والاميران ايلنكي وزنكي ، ابنا برسق ، وكانا يحكمان همدان وخوزستان .. »

واشار ابن القلانسي في حوادث عام 505 هـ الى اسماء الامراء الذين اشتركوا مع مودود ، وقال ان الامراء المسلمين (نزلوا على تل باشر في 19 المحرم ، واقاموا عليه منتظرين ، وصول الاميـــر برسق بن برسق امير همدان) .

3 — ا — لم يشترك سقمان الارتقي في المعركة التي جرت عام 507 هـ ، لانه كان قد توفي عام 498 هـ وهو متجه الى دمشق .

ب — لم يكن سقمان الارتقي صاحب تبريـــز ، وانما كان صاحب ماردين .

ج — ان الذي اشترك في التجمع الاسلامي عام 507 هـ هو سكمان القطبي امير ارمينيا وخلاط وميافارقين في ديار بكر . وهو غير سقمان بن ارتق .

سابعـــا : ويقول المؤلف في الصفحة 134 :

« تلقى راية الجهاد بعد مودود ، رجل مـــن حلفائه ، شاركه في معظم حملاته ، وقبس منه فكرة الجهاد ، هو ايلغازي ابن ارتق ، صاحب ماردين ، ولم يكن ايلغازي من نسيج مودود ، وكانت ولايتـــه صغيرة ، وموارده قليلة ، ولكنه حمل الراية قدر ما اطاق ، حتى سلمها بعد ذلك للامير اق سنقر والـــد عماد الدين زنكي ، وجد نور الدين محمود ، وهـــو — اي ايلغازي — واخوه نور الدولة (بلك) ، وعماد الدين زنكي ... الخ »

وهذا النص يستدعي الملاحظات التالية :

1 — ان الذي خلف مودودا في امارة الموصل ، وباشر جهاد الفرنج هو اقسنقر البرسقي .

2 — اما اق سنقر ، والد عماد الدين زنكـــي ويسمى قسيم الدولة — فقد كان قتل قبل ذلـــك بوقت طويل ، في معركة تل السلطان عام 487 هـ ، التي جرت بين جيش تابع للسلطان بركيـــاروق — يقوده اقسنقر نفســه — وبين جيش يقوده تتش ابن البب ارسلان ، عم السلطان بركياروق .

3 — ان بلك بن بهرام بن ارتق ليس اخا لايلغازي ، وانما هو ابن اخيه . والمؤلف نفسه يشير الى ذلك في موضع آخر من الصفحة 131 ، اذ جاء فيها :

« واقر نجم الدين ايلغازي الامور في بـــلاده

وعاد الى الشام .. وانضم اليه ابن اخيه نور الدولة بلك بن بهرام ابن ارتق ... »

ثامنــا ــ واورد المؤلف فى الصفحة 155 ، الفقرة التاليــــة :

« ذلك ان ايام الجيل الفتي المغامر مــــن الصليبيين ، ذهبت مع امس الدابر ، اكلتهم الحروب او ماتوا حتف انوفهم ، او عادوا الى بلادهم ، ولــم يعرف الصليبيون ، بعد الجيل الاول ، رجالا من طراز ريموند صاحب طولوز ، او بوهمند واخيه بلدوين ، وابن اخيهما تنكريد النورمنديين .. »

وهذه الفقرة تستدعي الملاحظات التالية :

1 ــ ان بوهمند ليس اخا لبلدوين .

2 ــ ان بلدوين (او بود وان) ليس نورمنديا ، وهو اخ لغود فروا اول ملك للصليبيين فى الشرق .

3 ــ ان تنكريد هو ابن اخت بوهمند .

تاسعــــا ــ اورد المؤلف فى الصفحة 162 الفقرة التاليــــة :

« اما فى دمشق ، فقد كانت الامور تسير مــن سيء الى اسوا ، فقد خلف الاتابك ظهير الدين طغتكين ابنه تاج الملوك بوري ، وكان فارسا نجدا ، ولكنه كان متهورا قصير النظر ، وكان زعيم الباطنية فى زمانه ، اسماعيل العجمي قد استقر فيها ، وبسـط يده عليها ، فسار بوري نحوه ، فما كان من ذلــك الضال المتآمر ، اسماعيل العجمي ، الا ان عرض على بونس صاحب طرابلس ، وبوهمند الثاني صاحـب انطاكية ، ان يسلم اليهما بانياس وانتقل الى بلادهما ، تاركا احد اتباعه فى البلد .

على اي الاحوال فقد سار بونس وبوهمنــد الثاني ، واستوليا على بانياس دون قتال ، ثم تقدم الصليبيان ، فحاصرا دمشق حصارا طويلا ، ولكن غزاة التركمان ، اصابوا من جندهما عددا عظيما ، وهطلت الامطار مدرارا فآثرا العودة » وبينما كـان بوهمند الثاني ، صاحب انطاكية فى الطريق عائدا الى بلده عن طريق تيليقية ، انقض عليه نفر مــن التركمان وقتلوه ، فأصبحت ابنته كونستانس وريثة للعرش ، وتولت امها اخت بلدوين الثاني الوصابـة عليها .

وهذه الفقرة تستدعي الملاحظات التالية :

1 ــ ان (اليس) والدة كونستانس هي بنت بودوان الثاني وليست اخته .

2 ــ ان حصار الصليبيين لدمشق لم يكن طويلا ، حتى انه يمكن القول انه لم يكن حصارا ابدا . اذ ان الصليبيين بقوا فى جسر الخشب ، فى موقع الكسوة اليوم على مسافة عشرين كيلو مترا من دمشق .

3 ــ ان بانياس المقصودة فى هذا النص هي بانياس الجنوبية ، وتقع جنوبي جبل حرمون (الشيخ) ، فى اول سهل الحولة على حدود فلسطين ، وليســت بانياس الساحل ، ولذلك لا علاقة لبوهمند الثاني بها ، ولا لبونس امير طرابلس ، وانما كانــت بانياس الجنوبية تهم ملك القدس ، ويتنازع ملكيتها مع امراء دمشق .

4 ــ ان مقر بوهمند هو انطاكية ، وكيليكيا ــ حيث قتل بوهمند ــ تقع شمالي انطاكية على مسافة لا تقل عن 100 كيلو متر ، والعائد من الجنوب ــ من فلسطين ــ الى انطاكية لا يمر فى كيليكية ، لان عليه ان يصل الى انطاكية اولا ، ولذلك لا يصح القول انه بينما كان عائدا من بانياس الى انطاكية عــن طريق تيليقية .. الخ .

5 ــ انسحب الفرنج من مواقعهم حول دمشــق فى 5 ــ 12 ــ 1129 م ، عائدين الى بلادهم ، بينما قتل بوهمند فى شهر شباط (فبراير) 1120 م ، فهناك اكثر من شهرين بين انسحاب الفرنج مــن غزوتهم لدمشق وبين مقتل بوهمند ، ولا يمكن ان يكون بوهمند بقي خلالها خارج انطاكية ، لاسيما وان الفرنج كانوا ينظرون بقلق متزايد الــى نشاط الامير عماد الدين زنكي فى حلب والشمال .

6 ــ واذا كان مقتل بوهمند لم يجر اثناء عودته من غزوة بانياس ودمشق ، وانما جرى وهو خارج من انطاكية . وتسرد الروايات الاسلامية والغربية ، خبر مقتله على الشكل التالي :

زادت الانتصارات التى حققها بوهمند (بيمند كما تسميه الرواية الاسلامية) على المسلمين ، فى جرائه وتهوره فاستطال واشتط. ولما مات طوروس امير الارمن فى كيليكيا عام 1129 ، ولحق به ابنه

قسطنطين ، اصبحت الامارة الارمنية في حالة فوضى فطمع بها الغازي ابن الدانشمند ، صاحب ملطية ، كما طمع بها بوهمند صاحب انطاكية ، وزحفا عليها في وقت واحد ، وعلى غير انتظار ، التقى الجيشان في سهل عين زربه في شباط 1130 م (524 هـ) ، فقتل بوهمند واكثر اصحابه ، واسر من بقي منهم حيـــا » .

7 ــ ان الذي تسلم بانياس من الباطنية، هو بودوان الثاني ملك القدس ، والاتصالات التي جرت بينهم وبين الفرنج انما جرت مع بودوان ، وليس مـــع بوهمند وبونس . فبانياس تدخل في المخطـــط التوسعي لمملكة القدسوليس لطرابلس او انطاكية

8 ــ ان الذي خطط للحملة على دمشق هو الملك بودوان الثاني ، الذي استعد لهذه الحملة استعدادا كبيرا ، واستقدم نجدات اوربا ، وجمع فيها امراء الصليبيين في المشرق كلهم ، بما فيهم بونـــــس وبوهمند ، ولذلك لا يمكن ان يقال ان الحملة على دمشق قام بها هذان الاميران .

عاشرا ــ واورد المؤلف العبارة التالية ، وهـــو في معرض الحديث عن احتلال زنكي لامارة الرهـــا في الصفحة 172 :

« وبينما هو منصرف الى لهوه ــ يعني جوسلين الثاني امير الرها ــ اذ عطف زنكي غربا ، واغـــذ السير وظهر امام انطاكية .. »

والصواب انه ظهر امام الرها (اورفة) وليس امام انطاكية ، لان انطاكية لم تكن موضع بحث في تلك الحملة .

حادي عشر ــ واورد المؤلف في الصفحـــة 202 العبارة التالية :

« فاتفقا ــ اي سيف الدين غازي واخوه نور الدين محمود ــ في اجتماع عقداه على ان تكـــون الموصل وما يتبعها شرقي الخابور ، احد نهيرات دجلة لسيف الدين .. الخ »

وهذا خطأ ، فالخابور احد روافد الفرات ، وليس الدجلة ، وهو ينبع من تركيا وتجتمع عـــدة روافد له قرب مدينة الحسكة ، ويسير جنوبا حتـــى مدينة الرحبة ، حيث يصب في الفرات .

ثاني عشر ــ واورد المؤلف في الصفحـــة 227 العبارة التاليـــة :

« وكان برترام الابن غير الشرعي ، لا لفونسو جوردان ، ابن ريموند كونت طولوز ، قد تلكأ في الشام بعد رحيل الملك لويس السابع والفرنسيين ، وكان يرى نفسه احق بامارة طرابلس من صاحبيهـــا الاول ومنشئها ، واضمر الاستيلاء عليها بالقوة ، فجمـــع نفرا من فرسانه ، وزعم انه متجه نحو الساحل ، ليبحر من احد موانيه ، فلما قارب حصن العريمة ، انقض عليه ودخله ، وتحصن فيه ، وربع ريموننــد دو بواتيه ، صاحب انطاكية للامر ، ولم يستطـــع التغلب على برترام .. الخ »

وقوله ربع ريموند دو بواتيه الى آخر العبارة خطأ ، لان الخلاف كان بـــين افـــراد اســـرة ســـان جيل صاحب طرابلس ، وكان في طرابـــس اذ ذاك ريموند الثاني ، حفيد سان جيل ، ولا علاقة لريموند دو بواتيه ، امير انطاكية بهذا الحادث . وقد حكـــم ريموند الثاني طرابلس من عام 1137 الى 1152 ، واحتل برترام بن الفونس حصن العريمة عام 1148 م.

ثالث عشر ــ وذكر المؤلف في الصفحة 228 العبارة التالية ، وهو في معرض الحديث عن موضوع احتلال برترام بن الفونس ، حصن العريمة ، واستنجـــاد ريموند الثاني بنور الدين :

« واسرع نور الدين الى هذه الفرصة ينتهزها، اذ وجدها سبيلا يمد بها ذراعا بين امارة انطاكيـــة ومملكة القدس ، ومضى بقواته فاستولى على حصني باسوطا وكفر هاب .. » الخ .

وهنا نلاحظ خطأ في ترتيب الحوادث ، فنـــور الدين احتل حصني بسر فوت وهاب ، اولا ثم ســـار الى بعلبك ، والتقى بمعين الدين انر ، اتابك دمشـــق وهناك وصله رسول من ريموند الثاني يستنجد بـــه ويحثه على مهاجمة حصن العريمة ، والقضاء علـــى برترام واصحابه ، ليتخلص من مطالبته بامارة طرابس.

وقد اورد ابن النديم الحوادث بالترتيب التاليفي الصفحتين 211 و 292 من الجزء الثاني من كتابه زبدة الحلـــب :

« وشرع نور الدين رحمه الله ، في صرف همته الى الجهاد ، فدخل في سنة اثنتين واربعين وخمسمائة الى بلد الفرنج ، ففتح ارتاح بالسيف ونهبها ، وفتح

حصن ما بوله وبسر فوث ، وكفر لاثا وهاب .. » الخ

ولم يذكر ابن العديم حصن باسوطا ، وانما ذكر بسر فوث .

ثم يقول بعد ذلك في الصفحة 292 :

« وخرج ملك الالمان ، ونزل على دمشق سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، وسار لنجدتها سيف الدين غازي من الموصل ، ونور الدين محمود ، فوصلا حمص .

وتوجه نور الدين الى بعلبك ، واجتمع بمعين الدين انر ، ورحل ملك الالمان عن دمشق ، وكان صحبته ولد الفنش ، وكان جده قد اخذ طرابلس من المسلمين ، فاخذ ولد الفنش هذا حصن العريمة من الفرنج ، وعزم على اخذ طرابلس من القمص ، فارسل القمص الى نور الدين الى بعلبك ، يقول له في قصد حصن العريمة ، واخذه من ولد الفنش .. الخ » .

ويقول ابن العديم في آخر الرواية :

« فزحف المسلمون اليه مرارا ، ونقب النقابون السور ، فطلب من به من الفرنج الامان ، فملكه المسلمون ، واخذوا من به من فارس وراجل وصبي وامراة ، وفيهم ابن الفنش ، وخربوا الحصن ، وعادوا الى حمص ..

رابع عشر — واورد المؤلف في الصفحة 233 العبارة التالية :

« واعاد نور الدين الكرة ، فاغار على بصرى ، وكانت تحت سلطان امارة انطاكية ، ومنها انتقل الى بغراس ، ليلتقي ريموند من جديد ، بعد ان اعد العدة ، واصلح بين تائديه ، واضطره للفرار امامه ، ثم توجه جنوبا وحاصر انب .. »

وقوله (بصرى) خطا لان بصرى مدينة تقع جنوبي سوريا ، وهي اليوم على الحدود السورية الاردنية . والصحيح انها (بغرى) وهي حصن بقرب دربساك ، قرب انطاكية ، تقوم على مداخل جبال اماتوس .

وقد جاء في زبدة الحلب (ج 2 ص 292) :

« وتجمع الفرنج ليقصدوا اعمال حلب ، فخرج اليهم نور الدين بعسكره ، والتقاهم ببغرى ، واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الفرنج ، واسر منهم جماعة ، وقتل خلق كثير .. الخ » .

وذكر الدكتور سامي الدهان ، محقق كتاب زبدة الحلب ، في هامش الصفحة 293 العبارة التالية :

« انظر دوسو ص 436 ، حيث يقول ان بغرى على حدود العمق ، بجوار دربساك »

خامس عشر — واورد المؤلف في الصفحة 241 ، العبارة التالية :

« واسرع نور الدين ليدفعهم عنها ، وكتب وهو في الطريق ، الى مجد الدين آبق ورجاله .. »

والصحيح انه مجير الدين آبق ، واورد المؤلف الاسم صحيحا في موضع آخر .

سادس عشر — واورد المؤلف في الصفحة 268 العبارة التالية :

« وعجل رينو دو شاتيون ، فعبر الى صقلية مع حلفائه الارمن » .

والصحيح انهم عبروا الى قبرص .

سابع عشر — واورد المؤلف في الصفحة 135 العبارة التالية :

« وفي اثناء ذلك كان روجيه قد ضيق على حلب ، حتى عدمت القوت ، واضطر لؤلؤا الى ان يقبل مناصفته في خراج بعض جهاتها ، حتى ينصرف عنه ، ولكنه اخذ المال ولم ينصرف ، واستمر يحاصر حلب فاذا هو في ذلك ترامت اليه اخبار سير ايلغازي ، فبعث يستنجد ببلدوين الثاني ، ملك بيت المقدس ، الذي خلف بلدوين الاول بعد موته ، وبلغه تحرك بلدوين لنجدته ، فتوبت نفسه ، واقدم على لقاء ايلغازي ، دون عدة كاملة ، والتقى الجيشان عند حصن قسطون ، ودارت معركة عنيفة ، انتصر فيها المسلمون ، واستولوا على هذا الحصن ، واستمرت المعركة ، ولقي روجيه مصرعه .. »

وهذا النص يستدعي الملاحظات التالية :

1 — ليس صحيحا ان روجيه كان مقيما على حصار حلب ، حينما نشبت المعركة التي قتل فيها ، والا فكيف نشبت المعركة عند حصن قسطون ، الذي يبعد عن حلب مسافة تزيد على المئة كيلو متر ؟

2 — مطلع العبارة يشعر القارىء بان امير حلب ، حينما وقعت معركة البلاط هو لؤلؤ ، وان روجيه

اضطره لدفع المال لينصرف عن حلب ، ولكنه اخـذ المال ولم ينصرف .

والصحيح ان لؤلؤا ، كان قد قتل قبـل ذلك بسنتين (سنة 511 هـ) ، وخلفه ياروقتاش الخادم الذي اتفق مع روجيه على ان يحمل اليه مـالا ، ويسلم اليه حصن القبة ، الذي يقع جنوبي حلب، ويتحكم بطريق القوافل المتجهة من حلب الـى الجنوب ، ليتمكن الفرنج من جباية المكوس ، مـن القوافل المارة .

وفي عهد ياروقتاش ، سادت الفوضى حلب فتزايد طمع الفرنج بها ، واخذوا بمضايقتهـا مضايقة شديدة ، وكرروا غاراتهم على ما حولها ، فاستنجد اهالي حلببامير دمشق طغتكين، فاسرع اليهم ، ولكن الفرنج هزموه ، ثم راسل اهل حلب امير الموصل ، ولكن اموره كانت مضطربة ، فلم يستطع انجادهم ، فلجاوا الى ايلغازي بن ارتـق امير ماردين .

وخف ايلغازي الى نجدتهم ، ثم حدث سوء تفاهم بينه وبين وجهاء حلب ، فانسحب عائدا الى ماردين ، ثم عادوا فاستنجدوا به مرة اخـرى ، فعاد الى حلب وتسلمها عام 513 هـ .

3 — حينما سار ايلغازي الى الفرنج ، لم يكونـوا مقيمين على حصار حلب ، وانما هو الذي استثارهم للحرب ،بجمع قوات كبيرة ، اطلقها تعيـث في اراضيهم ، وتنهب ما حول انطاكية ، فخرج روجيه لقتاله ، وارسل يستنجد بالملك بودوان ، وعسكر على طريق حلب انطاكية ، في مكان يعرف بالبلاط — وهو ما تبقى من الدروب الرومانية القديمة المرصوفة بالبلاط — ولبث هناك ينتظر وصول النجـدات الصليبية اليه ، ليخوض المعركة مع المسلمين ، ولكن ايلغازي فاجاه بالحرب وقضى على جيشه .

واذا فليس صحيحا ان روجيه خاض المعركة وهو على غير استعداد . وربما كانت العبارة الادق التي يمكن استعمالها في هذا المقام ، ان روجيـه استعد وخرج بجيش انطاكية كله ، ولكن عـدة الجيش الاسلامي كانت اكبر .

4 — ليس صحيحا ان المعركة جرت قرب حصن قسطون ، الواقع في سهل الروج قرب جسـر الشغور ، وانما جرت في منتصف الطريق تقريبا بين حلب وانطاكية، في السهل الواقع بين قرى تلعقبرين والسرمدا وترمانين على مسافة اربعين كيلو مترا من حلب ، في موقع البلاط ، قرب مركز الحدود في باب الهوى مع تركيا .

وقد اورد مؤرخ حلب ابن العديم ، الحوادث بالترتيب التالي :

ا — ذكر في الصفحة179 من الجزء الثاني من زبدة الحلب ، في حوادث عام 511 هـ :

« ان ياروقتاش هادن صاحب انطاكيـة روجار ، وحمل اليه مالا ، وسلم اليه حصن القبة ، ورتب مسيرة القوافل ، من حلب الى القبلة عليه ، وان يؤخذ المكس منهم لروجيه .

وورد سلطان شاه تقدمة العسكر وتدبير الامور الى عارض الجيش ، العميد ابي المعالي المحسن بن الملحي ، فدبر الامور وساسهـا ، وضعفت حلب ، وقل ارتفاعها (اي عائـدات جبايتها) ، وخربت اعمالها » .

ب) واضاف في آخر الصفحة 181 :

« وقوى طمع الفرنج في حلب لعدم النجدة وضعفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، واغاروا على بلد حلب ، واخذوا مالا لا يحصيه الا الله فراسل اهل حلب ، اتابك طغتكين ، فوعدهم بالانجاد ، فكسره جوسلين ، وعسكر الفرنج . وراسلوا صاحب الموصل ، وكان امره مضطربا بعد عوده من بغداد ..

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة اتابك على عزاز ، وضايقوها ، حتى اشرفت علـى الاخذ ، وانقطعت قلوب اهل حلب،اذ لم يكن بقي لحلب معونة الا من عزاز وبلدها .

ج — وذكر في حوادث عام 512 (ص 186 ج 2) ، ان ايلغازي بعد ان تسلم حلب ، وراسـل الفرنج ، في مال يحمله على عزاز ، ليرحلوا عنها (فلم يلتفتوا ، لقوة اطماعهم في امر الاسلام . وكان ايلغازي يعجز عن قوت الدواب ، وحلب على حد التلف ، فلما عرف من بعزاز ذلـك ، ويئسوا من دفع الفرنج ، سلموها اليهـم ، وراسلهم من بحلب في صلح يستأنفونه معهم ، فأجابوا الى ذلك لطفا من الله بهـم ، على ان

يسلموا الفرنج تل هراق ، ويؤدوا القطيعـــة المستقرة على حلب ، عن اربعة اشهر ، وهي الف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالا وغربا ..)

د ـ لما تسلم ايلغازي حلب ، وقرر الهدنة مع الفرنج ، ليكسب الوقت ، سار الى ماردين ، وجمع قوات كبيرة اكثرها من التركمان ، حتى قدر ابن العديم عدد من اجتمع اليه باربعـين الفا ، ووعده طغتكين بالنجدة ، وان يجتمع به في معسكره قرب حلب .

وقطع ايلغازي الفرات بقواته ، واخذ في الاغارة على الفرنج ، في اراضي تل باشر وتل خالد ، يقتلون ويأسرون وينهبون ، فوصلـت رسل حلب ، يستحثون ايلغازي ، على الوصول اليها لدفع الفرنج الذين يواصلون غاراتهم عليها من حصن الاتـارب . فسـار الـى السلميـة (شمالي حلب على مسافة عشرة كيلو مترات) ثم الى قنسرين (جنوبي حلب على مسافـة عشرين كيلو مترا) في اواخـر صفـر 513 هـ ، حيث اقام معسكره ، ولبث هناك ينتظر قدوم طغتكين مع جيشه ، ليشنا الحرب على الفرنج معـا .

وبث ايلغازي سراياه في اعمال الروج ، يقتلون ويأسرون ، واستولت هذه السرايا على حصن قسطون .

هـ ـ وجمع روجيه (سيرجال كما تسميه الرواية الاسلامية) الفرنج والارمن وغيرهم ، وكانت عدة جيشه حوالي عشرين الفا ، وخرج الـى جسر الحديد ، على نهر العاصي ، ينتظـر وصول الملك بودوان . ثم تقدم الى البلاط ونزل بين جبلين ، مما يلي درب السرمدا ، شمالي غرب الاتارب ، يوم الجمعة في 9 ربيـع الاول 512 هـ ، وشرع الفرنج في بناء حصن مطل على تل عقبرين (لعله حصن دير السرمدا) .

و ـ مل جند ايلغازي المقام في قنسرين ، والح عليه بمباشرة القتال فاستجاب لطلبهم ، وتحرك المسلمون من قنسرين يوم الجمعة في 16 ربيع الاول ، وباتوا قريبا من الفرنج ، وكان الفرنج يعتقدون ان المسلمين سينازلون حصن الاتارب ، او حصن الزردنا ، ولكن المسلمين ، احاطوا ، بالفرنج في الصباح ، ونشب قتال عنيـف ، استبسل فيه الفريقان . وارسل المسلمون قوة استولت على خيام الفرنج ، وقتلت من فيها . ولبثت مقيمة فيها تقتل كل من يصل من الفرنج منهزما من المعركة .

دمشق : في 30 يوليو 1970

الدكتور أسعد حومد





لعل الوشيجة المتينة التي ربطت بين الاستاذ عبد الحفيظ فرغلي مؤلف هذا الكتـــاب ، وبين ابن عربي ، هي هذا الحب الذي تغذيه العاطفة العميقـة للتصوف ، والتقدير السامي لرسالته ، والنظر الواعي الى تلك الحقائق التي ضلت الافكار في الوصول اليها ، عبر ازمان طويلة منذ ان كان ابن عربي واضرابــه من امثال السهروردي البغدادي، والشاذلي، والدسوقي، والبدوي ، وابن الفارض ، وابي العباس المرسـي ، وغير هؤلاء ممن عاشوا على الصعيديـــن : العربـي والاسلامـي .

او لعل هذا المتشابه هو الذي جمع بين المؤلف والمؤلف عنه من الغمرة بين البحاث ، والتوهان بين العالميـــن :

فابن العربي ، بالرغم من الشهرة الواسعة التي احاطت به ، والكثرة الكاثرة التي اخذت منه وتعلمت عليه ، لم ينل حظا وافرا من الكتابة عنه ، او التعريف بمتجهه في رسالته ، اللهم الا ما تضمنته كتب التراجم والادب والتصوف والطبقات والدوائر ، وكذلك كان الاستاذ عبد الحفيظ ، على الرغم من شهرته العلمية، واحاديثه في الدقائق ، لم يقع له ما وقع لانداده العلماء من ذيوع الصيت ، وبعد الاثر ، ما بلغـت اليـه ، بالتاريخ له ، او الاشارة اليه ، كما كان ابن عربـي ، عليه سلام الله . .

على انني لا اظلم ابن عربي ، كما ظلمه معاصروه من الكتاب ، او تناساه من لحقهم من المؤرخيـــن ، فاثبت عنه اكثر من كتابين ، تناولاه اولهما : للمرحوم الاستاذ طه عبد الباقي سرور ، وثانيهما للمستشرق: آسين بلاثيوس ، وترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي.

والربمات هنا كثيرة في عدم التناول او التاريخ للشيخ الاكبر ، كما اصطلح على تسميتـه ، وان كان اولاها عندي ، هذه الهالة التي احاطت بابن عربي في متجهه ومنهجه ، مما عاق كثيرا من الباحثيـــن الى اطلاق الاحكام عنه بسهولة ، دون التدقيق المستطاب، او الاستخلاص المستحب . .

بدا مؤلف هذا الكتاب الاستـــاذ عبد الحفيظ فرغلي ابواب بحثه بتحقيق كنية محي الدين بن العربي، بعد ان ذكر اباه واجداده ، وانه هو : ابوبكر محي الدين محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الاندلسي .

اما شهرته بابن العربي ، فهي التي غلبت عليه ، وظهرت بها مؤلفاته العديدة ، وتعارف عليها الاقدمون، حتى اصطلح المشارقة على حذف اداة التعريف من هذه الكنية واطلقوا عليه « ابن عربي » تقريبا بينه وبين مشابه له في هذا الاسم ، وهو القاضـــي ، ابوبكـــر ابن العربي المعافري قاضي قضاة اشبيلية ، واحـــد علماء الاندلس المشهورين الراحلين الى المشرق .

ولقد كانت النقلة متصلة بين مقدمة الكتـــاب وفصله الاول ، فالتعقيب بالبيئة والعصر اللذين نشأ

فيهما الشيخ الاكبر ، والتعريف ببلاد الاندلس عامة ، والحاضرتين العظيمتين اللتين كانتا مهدا للشطر الاول من حياة ابن العربي ، وهما « مرسية » التي ولد فيها ، و « اشبيلية » التي اظلته سني حياته الاخرة ، لما يسير وفق منهج البحث ، ويقف في باب الاعتراض ، اذ ما كان يجوز ان يمضي المؤلف دون ان يتناول لقبي ابن العربي المشهور بهما ، وهما الشيخ الاكبر ، وسلطان العارفين ، بالتوضيح والتسهيل لمن يروم التحقيق ، او تختلط عليه هذه الكنى تفصيلا او جملة، وان لم يشر اليها في مباحث او تحقيقات ، الا ان تكون خطفا ، او نظرا مستطلعا في دوائر المعارف . .

وتحدث المؤلف ، عن الوضع الاجتماعي لاسرة ابن عربي ، وما كان يتمتع به افرادها من ميزات : الكرم والتواضع والصلاح ، حتى كان هذا دافعا لابن عربي الى التغني بهذه السجايا بين الحين والحين ، حين يعلو في نفسه صوت الاسترجاع ، او تهتز جنباته لهذه المكرومات :

أنا العربي الحاتمي اخو الندى
لنا في العلا المجد القديم المؤثل

وغني عن البيان ان الكتاب قد وسع ناحية هامة في حياة « ابن عربي » وهي الناحية الادبية التي كان هذا الصوفي مستعدا لها ، مهيأ بحكم نشأته، وارومته العربية الاصيلة الشاعرة ، لان يكون مرهف الاحساس، صادق الانفعال ، متجاوبا مع كل ما يقع تحت سمعه وبصره من فن مصنوع او مطبوع .

يقول المؤلف :

« التقى ابن عربي في صباه بطائفة من العلماء الاجلاء « الفنانين » الذين يحبون الادب ويتذوقونه ويقولونه. فأستاذه في القراءات: «أبو القاسم الشراط» كان بصيرا باللغة وادبها ، وله حظ من قرض الشعر . وأستاذه « ابو محمد عبد الحق الاشبيلي ، كان اديبا شاعرا » .

ويغلب على الظن ان ابن عربي قد اختار شيوخه في التصوف ممن كان لهم حظ في الادب ، وباع طويل في النظم والنثر ، وحسبه ان يكون من بينهم : « المارتلي » ، و « ابو مدين » وكلاهما له منظوم رفيع، وقرض للشعر عظيم .

وما لنا نجري بعيدا وابن عربي نفسه يذكر الكتب الادبية التي قراها ، ويرتبها على التوالي كانه يرفع شبهة ربما تعلق به ، او تنأى به عن مجالي النظم والنثر .

يقول الشيخ الاكبر : « قرات « الاماني » لابي المعالي البغدادي نزيل قرطبة ، وكتاب « ريحانة العاشق» لابي القاسم المسور ، وكتاب «روضة الانس» لابي زيد السهلي ، وكتاب « الكامل » للمبرد ، «وزهر الاداب » للحصري ، « والمحاسن والاضداد » للجاحظ « ومعاناة العقل » للحلوي ، و « الحماسة » لابي تمام، و « الحماسة الحلوية » ، غير ذلك الاستعداد الذي كفل له ان يتولى كتابة الانشاء في ديوان « اشبيلية » علما بأن هذا المنصب لا يتولاه الا من كانت لديه الموهبة والتمكن ، وبعد الصيت .

ونظلم ابن عربي اذا حصرنا عنه جميع الملكات البيانية ، عدا النظم والنثر ، فقد كان لهذا الصوفي العظيم مشاركة كبيرة في ميدان النقد ، حتى عد من بين النقاد في عصره بكتابه : « محاضرة الابرار » .

وقد اورد الاستاذ عبد الحفيظ بعضا من نقده ، ونموذجا يدل على ملكته في هذا المجال . فالتعليق الذي كتبه ابن عربي على قول الشاعر :

فتى عاهد الرحمن في بذل ماله
فلست تراه الدهر الا على العهد

فتى قصرت آماله عن فعاله
وليس على الحر الكريم سوى الجهد

يضعه في مقدمة الذين يزنون الكلم ، ويقيمون المعاني ، وينصبون الموازين ،

« هذا المديح اقرب للديانة من الكرم ، فان عطاءه انما هو من اجل الوفاء بعهده من الله ، حتى لا يكون من الذين ينقضون عهد الله ، والكريم سجيته الكرم ، فلا يحتاج الى القسم عليه الا لعلة نفسه ، فما وفى هذا الشاعر مدح هذا في الكرم ما تصور له في خاطره . فهذا اللفظ دون ما في القصد » .

وعقد المؤلف فصلا ضافيا عن ابن عربي الصوفي تناول فيه التصوف كرياضة ومجاهدة واخلاق وعمل، وناقش الذين قالوا بأنه علم مكتسب يحصله الانسان بالقراءة ، ووقف بجانب ابن عربي في أن « التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهذيب النفسي والخلقي » وحلل العوامل التي كونت هذه الشخصية، وتحدث عن استمساك ابن عربي في تصوفه بالشرع الحنيف ، كما ناقش ثمار التصوف في حياته ، وخرقة

التصوف ، ورأى الشيخ الاكبر فيها ، ومن الذي اليها له ، وأين ، واعجابه بذلك ، ودعوته الى المحافظة على آدابها وتقاليدها .

وتناول المؤلف « أذواق » ابن عربي ، ومعارفه في تصوفه ، ولخص بعض الآراء التي فصلها في كتبه العديدة من ضرورة اتخاذ الشيخ ، والخلوة ، واستخدام الوقت ، وما يعين على بلوغ الغاية ، والمقامات ، والاحوال ، واسرار العبادات ، كما تحدث عن الحب الالهي عند « ابن عربي » وعن الانسان الكامل والحقيقة المحمدية .

ووقف وقفة طويلة حلل فيها آراء ابن عربي التي نظر اليها انصاره وخصومه نظرة متعجلة حتى كانت تلك المعركة التي تمثلت في وحدة الوجود التي اثارت ثائرة اولئك المعاصرين ، فاوضح مدلولها عند الصوفية وفرق بين فهمهم وفهم المستشرقين لها ، ومن نحا نحوهم حيالها ، وشرح اسباب الحملات التي تعرض لها ابن عربي من جراء آرائه ، واشار الى رجوع بعض المنكرين لهذه الآراء ، الى الوقوف بجانب الشيخ الاكبر ، بشهادات واثباتات .

على أن ابن عربي ، لم يترك آثارا مؤلفة ، تجمعت في اكثر من اربعمائة مصنف وحسب ، بل ترك الى جانب ذلك ، تلاميذ واخوانا واولادا ، حملوا رسالته، ومشوا على نهجه ، وان كان : « بروكلمان » لم يثبت في تاريخه غير مائة ونيف ، ناقش منها المؤلف كتابي : « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » .

غير اني لا انتقص الاستاذ عبد الحفيظ جهده اذا انا قلت : ان دراسة شخصية ابن عربي ، تحتاج الى موسوعات ، اذ ما زالت بعض جوانب الشيخ الخفية في حاجة الى ايضاح ، كما أن هناك كثيرا من النصوص تفتقر الى المناقشة الجادة ، ولكن حسب هذا المؤلف ، ان يكون باكورة جمعت تاريخ هذا الصوفي الكبير ، ووضعت معالم على طريق البحث ، والقت اشعاعات قوية وضاءة لمن يمشي على الطريق مزودا بهذا الزاد الحقيقي .. فالمتصوف الحق ، ليس منزمتا ، ولكنه انسان اجتماعي بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان .

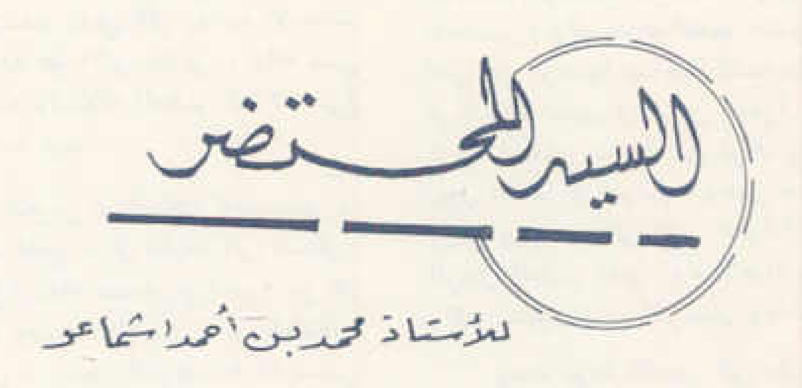
والمتصوف الحق هو الذي يضحي بروحه ، ويبذل نفسه وجهده ووقته وراحته في سبيل تقدم امته ووطنه ومجتمعه ..

والحق ان « ابن عربي » قد كان كذلك ..

القاهرة : ابو طالب زيان







للأستاذ محمد بن أحمد اشماعو

من شرفات قصر الامارة الشامخ ـ المطل على (بحر الروم) الهادىء المترامي الاطراف ـ كانت شمس الصباح ترى وهي تسطع ، وكان انعكاس اشعتها خاطفا للابصار ، يتراقص فوق المويجات الصغيرة الشبيهة بنقوش فضية فخمة على آنية لا حد لضخامتها . ورقاق الشعور المرهفو الاحساس ، الهائمون بجمال الطبيعة الفاتنة لا تفوتهم مشاهد الصباح ولا مشاهد المساء فى مثل هذا الجلال ، ذلك لانهم حريصون جدا على الحضور فى وليمة الطبيعة الكبرى مشاركين العصافير فى زقزقتها والبلابل فى تغاريدها ، والحمائم اللطيفة فى هديلها ، والخرفان الوديعة فى ثغائها ... ومع ذلك فليس سكان (بلنسية) الزاهرة من المولعين بالاستيقاظ باكرا ، فليالي الاندلس ساحرة خلابة ، لا تفلت اى فرد فى قلبه ذرة من حب الجمال والانس والطرب ، فمنهم من يكون سهرهم مع الاوتار الصداحة ومنشد رخيم الصوت ، وآخرون يكون سهرهم مع مبدعي المقطوعات الشعرية الرقيقة والازجال الخفيفة والقصص الممتعة والنوادر المضحكة ... لا يكاد ينتزع منهم عاداتهم هذه لا اهوال ولا ازمات ولا نذر شر ، لقد الفوا المشاكل حتى لم يعد يهمهم من امرها امر ، حتى ولو كانت هذه المشاكل قائمة عند ابواب الدور التي يسهرون فيها ، أو فى الحجر المجاورة للحجرة التي يتنعمون فيها !

ومن بين هؤلاء الساهرين من يكون سهرهم فى التعبد ومناجاة الرب الكريم ، أو هم من اولئك المتيمين الذين طار العشق بعقولهم ، واختطف النوم من اجفانهم ، فهم ساهرون عند المنابع ، وقرب اشجار (الخيرى) الفواح ، وتحت قبة السماء المرصعة من حيث يهذرون ويثرثرون ، ولا نهاية لهذرهم وثرثرتهم.

يبقى من بين هؤلاء الساهرين اولئك المعنتون الذين هدهم المرض ، وانهكهم الالم ، وافنى صبرهم التمزق الذي لا يتوقف ، انه لتقوم فى نفوسهم ـ احيانا ـ هواجس ان انهوا كل مصائبهم المبرحة هذه بجرعة سم او بقطع شريان ، او بخنق رقبة ، لولا ان رادعا من الامل يردهم .

لقد مرت بـ (السيد) ليال سوداء فى الايام الاخيرة ، فهو رغم جبروته وقوة تجلده ورسوخه كالصخرة الصماء ـ يقضي ساعات الليل وهو منكب على وجهه ، يفيض فمه بالآهات والشهيق ، وتبتل مخدته بالدموع الغزيرة ، ويتمزق فؤاده حسرة ولوعة وتالما على هلاك وحيده (الدون دبجو) الذي سقط قتيلا فى احدى المعارك مع المسلمين ، وبجانبه كانت (خمينا) زوجته تبكي وتنوح ، بلوعة الانثى التي تغلب عليها مشاعرها ، وبصوت مخنوق كانت تعدد مزايا وحيدها فى خلقه وخلقه، وكل ذلك كان يزيد فى تمزقات الزوج الثكلان ، ويهيج دموع الوصيفات وتصاعد زفراتهن ويطلق السنتهن ايضا بعبارات التفجع ؛ ويجعل جموع الخدم والحشم والحرس الداخلي ـ على غلظ اكبادهم ـ يتضامنون فتنطلق الاصوات

المبحوحة الخشنة والاصوات الرقيقة النفاذة، وبجهش الكل بالبكاء المرير .

وما شك ـ عندئذ ـ احد من اتباع (الكامبيادور) فى ان هذه الضربة التي جاء بها القدر هي القاضية ، وانه لن يكون (للسيد) بعد اليوم اي ذكر ، وان صحته التي كانت وافرة ،وجسده الذي كان يغالب الاحداث ومصائب الزمان بصلابته هو الان يتداعى ، وانه من اليوم يفرغ من ضخامته وامتلائه العظيم كما تفرغ قربة الماء بعد اهراق ما فيها .

فى هذا المجلس الحزين ، المتألم كاقصى ما يكون التألم كان يوجد كاهن ميال بطبعه الى السكون والتأمل ، وهو من كثرة تأمله يستخرج العبرة من كل شيء جليل او حقير ، ومهمته بالقصر ـ فى العادة ـ ان يقوم بدور المدرس ، وبدور الموجه الديني للجميع ، فهو باعث الاخلاق والفضيلة فى جنبات القصر ...

تقدم الكاهن الى مضجع المحتضر وتلا من آيات انجيله ، محاولا ان يجدد الثقة بالمعبود فى قلب الرجل الحيران ، الذي كاد ان يفلت منه زمام نفسه فيذوب حسرة والما ، او يرتكب من الحماقات ما يعجل به الى الفناء ، واستطاع بعد جهد ـ وبحضور الجميع ـ ان يبعث بصيصا من الامل فى حنايا الضلوع ، وان يوقظ بعض الرواسب الدينية ، ولكنه ما استطاع ان يطفيء النار المشتعلة فى فؤاد الشيخ الجبار ، ولا استطاع ان يهديء الزئير والخرخرة التي تتصاعد من اعماق الصدر العتيد الضخم ، هذا الصدر الذي كان فى الايام السالفة خزانة من فولاذ لا ينفذ اليها شرر الاحداث الكبرى سياسية كانت او حربية او اجتماعية ، كان لا يبالي بها ، ولا يحمل لها ادنى هم ، ولا يخشى من تقلباتها ومفاجآتها ومخاطرها ... واليوم ، تتحطم هذه العظمة وذلك الجبروت امام بطش الموت العاتي وهول الفناء الابدي الذي غاب فيه العزيز الغالي (الدون ديجو) ، خليفة والده ، ومعقد امله فى السيادة والرياسة ، لقد كان ينتظر ان يكون كأبيه دهاء وعتوا ، وان يكتب هو ايضا صفحات من البطولة والمجد فى احوال الحرب ، ومن النفوذ والسطوة فى احوال السلم ، ويقر بذلك عين ابيه ، الا ان سيفا من سيوف المسلمين ـ المسلمين الذين طالما شويت اكبادهم فتكا وتقتيلا ـ مزق احشاءه واسال دماءه فأزهق روحه ، فكانت ضربة قاسية قاضية وفى الصميم .

طالت فترة الترتيل والاستغفار ، تغطي عباراتها اللينة الرقيقة حينا على المجلس الحزين ، وتارة تغطي عليه الشهقات والزفرات والنواح الممزق للافئدة ... فلم يسع الكاهن الا الانسحاب بلباقة ، وانسحبت بانسحابه اجواء المؤانسة الطيبة برجل الدين الحسن السمت ، وعندئذ اشتدت احوال المحلقين حول المحتضر ، والهبت عواطفهم حشرجات النزع الاخير ، التي كان يرسلها صاخبة اشبه ما تكون بقعقعة عجلات عربة بالية تسير فى طريق محفرة ، واسالت دموعهم غزيرة اسفا وحسرة على فراق رجل ، واى رجل ! رجل لطالما ملأ عيونهم ، وحمى جانبهم ، ورفه حياتهم، ورفع رؤوسهم الى اعلى اعتزازا وافتخارا ، انه الرجل العظيم الذي دوخ الاقوام ـ مسلمين ونصارى ـ وكان بينهم فارس الفرسان وقائد الشجعان .

وعند عودة الكاهن الى مقره بالقصر تخفف من ملابسه ، ومال الى كوز ماء فشرب حتى ارتوى ، وسار بخطوات متمهلة الى النافذة ، وارسل بصره نحو الفضاء ثم نحو ممرات الرياض وراح يقدر للاحداث المقبلة :

لقد انهد (الكامبيادور) بصفة نهائية ، وبما انه كان قابضا على زمام الامور كلها ، لا يطلع عليها احدا بعد ولده الفقيد فانه من المنتظر ببرز الراغبون فى السيطرة دفعة واحدة ، وتبرز معهم بوادر النزاع .. ان الاسبان ككل الناس ميالون الى حب الظهور والسلطة ، وسيدفع بهم تنافسهم الى المعاندة والتواقح والتنابذ فالتناحر ثم التحارب ... وبذلك يتجلى الخلل الذي يتربص له المسلمون ، وعندئذ سيتسالمون ويتصالحون ويتوادون ثم يتضامنون ويهاجمون اعداءهم) .

ودخل خادم القسيس عليه بطعام غذائه ، وكان بسيطا تكثر فيه الفواكه الطرية والجافة وعصير الفواكه ايضا ... ان القسيس يقلل من كل ماكول غير الفواكه ، وهو يعتقد ان نعمة الله عليه بالعافية هي نتيجة تعاطيه المستمر للفاكهة ، انها جامعة لكل المزايا فهي جميلة المنظر ، لذيذة الطعم سهلة الهضم ، فيها متعة للعين وغذاء للبطن ، ثم ان ارض الاندلس ارض الفاكهة الفاخرة ، ومنطقة (بلنسية) اعظمها حظا من ذلك . وعصير الفواكه تتفنن فيه ساكنات الاندلس من كل جنس ، اقتداء بالسيدات العربيات ، وانه لالذ على الانسان الاندلسي ان يشرب عصيرا ، اى عصير ، من ان يشرب قدح خمر على الاطلاق ...

واقتداء بكل الناس الفضلاء في أرض الاندلس مهما اختلفت الاتجاهات كان الكاهن يحب الموسيقى ، الموسيقى العربية على الاخص ، ويحفظ منها ادوارا ، ويحلو عند التفرغ ان يتغنى بها ، وهو عازف قيثارة ممتاز ، وان كان الناس لا يعرفون ذلك ، ومن اجل ذلك غلق النوافذ ، مراعاة للظروف التي يعيشها بالقصر ، واخذ يداعب الاوتار :

قلت : ليلى ما دواء السهر
قالت : وصالي في طلوع السحر

قلت : وما اقصر وقت اللقا
قالت : وما اعذب ذاك القصر

و (ليلى) هذه ليست مجرد اسم توهمه الشاعر، وتغنى به المغني ، كرمز لكل انثى جميلة يهواها القلب فتستأثر بخلجات الفؤاد ؛ لا ، انها وصيفة عربية (لخمينا) زوجة (السيد) ، وهي من خير ما أوجدت ارض الاندلس من جميلات العذارى :

سمرة خلابة مازجها اللون الوردي عند الخدين والساقين ، ومحيا باهر جذاب ، ونقطة سوداء فاخرة عند الشفة السفلى من جهة اليسار ، وانف جميل دقيق (شق الجلد وبرز) ، وشعر سبط فاحم طال حتى لامس الفخذين ، مرورا بالصدر المكتمل ، مع ادب ورقة واتزان ، تسحر كل الرجال ، مهما كان شان اولئك الرجال !

ومن فرط محبة (خمينا) لها ، رضخت فسمحت لها بالمحافظة على ديانتها السمحاء ، وبممارسة العبادات علانية ، فهي تصلي وتصوم ، وتردد احيانا امجادها الاسلامية العربية ، ثم هي لا ترى باسا في ان تحمل العود وتنقر عليه صداحة بالادوار الاندلسية ، ويكون ذلك بين الحين والحين ، بمثابة ارضاء لسيدتها !

سارقها الكاهن (انطونيو) النظر ، ولم يكتم من اول مرة اعجابه ، وتحدث لنفسه عنها بشيء كثير من الاعجاب ، ثم عاد فافصح عن اعجابه بابتسامات مع تمتمات ، ثم في رغبات مقصودة للقاء (ليلى) والسلام عليها في كثير من الوقار والاحترام ، اللذين يخفيان وراءهما كثيرا من اللهفة المكتومة ، فلولا ضوابط المنصب الديني الصارمة لهام بين انحاء الرياض في أضواء النهار الباهرة وظلمات الليل القاتمة دامع العينين ، خافق الفؤاد ينشد ويغني ، ويشرب الخمرة بلا توقف ، منتظرا اطلالة من (ليلى) ومتى تحققت تلك النظرة فانها تكون في قيمة الدنيا وما فيها ... لكنه الرزق والمكانة المرتبطين بلباس الكهنوت .

ان هذا الحب ـ في الواقع ـ خفف من تزمته الديني ، فمنذ عرف (ليلى) المسلمة ، ورأى موقفها وهي تؤدي فريضتها الدينية اخذ يميل الى تفهم العقيدة الاسلامية ، ومقاصد شريعتها ، كما صار يشعر بشيء يحز في نفسه كلما راج في اوساط (السيد الكامبيادور) شيء من المؤامرات الاجرامية ضد المسلمين ، الواقعين تحت حكم النصارى ، ويكاد احيانا يصرح محتجا فاضحا اساليب القهر والجبروت والتعنت ، غير انه نظر لظروف التضييق السائدة يعود فيملك زمام نفسه ويخفف من آلامها ، ، وينقلب مصطنعا الارتياح والاطمئنان مداراة للمتعصبين ...

ذات يوم مشؤوم، مشؤوم في تاريخ الدولة النصرانية وديانتها ، اهتز الكاهن ولم يخف غضبه ، حينما اوقد (السيد) اللهيب المستعر واخذ يحرق احراقا وحشيا والي البلدة (ابن الزحاف) ومعه جهابذة المسلمين وشيوخهم المبجلين وخيرة رجالهم ، وامعن في فعلته الشنعاء وهو يجر الصبيان والصبيات والفتيان والفتيات الى النيران الموقدة ... لقد غضب الكاهن لهذا وغضب معه عدد من عقلاء الملة النصرانية ، ولولا هذا الموقف لاحرق (الكامبيادور) جميع مسلمي (بلنسية) ومسلماتها عن آخرهم ...

شيء مرير ومؤلم الى اقصى حدود المرارة والالم ان يتصاعد اللهيب الى عنان السماء ، توجهه بعنف اللحوم البشرية وشحومها ، وان تسمع البطون وهي تنفجر من شدة الاحتراق ، وان تفوح في انحاء المدينة المتحضرة (بلنسية) رائحة شواء اللحم البشري .. يا للفلظة ، يا القلوب في تحجرها ، ابوافق السيد المسيح على هذه الافعال ؟

ومضى الكاهن يتامل هذه الاحداث وفي تقلباتها:

(ان المسلمين مهما كان سبب وجودهم في الاندلس فهم يدخلون الحروب من باب شرعة الحروب من حيث يعارك الرجال الرجال ، وعند الهدنة يعاملون من هم على غير ملتهم معاملة انسانية ، مبالغ في انسانيتها في بعض الاحيان ، يعلمونهم في مدارسهم ، ويساكنونهم في بيوتهم ، ويقايضونهم في متاجرهم ، ويسندون اليهم مناصب الرياسة والتحكم ، مفضلين

اياهم احيانا على بني ملتهم وعمومتهم ، بثقة عمياء فيهم ...

وهنا الغلطة ـ قالها الراهب ـ منتفضا من الحسرة .

(ان الثقة العمياء بمثل هذا (السيد) المتعنت ، واتخاذه من طرف بعضهم مستشارا ومتحكما بل وقائدا للجيوش لغلطة فادحة وحق الروح الاعظم . هل يمكن للانسان الحر الثقة ان يكون عدوا لهذا الجانب مرة وعدوا لذلك الجانب مرة اخرى ، هل يمكن لعاقل ان يكون مسلما اياما ، وغير مسلم اياما اخرى أم انه ـ فقط ـ ارتزاق من هذا البطل) المعظم فى أعين الجميع ، وسذاجة وبلادة من جانب الحكام الضعاف، اني واثق من انه كان يخدم ضد اعدائه المسلمين فى كل الاحوال، فاللوم على الحكام المسلمين الذين كانوا يسخرونه لخدمتهم بثمن باهظ ، فآل الامر الى انه يستخدمهم ـ الان ـ بلا مقابل ، بل يؤدون له الجزية وهم صاغرون ...

لماذا بالله ؟ أكان يرهبهم بجبروته وضخامة جسمه ، وأساليب تحكمه المطلق فى الجنود ورؤسائهم ويظهر امامهم خبيرا بكل شيء من فنون الحرب وافانين خداعها ، وعالما بالمناطق التي يحارب فيها ، طرقا وسبلا ومسالك ، سهولا وجبالا وتلالا ، ودورا وقصورا واكواخا ... انه فى الحقيقة يعرف من اين يؤتي الكبراء ومن اين يؤخذ الحقراء ، اولئك يداريهم ويسترضيهم ، ويفتت معنوياتهم بهداياه ، وتحفه ومشتهياته ، اما الآخرون فيزيدهم قهرا على قهر ، وبهم يعطي المثال الرهيب لمن تحدثه نفسه بالحركة والعصيان ... لكنهم كلهم تقربوا منه وتحببوا اليه ، وملأوا خزائنه باعلى النفائس واندرها ، وتسنى له ان يمضي فى خطته بتعال وتشامخ ، وتجرأ بدهاء عظيم فوضع نفسه فى منصب القيادة لمن دفع له اكثر !

تلك هي الغلطة ، تلك هي الغلطة ... ثقة ب (السيد) الذي لم يكن سيدا ابدا ، انهم هم ـ المسلمون بمروآتهم وسلوكهم السامي اجدر بأن يكونوا اسيادا عن جدارة ، ولكنهم رضوا بسخريته بهم ، وتلاعبه عليهم ...

ومضى به التفكير فكاد يعود ليحدث نفسه ، لكن (ليلى) جاءت مستعجلة تطرق عليه الباب وتدعوه ليحضر اللحظات الاخيرة ، لقد راح كل من كان فى المجلس الى تناول طعام الغداء ، فالمحتضر وحده يعالج سكرات الموت ... ودخل عليه ، فاذا الجثة الضخمة ممتدة فى عجز ما بعده صولة ، والوجه المريض المهيب اعوجت ملامحه ، وغاضت صرامته وتهدلت شواربه ، وتشوكت شعور لحيته ، وانعقف الانف ، ومال شق الفم بشكل تتقزز منه النفس ، وبين الحين والحين كانت تسمع حشرجة الموت وغرغرتها تسمع فى اعماق الصدر ... وعندئذ تقدم (الكاهن) واعتنى له ، وهو فى بقية باقية من وعيه :

(انك ايها السيد عدو للبشرية واني امقتك ، ان معرفتي بتصرفاتك الفظيعة تجعلني اطلب الله ان ينزل عليك افظع اللعنات ، ولتعلم قبل ذهابك لدار الجحيم اني اعتنقت الديانة الاسلامية ، وانني من اليوم مسلم ناصر للمسلمين ، المسلمين الكرام الذين رفعوا شانك ، فاذقتهم مرارة السفك والهتك والتشريد ... وثق ان الابطال هم قادمون الى هنا ، واملي ان يجدوك ما زلت فى نزعك الاخير ليمزقوك ، ويطعموا لحمك للكلاب .. ولكن ما اظن انهم سيفعلون، ان مروءتهم وآداب دينهم النبيل لا تسمح لهم بذلك .

(ليلى) تقدمي يا ابنة الاسلام ، ذي الفضل والاحسان ، الى هذا الكلب المنتن ، والطمي الخد ، وانتفي الشعر وابصقي على الوجه ، انه لم يكرم الذين اكرموه ، ولم يصن امانة من ائتمنوه ...

ابتسمت (ليلى) وقالت :

ـ مالي وللانتقام من جثة تكاد تهمد ، لقد قمت بواجبي ، فصنت عقيدتي ـ تحت سمعه وبصره ـ ورغم انفه ، وحملت من الاسرار ما يهم الى بني ملتي، والمرابطون ـ انصار الاسلام الاشداء فى الطريق الينا ، كل ما اتمنى ان يمهله اجله حتى يسمع وقع سنابك خيولهم باذنيه الفانيتين ، ويتناهى اليه تهليلهم وتكبيرهم ... سيرى ارجلهم تطأ مجلسه هذا ، ولكني متيقنة انهم لن يسيئوا معاملته كما اساء معاملة الفضلاء والنساء والصبيان ...

وسكتت (ليلى) فترة تحدق فى عيني رفيقها ، وقالت بصوت جهير يبلغ سمع المحتضر :

ـ ما رأيك يا (هاشم) وقد تخليت عن عقيدتك المسيحية ، واعتنقت الديانة الاسلامية ، ان تترك مسوح الكهنوت ـ من الان ـ وترمي بها على وجهه ، ونترك معا هذا القصر الى حيث نعيش مكرمين ...

اجاب بأصرار :

— لا والله ، سوف ابقى بجانب هذا الظالم فى لحظاته الاخيرة لامعن فى تعذيب ضميره وروحــه ، وتقريع سمعه ، وتحطيم آخر ذرات معنوياته ، لا يمكن ان يعيش منتصرا ويموت مطمئنا الى انتصاره ، علينا ان نجعله يموت موتة الكلاب ...

ارسلت (ليلى) نحو (هاشم) سهام عيونهـــا الجميلة ، وافتر ثغرها عن ابتسامة رائقة . وهمس :

— اصارحك انني ارغب فى ان يكون زفافنا يوم دخول الابطال الى أرض (بلنسية) ارض الشهـــداء والشهامة والبطولة ... يكفيني – صداقا – انـنــي هديت رجلا نبيلا الى طريق دين الله الجامع ، وليمت الاعداء بغيظهم ...

وشهق (الكامبيادور) وهو يسمع كل هذا يتم عند مضجعه الاخير ، تحرك قليلا يريد – ربما – ان يصول ويقول ، ولكن روحه المعذبة زهقت منــــه فى زعقة صاخبة ، وكانت تلك هي الخاتمة .

الرباط : محمد بن احمد اشماعو



نشاط وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية

تنفيذا للتعليمات الملكية السامية :

اثنا عشر عالما توجهوا الى أوربا لتفقيه جاليتنا المسلمة في أمور دينها ...

انها منقبة فريدة اخرى ، ومأثرة حميدة ، وعناية مولوية سامية يضيفها التاريخ الحافل بالامجاد الى سجل صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني نصره الله وايده ...

فبمناسبة شهر رمضان المعظم ، وحرصا من جلالته دام له النصر والتمكين على ان يتمتع رعاياه الاوفياء الذين يقيمون بالديار الاوربية من عملة وتجار وغيرهم ، بنفس ما يتمتع به اخوانهم المقيمون داخل تراب المملكة، فان وزارتي الاوقاف والشؤون الخارجية تنفيذا للتعليمات الملكية السامية قامتا بتوجيه وفد يتركب من اثنا عشر عالما الى أوربا لالقاء محاضرات دينية بكل من المانيا وهولاندة وبلجيكا وفرنسا ...

وقد استدعى الكاتب العام للوزارة السيد عبد الرحمن الدكالي نيابة عن معالي الوزير هؤلاء العلماء ، وزودهم بتوجيهات هامة ، كما نسق سيادته معهم بعض المواضع الدينية التي لا بد منها ولا سيما ما يتعلق بالصيام للجالية المغربية المقيمة في الخارج .

وهكذا وزع هؤلاء العلماء حسب المدن الآتية :

السيد أبو طاهر آل عزيز الى دوسيلدورف
السيد محمد بنشقرون الى بون
السيد محمد التالب الى ليون
السيد حسن الزهراوي الى روطيردام
السيد احمد سحنون الى بروكسيل
السيد محمد عبد الرفيع البصري الى ليبج
السيد محمد الوزاني الكتوني الى باريس
السيد محمد عبد الواحد بناني الى باريس
السيد محمد يسف الى بوردو
السيد محمد عبد الرحمن الكتاني الى ليل
السيد الحسين وجاج الى ستراسبورك
السيد محمد الشاتي الى مرسيلية

— ✻ —

وفد من مسلمي بلاد الكامبودج .. في زيارة لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية

استقبل معالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية وفدا من مسلمي الكامبودج وصل الى المغرب في الايام الاخيرة ، حيث رحب بهم السيد الوزير ، واجرى معهم حديثا حول المسلمين ببلادهم .

وقد اخبر الوفد السيد الوزير بانهم جاءوا الى بلاد المغرب الاسلامية لتعريف حكومة صاحب الجلالة بأن سبعمائة مسلم كامبودجي يتطلعون الى معرفة اخوانهم المسلمين في كل مكان ولا سيما بلاد المغرب المسلمة التي يسمعون عنها وعن ملكها المصلح ما تسر به نفوسهم ويفعم قلوبهم ثقة واملا ورضى .

وبهذه المناسبة فقد اهدى لهم السيد الوزير عدة نسخ من مصحف الحسن الثاني ، وخمسين

مصحفا لتوزع على مختلف المساجد المنبثة فى بلاد الكامبودج .

وقد طلبوا فى الحاج ان تبعث اليهم الوزارة مجلتي « دعوة الحق » و « الارشاد » وبعض المطبوعات الاخرى التي زودتهم بها الوزارة .

واخيرا اخبرهم معالي الوزير بانه باسم صاحب الجلالة يرحب بثلاثة من الطلاب الكامبودجيين ليتابعوا دروسهم الاسلامية والحضارة العربية الراقية على نفقة الوزارة كغيرهم من الطلبة الافاقيين الذين تتبناهم الوزارة ، وتمنحهم منحا دراسية ...

وقد تاثروا كثيرا ، وقالوا بانهم اعطوا اكثر مما جاءوا من اجله ، وطلبوا من السيد الوزير ان يبلغ باسم شيخ الاسلام وجميع مسلمي الكامبودج امتنانهم وشكرهم لصاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وايده .

— * —

اعادة بناء وتجديد عشر مساجد بمدينة مراكش

قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية تنفيذا للتعليمات الملكية السامية باعادة بناء وتجديد عشر مساجد بمدينة مراكش وبناء مسجدين بضواحيها وتم اعدادها اعدادا مشرفا لاستقبال المومنين بمناسبة شهر رمضان المعظم .

وقد توجه معالي الوزير الاستاذ السيد الحاج احمد بركاش فى شعبان الاخير الى عاصمة الجنوب لتدشينها وفتحها فى وجوه المصلين حيث ادى سيادته صلاة الجمعة بمسجد باب دكالة صحبة سعادة العامل ورجال السلطة المحلية ، ثم وقف على بقية المساجد الاخرى .

وفيما يلي اسماء المساجد التي تم تدشينها : بهذه المناسبة :

1 — مسجد باب دكالة

2 — مسجد هيلانة .

3 — مسجد القصابين .

4 — مسجد شمباسة الخارجي

5 — مسجد الفرجى .

6 — مسجد سوق الحايك .

7 — مسجد باب الخميس .

8 — مسجد سيدي بنسعيد .

9 — مسجد زربية سوس .

10 — مسجد تملالت .

11 — مسجد اغمات .

ابقى الله مولانا الهمام ذخرا للاسلام يجدد بنيانه، ويعلي اركانه وحفظه وولي عهده المحبوب سيدي محمد بما حفظ به الذكر الحكيم ..

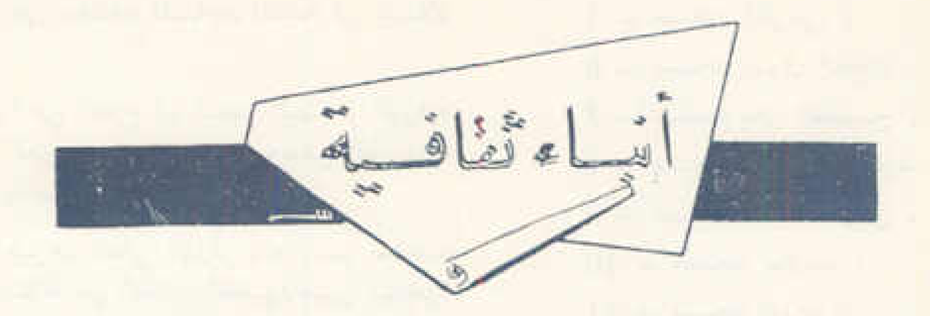
وفى مدينة صفرو ...

كما توجه السيد الوزير الى مدينة صفرو لتدشين المسجد الكبير الذي شيدته وزارته واطلقت عليه اسم : « مسجد الحسن الثاني »

وبالمناسبة فقد اغتنم سيادته فرصة وجوده بهذه المدينة فاشرف بنفسه على تنظيم حملة التوعية الدينية والارشاد التي اعتادت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية القيام بها على نطاق واسع بمناسبة شهر رمضان المعظم ، كما قام بعدة تفقدات ولا سيما بالمصالح الخارجية التابعة لوزارته .

ومسجد آخر بعين العودة فى اقليم الرباط ...

وتوجه السيد الوزير ايضا الى قرية عين العودة بناحية الرباط لتدشين المسجد الذي بنته جماعة من المحسنين وساهمت فى اتمام بنائه وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بهذه القرية ، وقد ادى سيادته به صلاة الجمعة صحبة عامل الرباط وسلا والقاضي الشرعي وناظر الاحباس ورجال السلطة المحلية وجمهور غفير من المومنين ، وكانت هذه المناسبة فرصة طيبة توجهت فيها جموع المومنين بصالح الدعوات واحر الابتهالات الى العلي القدير ان يحفظ امير المومنين الذي يولي شؤون الدين كامل عنايته وان يبقيه ذخرا للبلاد والعباد .



المغرب :

* صدر عن دار الثقافة بلبنان في سلسلة المكتبة الاندلسية اخيرا السفر الاول بقسميه الاول والثاني في جزئين كبيرين من كتاب « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » لابي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي وذلك بتحقيق الاستاذ المطلع البحاثة الدكتور محمد بن شريفة الاستاذ بكلية الآداب بفاس وهو كتاب قيم على جانب كبير من الاهمية لدى الباحثين والمختصين في دراسة الاندلس ورجالها وأعلامها ، وقد استدرك المؤلف ما فات ابن بشكوال وغاب عن ابن الفرضي من علماء الاندلس والطارئين عليها.

ويبدو من مطالعة الجزءين ان الدكتور ابن شريفة لم يدخر جهدا في العناية بالمراجعة والتحقيق مما زاد نشرهما قيمة واستحق عليها الاكبار والثناء الجميل، ونتمنى ان يواصل تحقيق بقية أجزاء الكتاب التي سلمت من الضياع تعميما للفائدة واظهارا للتراث المغربي القيم .

* علمنا ان صديقنا الاستاذ عبد الله العمراني انتهى من اعداد رسالة الدكتوراه التي حضرها عن العالم الغرناطي ابي جعفر احمد بن علي البلوي من رجال القرن 9 الهجري 15 الميلادي ، وقد قدمها لكلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة فقبلت ، وقد عينت الكلية لجنة لمناقشة الرسالة وافقت عليها رئاسة الجامعة ؛ وتتألف اللجنة على الشكل التالي :

الرئيس : ضون دفيد كونتالو مايصو استاذ اللغة العربية بكلية الفلسفة والآداب بغرناطة .

العضو المشرف على الرسالة : ضون لويس سيكو دي لوثينا استاذ اللغة العربية بكلية الفلسفة والآداب بغرناطة .

العضو المنتدب : ضون الياس تيريس استاذ اللغة العربية بكلية الفلسفة والآداب بمدريد .

العضو الآخر : ضون داريو كابيلاس عميد كلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة سابقا .

سكرتير اللجنة : ضون خاثنتو بوش فيلا نائب عميد كلية الفلسفة والآداب واستاذ تاريخ الاسلام بها .

والاستاذ العمراني ينتظر بين الفينة والاخرى ان تعلمه الكلية بموعد المناقشة التي نأمل ان تكون ممتعة وجد موفقة باذن الله .

* بعد صدور كتاب « ادب الفقهاء » للاستاذ الكبير عبد الله كنون ،صدر له كتاب آخر بعنوان : « العصف والريحان » نتمنى للكتابين القيمين بعد الصدى والانتشار .

* اصدر مؤخرا المستشرق الهولندي المعروف ج. ل. ميشون كتابا باللغة الفرنسية يشتمل على دراسة مطولة حول المتصوف التطواني سيدي احمد ابن عجيبة . وقد تطرق المؤلف في هذه الدراسة الى الحياة والبيئة ومنابع التصوف التي نهل منها المرحوم سيدي احمد ابن عجيبة ، بالاضافة الى المخطوطات والرسائل والمذكرات التي خلفها ، كما تحدث المؤلف عن الخلوة التي كان يتعبد فيها ، والتي تقع بقرية « الزميج » القريبة من تطوان . ويقع الكتاب في 268 صفحة من القطع المتوسط . وطبع في ليون .

* صدر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي ، العدد الثاني والثالث في مجلد واحد من مجلتها « الثقافة المغربية » .

* اعلنت وزارة الثقافة عن مسابقة جائزة المغرب لهذه السنة . قد اقفل باب الترشيحات في اواخر شهر اكتوبر 1970 .

❊ احتفل بمقر وزارة الشؤون الخارجية المغربية مؤخرا بالتوقيع على الاتفاقية الثقافية بين المملكة المغربية والاتحاد السوفييتي .

❊ توالي اللجنة المكلفة بدراسة الانتاج المقدم للمسابقة العلمية التي نظمها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي اجتماعاتها لأحسن دراسة حول اللغة العربية ، بمناسبة الذكرى الاربعينية لميلاد صاحب الجلالة الملك المعظم . وقد توصل المكتب المذكور بعدة مخطوطات قيمة في الموضوع من مختلف الاقطار العربية . وسيعلن على النتيجة قريبا .

❊ اصدر المركز الجامعي للبحث العلمي « نشرة بيانية » باللغتين العربية والفرنسية تتضمن نشاط المركز المذكور ، ونشاط جامعة محمد الخامس ، بالاضافة الى الاطروحات التي قدمت فيها . وهذه هي « النشرة » الثالثة التي يصدرها المركز من هذا النوع.

❊ انعقدت في مدينة طنجة مؤخرا مناظرة هامة ضمت عددا كبيرا من الاطباء الامريكيين المختصين في الجراحة . وقد سبق للاطباء المشاركين في هذه الندوة ان انهوا المرحلة الاولى من مناظرتهم هذه في باريس .

❊ تحت الرئاسة الشرفية لسمو الاميرة للا مريم اقام الاتحاد النسائي المغربي معرضا للطرز . ويعتبر هذا المعرض الاول من نوعه .

❊ افتتح المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط مكتبة عامة للعلوم تضم اكثر من أربعة آلاف كتاب في مختلف الشعب العلمية باللغة العربية ، ووضعت رهن اشارة الراغبين في الاستفادة منها .

❊ مثل المغرب في مؤتمر المنظمات الاسلامية الذي عقد مؤخرا في طشقند الاستاذ السيد مولاي مصطفى العلوي ، مدير دار الحديث الحسنية .

❊ عقدت في طنجة المناظرة التي نظمها المركز الافريقي للتكوين والبحث الاداري . وقد حضر هذه المناظرة ممثلون عن 14 دولة افريقية ناطقة باللغة الانجليزية . وكان موضوع هذه المناظرة « المقارنة بين الانظمة الادارية في افريقيا » .

❊ ستقوم لجنة دولية مكلفة بالمحافظة على آثار البطل المرحوم عبد الكريم الخطابي بكتابة السيناريو لفيلم عن اعمال الزعيم الكبير . وتضم هذه اللجنة خبراء – مغاربة واسبانيين وفرنسيين – في قضايا حركات التحرر .

❊ « السقف » عنوان المجموعة القصصية التي أصدرها القاص المغربي السيد محمد ابراهيم بوعلو .

❊ احتفل بمدينة فاس بموسم المولى ادريس الانور . وقد حضر حفلات هذا الموسم شخصيات رسمية ، وعدة افراد من الشرفاء الادارسة ، وجمهور غفير من المواطنين والمواطنات .

❊ تحتفل جمعية شباب النهضة الاسلامية باقامة مهرجان ثقافي كبير بمناسبة مرور الف وثلاثمائة عام على وفاة الامام مالك بن انس الاصبحي . وسيدوم هذا المهرجان اسبوعا كاملا تلقى فيه محاضرات ودراسات عن شخصية هذا الرجل الفذ الذي اسدى للفكر الاسلامي خدمات كبيرة .

❊ قام بزيارة للمغرب المؤرخ الالماني نيمسكوفسكي الذي يهتم بدراسة تاريخ شمال افريقيا بصفة عامة ، والمغرب بصفة خاصة . وقد سبق لهذا المؤرخ ان قام بعدة ابحاث قيمة عن تاريخ المغرب ، وبالاخص عن حركة المقاومة المغربية التي خاضها سكان الريف بقيادة البطل عبد الكريم الخطابي .

❊ كما قام بزيارة الى المغرب الشاعر الليبي علي صدقي عبد القادر المحامي الذي احتفلت به الاوساط الثقافية المغربية .

❊ سيمثل للطبع قريبا القسم الثالث من فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط الذي قام بفهرسته وتصنيفه الاستاذان ابراهيم الكتاني،وصالح التادلي،تحت

اشراف الاستاذ محمد الفاسي وزير الثقافة ، ومتصدر هذا القسم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلي .

※ ستصدر المستشرقة الاسبانية الدكتورة ليونور مرتينث مرتين ، استاذة اللغة العربية بجامعة برشلونة كتابا ترجمت فيه لاكثر من 200 اديب عربي ومن جملة الادباء المغاربة الذين ترجمت لهم بعض انتاجهم الى اللغة الاسبانية مع نبذة من حياتهم : عبد الله كنون ، علال الفاسي ، عبد المجيد ابن جلون ، محمد عزيز الحبابي ، محمد الصباغ ، محمد الحلوي. وقد كتبت المؤلفة مقدمة لهذا الكتاب تعرضت فيها للمراحل التي مر بها الادب العربي عموما ، ابتداء من اواخر القرن الماضي الى يومنا هذا .

※ عقد بالرباط مؤتمر الاتحاد النسائي ، شاركت فيه وفود عن اتحادات الجزائر ، وتونس ، وموريطانيا، بالاضافة الى الاتحاد النسائي المغربي الذي تراسه سمو الاميرة للا فاطمة الزهراء .

※ شارك المغرب في اعمال الدورة السادسة عشرة للمؤتمر العام لليونيسكو بوفد براسه السيد وزير التعليم الثانوي والتقني والعالي وتكوين الاطارات .

※ عقد بالرباط مؤخرا مناظرة للخبراء الافارقة حول حقوق التاليف . وينظم هذه المناظرة التي هي اول مناظرة من نوعها تعقد في المغرب وفي افريقيا المكتب المغربي لحقوق التاليف بتعاون مع الكونفدرالية الدولية لجمعيات المؤلفين والملحنين .

※ بعثت وزارة المعارف السعودية الى المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط ، بطرد يحتوي على 42 كتابا . وذلك بناء على طلب المكتب المذكور لتزويد المكتبة التابعة له بالكتب الادبية والتاريخية والاعلامية .

※ بمناسبة عام التربية الدولية ، اصدرت وزارة البريد طابعا تذكاريا بهذه المناسبة .

الجزائر :

※ فاز القاص الجزائري مرزاق تبطاش بجائزة رضا حو حو في الجزائر ، عن احسن قصة قصيرة بالعربية . كما نال ايضا نفس الجائزة لاحسن قصة باللغة العربية .

※ افتتحت بمدينة شرشل قرب العاصمة الجزائرية المناظرة الثانية للجغرافية المغربية ، شارك فيها اساتذة وبحاثون من الجزائر والمغرب وتونس وفرنسا والمانيا .

تونس :

※ صدرت في تونس مسرحية بعنوان : « راس الغول » عن دار الثقافة ابن خلدون . وهي من اعداد سمير العيادي ، ومحمود الارناووط ، ومحمد رجاء فرحات . كما اصدرت دار «سيريس برود كسيون » للنشر كتابا خاصا برسوم الرسام جلال ابن عبد الله . وذلك ضمن سلسلتها : « فن وتاريخ » . وقد سبق لهذه الدار ان نشرت في هذه السلسلة كتابا عن المصوغ التقليدي التونسي وكتابا ثانيا عن سوسة ومعالمها الاسلامية . واعلنت انها ستنشر في القريب ثلاثة كتب من نفس النوع : الاول خاص بالرسوم تحت البلد من تاليف محمد المصمودي ، والثاني عن رسوم الاطفال ، والثالث عن رسوم الفنان الهادي التركي .

وضمن الكتب المهمة التي صدرت في تونس كتاب « سرقات المتنبي وشكل معانيه » وهو من تاليف ابن بسام النحوي وتحقيق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، هذا الكتاب صدر عن الدار التونسية للنشر .

وكتاب « تحفة المحبين والاصحاب في معرفة ما للمدنيين من الانتساب » وهو من تاليف عبد الرحمن الانصاري وتحقيق الاستاذ محمد العروسي المطوي . هذا الكتاب يعد الحلقة الخامسة التي تصدر تحت اسم « تراثنا الاسلامي » .

※ دخلت مجلة « الفكر » التونسية سنتها السادسة عشرة بصدور عدد اكتوبر 1970 .

ليبيـــا :

﴿ جاء من ليبيا ان مؤتمرا اسلاميا سيعقـــد في ليبيا في شهر دجمبر المقبل . وان شخصيات اسلامية معروفة على المستوى العالمي ستشارك فيه .

الجمهورية العربية المتحدة :

﴿ كتاب «كليلة ودمنة» قام باعادة كتابته باسلوب عصري مبسط الدكتور : محمد علي العريان،والاستاذ عبد المنعم قنديل .

﴿ ستصدر بالقاهرة ترجمة عشرين قصة للكاتب الانجليزي لورانس . قام بترجمتها الى العربية السيد رمسيس فهيم . وستصدر عن الهيئة العامة للتاليف والنشـــــر .

﴿ قام شيخ الازهر على راس وفد من العلمـــاء بزيارة الى عدة دول اسلامية في افريقيا وآسيا واوربا للاطلاع على احوال المسلمين فيها ودعوتهم الى نصرة اخوانهم العرب في معركة التحرير .

﴿ صدر عن سلسلة المكتبة الثقافية بالقاهـــرة كتاب « اليهودية العالمية » لمؤلفه فؤاد محمد شبل ، وكتاب « دراسة في الشعر الحر » للشاعر حسن توفيق

﴿ كما صدر عن كتاب الهلال :

« حوار مع اليسار الاوربي » لامير اسكندر ، و « الجنون فنون » للدكتور لويس عوض .

لــبـنــان :

﴿ اصدرت الكاتبة الفرنسية جان دورتال كتابا بالفرنسية بعنوان : سعيد عقل شاعر لبناني كبير » . تناولت فيه بالدراسة حياة وشعر الشاعر اللبنانـــي المذكـــور .

﴿ عقد في بيروت ملتقى شعري عربي كبير جمع كبار شعراء العرب في ندوات وامسيات بحثت فيـــه شؤون الشعر المختلفة . نظم هذا اللقـــاء النـــادي الثقافي العربي .

﴿ صدر عن دار الكتاب العربي بلبنان كتـــاب « النكسة والخطا » ، وهو من تاليف اديب منصور .

﴿ وعن دار الطليعة ببيروت صدرت الكتب الآتية:

« الحرب الثورية في الفيتنام » لكبريل بونيه ، وترجمة اكرم ديري .

« الامير الحديث » تاليف انطونيـــو غرامشي وترجمة زاهي شرفان وانيس الشامي .

« المقاومة الفلسطينية » للصحفـــي الفرنســـي جيرار شاليا . قام بترجمته صباح كنعان .

« سوسيولوجية ثورة » تأليف فرانز فانـــون ، وترجمة ذوقان قرقوط .

« المفهوم المادي للمسالة اليهوديـــة » تاليـــف ابراهيم ليون .

« الماركسية والمسالة القومية » تاليف الياس مرتـــض .

« منطق الاشتراكية الكبير » تاليـــف روجـــي كارودي وترجمة ذوقان قرقوط .

ســوريـــا :

﴿ انتهت الكاتبة السورية غادة السمان من اعداد رسالة الدكتوراه عن « العناصر الغربية في المســـرح المصـــــري »

﴿ « بناة العالم » دراسة تحليلية عن ثلاثـــة من عباقرة الادب وهم : هولدرن ، دستويفسكي ، بلزاك . ستيفان زفايج . صدر هذا الكتاب بترجمـــة محمد جديـــد .

﴿ « حديث عن الفيتنام » مسرحية وثائقيـــة للكاتب الالماني المعاصر بيتر فايس . تناول فيها تاريخ الفيتنام القديم، ومجرى حرب التحرير المستمرة هناك . قام بترجمة هذا الكتاب ابراهيم وطفي .

العـــــراق :

﴿ « الشعر العراقي الحديث » ، اسم كتاب يصدر قريبا للدكتور نعمان الجبوري .

* صدر للناقد العراقي عزيز السيد جاسم كتاب بعنوان : « دراسات نقدية في الادب الحديث » .

* « اكتشفت في منطقة ازقراق التابعة لمحافظة كركوك بشمال العراق آثار وبقايا لمساجد تعود في تاريخها الى عهد العباسيين الذي بدا في القرن الثالث عشر الميلادي . كما تم العثور كذلك على مسكوكات تعود الى العهد ذاته . ويقول تقرير لدائرة الآثار انه من المتوقع اكتشاف آثار اخرى في وقت قريب .

* « ترانيم » اسم اول مجموعة شعرية للشاعر الشعبي حسن صادق فرحان صدرت مؤخرا بالعراق.

* كما اصدر الشاعر العراقي معتصم السنوي مجموعته الشعرية بعنوان : « أرض لم تعرف المطر » تضمنت اكثر من 35 قصيدة .

* اعادت احدى المطابع الاوربية نشر كتاب « حكايات ابى القاسم البغدادي » بتحقيق جديد . ويعتبر هذا الكتاب في نظر المستشرقين من اكثر الكتب تعبيرا عن الحضارة التي عاشها العرب والمسلمون في ظل الدولة العباسية .

المملكة العربية السعودية :

* دعا السيد انعام الله خان الامين العام لمؤتمر العام الاسلامي ان المؤتمر سيعقد اجتماعين في القريب ، احدهما في جدة ، والآخر في مكة المكرمة ، وسيبحث المؤتمر الدعوة الى تحرير الاراضي المقدسة وقضية طبع القرءان الكريم ، وترجمته الى اللغات الاجنبية وعدة قضايا مهمة أخرى .

* قام الامير مشعل بن عبد العزيز امير مكة بغسل الكعبة المكرمة داخل الحرم المكي الكبير . وساعد الامير مشعل في احتفال الغسل التقليدي الذي يجرى سنويا عدد من سفراء الدول الاسلامية المعتمدين لدى المملكة العربية السعودية .

الهند :

* « دعا المجلس الاسلامي في الهند الى عقد مؤتمر للمسلمين في عموم الهند خلال الشهر الحالي ، يجتمع فيه جميع رجال الفكر المسلمين لدراسة الوضع الراهن في البلاد ، ودور المسلمين في مواجهة ومعالجة الظروف التي تحيط بالمسلمين .

أندونيسيا

* عقد مؤخرا في باندونغ المؤتمر الاسلامي الافريقي الآسيوي الذي دام اربعة ايام درست خلالها قضية نشر الدعوة الاسلامية وزيادة التعاون الاقتصادي والتفاهم التام بين الدول الاسلامية . وقد افتتح المؤتمر الرئيسي الاندونيسي .

الاتحاد السوفياتي :

* كشف علماء الآثار السوفييت عن موقع في شبه جزيرة كولا يعود الى ما قبل التاريخ ، الى حوالي 7000 سنة .

كما وجدوا ايضا آثار انسان ما قبل التاريخ في عدة نقاط اخرى كثيرة ، فيما وراء الدائرة القطبية . وذلك في موقع من مواقع العصر الحجري الحديث في جزيرة من جزر ارخبيل سيبريا في المحيط المتجمد القطبي ، ووقفوا هناك على اشياء مصنوعة من العظام وعلى رؤوس سهام وابر وفؤوس مشكلة على هيأة انياب الماموت . وفي سبتزبرج وجدوا بقايا من نقوش على الصخور تمثل رسوما شبحية لحوت وهياكل تدل بدورها على وجود انسان ما قبل التاريخ ، كما وجدوا كذلك حفريات نباتية تعود الى العهد الجيولوجي الثالث وتدل بدورها على ان المناخ القطبي لم يكن دائما بنفس القسوة التي هو عليها الآن . ذلك انهم تبينوا انه منذ ملايين السنين قد نبتت في تلك المنطقة اشجار البلوط والسنديان وزهور الزيزفون .

يوغسلافيا

* ستكون يوغسلافيا اول بلد شيوعي يدعى للمشاركة في المسابقة الدولية لتلاوة القراءان الكريم التي ستقام هذه السنة في 17 نونمبر بكوالالمبور .

الجدير بالذكر ان عدد المسلمين في يوغسلافيا يجاوز المليونين .

السويد :

* اعلنت الاكاديمية السويدية ان جائزة نوبل للآداب لسنة 1970 ، والذي تبلغ قيمتها اربع مائة الف كرون سويدي قد منحت للكاتب السوفييتي اليكساندر سولجنيتسين .

وقال هذا الكاتب الذي ولد سنة 1918 انه قبل الجائزة التي منحت له ، وانه سيذهب الى ستوكهولم لتسلمها بنفسه . اعتقل سولجنيتسين في اعقاب الحرب العالمية الثانية بتهمة انتقاده الرئيس ستالين، ولم يفرج عنه الا بعد وفاة ستالين . اول ديوان صدر له « جناح المصابين بالسرطان » . وجر عليه هذا الديوان انتقاد الكتاب السوفييتيين . في سنة 1967 طرد من عضوية الاتحاد . وفي سنة 1970 سمح له بمغادرة الاتحاد السوفييتي .

* منحت جائزة نوبل في الطب لهذه السنة الى ثلاثة علماء هم : السير برنارد كاتز البريطاني ، والدكتور اولف فون اولر السويدي ، والدكتور جوليوس اكسلرود الامريكي .

اما الدكتور فون اولر وهو في الخامسة والستين فيعمل استاذا لعلم وظائف الاعضاء في معهد كارولينسكا في ستوكهولم بينما يشتغل الدكتور اكسلرود منصب الاستاذ رئيس علوم الصيدلة في المعهد الوطني للصحة العقلية في ماريلاندا . وقد منحت هذه الجائزة لهؤلاء العلماء الثلاثة لاستكشافاتهم المتعلقة بمرسلات السائل البدني في مراكز الاعصاب وطرق تخزينها ، واعادة تنشيطها .

المانيا :

* توفي مؤخرا الكاتب الالماني اريك ماريا ريمارك الامريكي الجنسية ، والالماني الاصل . خلف الكاتب عدة مؤلفات من اشهرها كتاب « لا جديد في الغرب » وكتاب « زمن للحب وآخر للموت » . اختفى عن عالم الادب طوال السنين الاخيرة ، واعتزل في قرية بوترونكو التي تقع على هضبة تطل على بحيرة ماجور قرب الحدود الايطالية .

فرنسا :

* صدر عن منظمة اليونيسكو كتاب بعنوان : « منح ودورات دراسية للنساء » بثلاث لغات .

* عقد في ستراسبورج مؤتمر دولي صحفي نوقش خلاله مفهوم الصحافة في الوقت الحاضر . حضره صحفيون من 25 دولة .

* نعت فرنسا كاتبها الكبير فرانسوا مورياك الذي اتحف المكتبة الفرنسية بمختلف الكتب الادبية والدراسية . وكان لوفاته صدى كبير في المحافل الادبية العالمية .

* وقعت اليونيسكو عقدا مع المجلس الدولي للمحفوظات لاصدار دليل بمصادر تاريخ افريقيا . والمنتظر ان يصدر هذا الدليل في ثمانية اجزاء . الجزء الاول والثاني خاص بفرنسا . والثالث والرابع خاص بايطاليا ، والخامس خاص بالفاتيكان ، والسادس خاص باسبانيا . وستقدم احدى دور النشر الهولندية باصدار هذا الدليل الذي يشمل الوثائق المتعلقة ببلاد القارة الافريقية المحفوظة في المتاحف الاوربية . وقد تقرر اصدار هذا الدليل في نطاق مشروع تاريخ افريقيا العام تحت اشراف اليونيسكو .

* قام مجلس اليونيسكو التنفيذي اثناء دورته الرابعة والثمانين المنعقدة في باريس ، بانتخاب ثلاثة اعضاء جدد هم : الآنسة جان هيرش ، استاذة الفلسفة بجامعة جنيف ، والسيد نابوليون ليبلا وكيل جامعة لافال في كندا ، والسيد بليد سانجور المندوب الدائم لبلاده السينغال في اليونيسكو .

* ستقوم اليونيسكو ابتداء من السنة المقبلة بتقديم مساعدة فنية للبلاد المهتمة بصيانة محفوظاتها، كما ستنظم برامج دراسية اقليمية لتدريب الفنيين . وقد قامت عدة لجن بالتجول في 14 بلدا في آسيا، وامريكا اللاتينية ، والعالم العربي ، وصورت على الافلام المصغرة 4 مليون صفحة من الوثائق والخرائط والمنقوشات والمخطوطات القديمة . هذا بينما قامت فرق اخرى منذ سنة 1964 بتصوير اكثر من مليون صفحة من المخطوطات في سوريا ، وكامبوديا ، والهند، والعراق ، والفلبين ، والسودان ، واثيوبيا .

* اشتركت حوالي عشرين شخصية من شخصيات المسرح الدولية في ندوة عقدت مؤخرا بدار اليونيسكو لدراسة مستقبل « مسرح الامم » . وذلك تنفيذا لقرار اتخذه المجلس الاعلى لليونيسكو .

* قررت عدة جامعات فرنسية تدريس اللغة العربية لطلبة الجامعة كلغة ثانوية . وقد انتدب لهذه المهمة اساتذة من الجمهورية العربية المتحدة .

* اعلنت جمعية الصداقة العربية الفرنسية لمناقشة الاعمال الادبية المقدمة اليها نتائجها لهذه السنة وكانت كما يلي :

الفائز الاول : السيد فرجي عن كتابه : « من اجل الفدائيين » ، وهي من مطبوعات « نصف الليل » .
الفائز الثاني : الدكتور انور عبد الملك عن كتابه « الايديولوجية والنهضة الوطنية في مصر الحديثة » .

الجائزة الثالثة : للآنسة نفيسة الزردومي عن كتابها « اطفال الامس » وهي من مطبوعات ماسبيرو .

وفاز بجائزة خاصة السيد ايمانويل ليفين عن ملف وثائقي بعنوان : اليهودية ضد الصهيونية » .

وتوصلت اللجنة بكتابين آخرين للدكتور انور عبد المالك هما « مصر مجتمع اشتراكي بنبيه العسكريون » وكتاب « الفكر السياسي العربي المعاصر »

انجلترا

* ستبدأ مجلة « ساندي طايمز » اللندنية بنشر مذكرات السيد جورج براون ، وزير الخارجية البريطانية السابق .

* صدرت في انجلترا دائرة معارف للاطفال تقع في عشرين مجلدا ، وتحتوي على ثلاثة ملايين كلمة وتسعة آلاف رسم توضيحي منتشرة على 6565 صفحة .

أمريكا :

* بيعت بالمزاد العلني بنيويورك برواق بارك بيرنيت لوحة من لوحات الرسام رامبراندت . واللوحة تمثل صورة ضابط . وقد وصل ثمنها الى نصف مليون دولار. وسبق ان بيعت لوحة لنفس الفنان بمليار فرنك منذ عشر سنوات . وقد ضرب الرقم القياسي في الثمن .

* فقدت امريكا كاتبها الكبير دوس باسوس الذي ولد في شيكاغو يوم 14 يناير 1896 ، وتوفي يوم الاثنين 28 شتنبر 1970 . وقد ترك الراحل عدة مؤلفات ، آخرها بعنوان : « قصة البرتغال » التي صدرت سنة 1969 . فاز بالجائزة الدولية التي تمنح بروما والمسماة جائزة « فلترنياتي » .

* صدرت الطبعة الثالثة من القاموس الدولي الجديد عن احدى دور النشر الامريكية في لوس انجيلوس الامريكية . وهو قاموس خصص فقط في بحث الكلمات الجديدة التي اشيع استعمالها فيما بعد عام 1900 وعددها سبعة آلاف كلمة وتعبير .